Princeton University Library
32101 057497768

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

هداية القرآن
لبني الانسان

موجز منتخب لتفسير القرآن

تأليف

يحيى احمد الدرديري
دكتور في الحقوق والسياسية في العلوم السياسية

المجلد الأول

يتضمن تفسير سورتي الفاتحة والبقرة
وهو الجزء الاول والثاني وبعض الثالث من كتاب الله الحكيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٧٠ — ١٩٥٠

العنوان : ١٢ شارع الملكة بالقاهرة

هدية من المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين
يوم الجمعة ٨/١٠/١٩٥٤
(القاهرة)
Dardiri

هداية القرآن
لبني الإنسان

موجز منتخب لتفسير القرآن

تأليف

يحيى أحمد الدرديري
دكتور في الحقوق وليسانسيه في العلوم السياسية

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٦٩ — ١٩٥٠

المطبعة السلفية

(RECAP)
BP130
.4
.D372
1950
جزء 1

موجز منتخب لتفسير القرآن

﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (قرآن كريم)

بقلم الدكتور يحيى احمد الدرويري

[redacted]101 021992852

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسل الله أجمعين

وبعد فان القرآن الكريم كتاب الله تعالى ، وهو عقد بينه وبين خلقه ، ورباط بين السماء والأرض ، فيه علم وإرشاد ، وهداية ورشاد ، ونظام ينظم حياة الانسان فى حركاته وسكناته ، وأقواله وأفعاله ، كما يضع نظام الأسرة والجماعة والحكومة والانسانية ، ويهديها إلى أقوم سبل السعادة .

يخبرنا القرآن الكريم — فى بيان واضح وبرهان ساطع — أن كل قوة من قوى هذه الأرض ، وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعا للانسان ، وخلق الانسان مستعدا لتسخيره لمنفعته ، وأن العلم هو الوسيلة لخلافة الأرض وتسخيرها له ، بل تسخير مافى العالم من أرض وهواء وماء وسماء .

علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة لأنه أقامهم على سواء المحجة . وجدير بصاحب اليقين أن يطالب به خصمه ويدعوه إليه ، وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح : قالوا بالدليل ، وطالبوا بالدليل ، ونهوا عن أخذ شىء من غير دليل

وعلم الناس استقلال الفكر مع المشاورة فى الأمر .

وضرب لنا الأمثال من سير الغابرين ، لتكون عبرة لنا فى حاضرنا ومستقبلنا ، فاستخلف آدم عليه السلام فى الأرض بعد أن علمه الأسماء كلها ، وعن طريق العلم استتب له الأمر ، وخضعت له الملائكة ، وسخر فى خدمته نواميس الطبيعة . وجاء يوسف عليه السلام فكان رسول المال والجمال ، فزهد فى المال وعف فى الجمال ، وأنقذ

186102

مصر وما حولها من مجاعة أتت على الأخضر واليابس ، وهلك فيها الزرع ، وجف منها الضرع . وجاء داود عليه السلام فكان رسول الصناعة والجهاد ، والزهد والرشاد ، وانتصر على أهل البغى والفساد . وكان بعده سليمان عليه السلام ، وكان له من الملك ما لم يكن لأحد من قبله ولا من بعده ، فعلم منطق الطير ، وسخر له الريح ، وكان له من السلطان فى عالم الشهادة والغيب فسخر الجن له . وجاء بعدهم من الأنبياء والمرسلين من كانوا فيه المثل العالى لتحرير شعوبهم وأممهم من نير الاستعباد ، وهدايتهم إلى ما فيه الخير والرشاد ، وكان خاتمتهم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فكان المثل الكامل فى جميع نواحى الحياة البشرية : نبيا ورسولا ، زوجا وأبا ، صاحبا ومرشدا ، محاربا ومجاهداً ، مقيما ومسافراً ، فى العسر وفى اليسر ، فى الصحة والمرض ، فى الحرب وفى السلم

كل هذا بيان واضح للمسلم بأنه خلق ليكون سيدا فى الأرض ، وخليفة لله على هذه اليابسة . فهم ذلك المسلمون الأولون . وكان للمرأة حظ الرجل فى العلم وتكاليف الحياة ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ﴾ وتلك هى الرياسة الرشيدة ، والزعامة السديدة . وأخذوا بأسباب الرقى فى الهداية الخلقية العظيمة ، والعلم النافع ، وبذل النفس والنفيس فى الدفاع عن الحق ، فسادوا الأرض وأضاءوا مشعل الحضارة فى القرون الوسطى ، وأخذت عنهم أوروبا الكثير من علومهم ومعارفهم التى هى أساس حضارتهم اليوم .

ودارت الأيام دورتها ، واستنام المسلمون ، واشتغلوا بملذاتهم وشهواتهم ، فصرفتهم عن الجهاد وبذل المال والنفس فى سبيل الله ، أى فى سبيل خيرهم وإسعادهم ، والحرص على حريتهم واستقلالهم . وقد أنذرهم الله تعالى وحذرهم وأوعدهم سوء المصير ، فقال تعالى : ﴿ هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ : فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ . وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾

بخل الشبان بنفوسهم ، والأغنياء بأموالهم ، والعلماء بقدوتهم وعلمهم ، وأصحاب

الجاه بجاههم ، وعاش كل عابدا لشهوته ، ضعيفا مستذلا فى أمته . وكانت النتيجة أن نفذ الله وعيده ، وهذا هو الشرط الجزائى فى كتاب الله لكل جماعة تتنكب عن هداية الله ، فضرب المسلمون فى مصر والسودان والهند بالاستعمار البريطانى ، والمسلمون فى شمال أفريقيا بالاستعمار الفرنسى والاسبانى ، والمسلمون فى اندونيسيا بالاستعمار الهولندى جزاء ما فرطوا . وهذا هو الاستبدال . نزعت سيادتهم وحريتهم ، وذهبت لغيرهم ممن هم أقوى عزيمة ، وأشد شكيمة ، وأكثر علما وتضحية وبذلا

يجب أن يعرف مسلمو اليوم أن الاسلام دين الرجولة الكاملة ، لا دين الخنوثة والميوعة المتبرمة . دين إصلاح وتعمير ، لا دين إفساد وتدمير . دين أعمال ، لا دين أقوال وجدال

عرف الاسلام بأنه دين الفطرة السليمة والمبادىء القويمة ، يدعو إلى التوحيد فى يسر ، ويأمر بالمعروف فى هوادة ، وينهى عن المنكر فى حزم ، ويأمر بالعمل الصالح فى كل زمان ومكان ، لأنه دليل الايمان الصحيح وحجته الواضحة ، ويدعو إلى التضحية والبذل لقوام الهيئة الاجتماعية وسلامتها من عبث العابثين ، وبقائها قوية لا يطمع فيها المستهترون ، ولا يتطاول عليها الطامعون

قوام الاسلام صحة الايمان وصالح الأعمال ، وقوام المسلم صدق اليقين والبذل فى إعلاء كلمة الدين وان تكون كلمة الله هى العليا ، وما انتشر الاسلام ولا ساد المسلمون إلا بهذا ، وبهذا وحده اعتز الاسلام والمسلمون .

عرف الاسلام لنا طريق الحياة الكاملة ، وأعلمنا أن الجسم وقوامه الصحة والعافية لا تنال إلا بأطيب الطعام والشراب فى غير تبذير ولا تقتير ، فأمر بأكل الطيبات من الرزق لنعمل صالحا ، وقد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّها الرُّسُلُ كلُوا مِنَ الطيبَاتِ واعمَلوا صَالحاً إنى بمَا تعملونَ عَلِيم ﴾ (سورة المؤمنون) كما قال تعالى : ﴿ كلُوا وَاشرَبُوا ولا تسْرفُوا ﴾ (سورة الأعراف) لنؤدى واجباتنا المادية والروحية ، كما أبان لنا الحياة الروحية وقوامها العلم والطهارة فقال تعالى ﴿ ربِّ زِدْنِى علماً ﴾ (سورة طه) وكما قال تعالى ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطَنَ ﴾ وقال أيضا ﴿ إنَّ اللهَ يحب

التَّوَّابينَ ويحِبُّ المُتطهِّرينَ ﴾ (سورة البقرة) وهذا يشير إلى طهارة النفس والجسم معاً .

لما كانت العزة من أكبر معالم الرجولة ، وهى لا تقيم إلا فى النفوس المتيعة الموصوفة بالبذل والتضحية ، فرض على كل مسلم البذل والتضحية : بذل المال وتضحية النفس فى سبيل الخير والحق ومحاربة الشر وهزيمة الباطل .

فرض الاسلام على كل مسلم قادر أن يحمل سلاحه ويعد العدة لحماية نفسه ودينه وعرضه وماله ووطنه فقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عليكُمُ القتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لكمْ وَعَسى أنْ تكرَهُوا شيئاً وَهُوَ خيرٌ لكمْ وَعَسَى أنْ تحِبُّوا شيئاً وَهُوَ شرٌّ لكمْ واللهُ يعلمُ وأنتمْ لا تعلمُونَ ﴾ (سورة البقرة)

فحماية مبادىء الاسلام ونصرة المسلمين فرض لازم فى عنق كل مسلم قادر .

والجهاد فى سبيل الحق ونصرته أعلى مراتب العبادة ، وفيه أكثر آيات القرآن الكريم .

بذل المال والنفس هما قوام حماية الاسلام وعزة المسلمين ، اعتصم بهما المسلمون فى الصدر الأول فكملت لهم الرجولة ، وسادوا الدنيا ، واستخلفهم الله فى الأرض فقال تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سَبيل الله الذينَ يقاتلونكمْ ولا تعتدُوا إنَّ الله لا يحبُّ المعتدينَ . واقتلوهُمْ حيثُ ثقفْتُمُوهُمْ وأخْرِجُوهمْ منْ حيثُ أخرجُوكمْ والفتنةُ أشدُّ منَ القتل ، ولا تُقاتلوهُمْ عنْدَ المسجد الحرام حتى يقاتلوكمْ فيه ، فانْ قاتلوكمْ فاقتلوهمْ كذلكَ جزاءُ الكافرين . فإن انتهوا فانَّ اللهَ غفُورٌ رحيمٌ . وقاتلوهمْ حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ لله ، فان انتهوا فلا عدْوانَ إلا على الظالمين . الشهرُ الحرامُ بالشَّهر الحرام ، والحرماتُ قصاصٌ ، فمن اعتدى عليكمْ فاعتدُوا عليه بمثل ما اعتدى عليكمْ واتقُوا الله واعلمُوا أن الله معَ المتقينَ . وأنفقُوا فى سَبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكمْ إلى التهلُكة واحسنوا إنَّ الله يحبُّ المحسنينَ ﴾ (سورة البقرة)

أمرنا الله تعالى فى صريح العبارة بأن ندفع عن أنفسنا العدوان ، ونبذل المال والنفس فى صيانة حقوقنا والاحتفاظ بحريتنا ومبادئنا ، وحذرنا من التهاون والبخل

لأنهما طريق الذل والاستعباد والتهلكة ، كما دعانا تعالى إلى الاحسان فى العمل — أى وضع الأشياء مواضعها — وتقدير الأشياء فى نصابها ، فى غير إسراف أو تقتير أو ظلم أو تفريط

والمعنى : إذا لم تبذلوا فى سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم ، وفى سبب النزول عن أبى ايوب الأنصارى قال : نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الاسلام وكثر ناصروه ، قال بعضنا لبعض سراً : ان أموالنا قد ضاعت ، وان الله قد أعز الاسلام ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله يرد علينا ما قلنا « وأنفقوا » الآية ، وكانت التهلكة الاقامة على الأموال واصلاحها وتركنا الغزو .

والأمر بالاحسان على عمومه ، أى أحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها فلا تهملوا إتقان شىء منها . ويدخل فيه التطوع بالانفاق .

فالاسلام يدعو بصريح العبارة إلى الكرامة والذود عنها والقتال فى سبيلها ، ويعلمنا جليا أن الحياة ما هى إلا معركة دائمة لا يبقى فيها إلا الأصلح والأقوى ، فهو يدعو كل مسلم لأن يكون مصلحا ، ولأن يكون قويا ، حتى ينعم برجولته وحريته .

وان تنازع البقاء سنة من سنن الوجود الخالدة ، وإن بقاء الأمثل لا يكون إلا بالقوة والمحاولة فى نصرة الحق والفضيلة والدفاع عنهما دفاع المستميت ، وبهذا يمكن درء الفساد فى الأرض ، يعزز ذلك فى القرآن الاذن للمسلمين بالقتال فى سورة الحج ﴿أذن للذين يقاتلونَ بأنهمْ ظلمُوا وإنَّ الله عَلىَ نصرهمْ لقديرٌ ، الذين أخرجُوا من ديارهمْ بغير حقّ إلا أنْ يقولوا ربنا اللهُ ، ولولا دفعُ الله النـاسَ بعضَهُم ببعض لهدِّمتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكرُ فيها اسمُ الله كثيرا ، ولينصرنَّ اللهُ منْ ينصرُهُ إن الله لقوىٌّ عزيزٌ ، الذين إنْ مكنـاهمْ فى الأرض أقامُوا الصَّلاة وآتوا الزكاة وأمرُوا بالمعروفِ ونهوا عنِ المنكر ، ولله عاقبةُ الأمورِ ﴾ (سورة الحج)

فهذا إرشاد إلى تنازع البقاء والدفاع عن الحق وأنه ينتهى ببقاء الأمثل وحفظ الأفضل .

ومما يدل على هذه القاعدة من القرآن المجيد قوله تعالى فى سورة الرعد :

﴿ أنزل منَ السماءِ ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتملَ السيلُ زبداً رابيا ومما يوقدُون عليه فى النَّار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثلهُ ، كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطل ، فأما الزبدُ فيذهبُ جفاء وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكث فى الأرض كذلك يضربُ اللهُ الأمثـــال ﴾ فهو يفيد أن سيول الحوادث ونيران التنازع تقذف زبد الباطل الضار فى الاجتماع وتدفعه ، ويبقى الحق النافع الذى ينمو فيه العمران . وقد أوضح القرآن الكريم فى كثير من الآيات أن الحق يزهق الباطل ، والحق صفة من صفات الله عز وجل ، وعليه قام الوجود ، وبه يبقى ، ومن غيره يفنى . فلا بد لهذا الحق من الانتصار والظهور مهما قويت عوامل الباطل وتراكمت سحبه بعضها فوق بعض ، قال تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ ، ﴿ وقلْ جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ سورة الاسراء

فرض عـــلى كل مسلم قادر أن يستكمل عدة الكفاح فى الحياة ابتغاء النصر ، وابتغاء أن يعيش عزيز الجانب ، عليه أن يقوى جسمه بمختلف الرياضة وانتقاء خير الأغذية وأحسنها ، وتجنب الأمراض وأسبابها ، وأن ينمى عقله وحياته الروحية بالتحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل . وقد أبان القرآن الكريم كل الوسائل النافعة وأمر بها كما نهى عن الوسائل الضارة وهدى الى اجتنابها فقال تعالى ﴿ أنَّ اللهَ يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ سورة النحل . هذه الآية وحدها كافية لأن تنير طريق الحياة الدنيا ، وتهدى إلى أعلى مقامات الرفعة والشرف ، وهى وحدها كافية لأن تكون أساس العمران وداعية للوئام ونشر السلام . فأى موجود لا يرعى العدل فهو هالك .

إذا لم يقم الانسان العدل مع نفسه فى طعامه وشرابه ونومه ويقظته وحركاته وسكناته فقد أفسد جسمه وأضعف روحه وهلك مع المسرفين . وإذا لم يقم الانسان العدل مع من حوله ومن يعامله حلت بينه وبينهم الخصومة والعداوة وامتدت إليه الأيدى بالأذى واستحوذ الهم والغم عـــلى نفسه بالتلف والعطب . وإذا لم يحسن الانسان عمله فهو مردود عليه بالخسران .

إذا لم يحسن الانسان مع الناس ناصبوه العدوان ، فبالعدل تستقيم الأمور كلها ، وبالاحسان تبلغ درجة الكمال والنمو والزيادة ، وبالمعروف تتآلف القلوب وترتبط برباط المحبة ، وبالبعد عن الفحشاء والمنكر والبغى تستأصل عوامل الشقاق والخلاف والحسد وأصول الفساد فى الأرض .

ومن راعى أوامر القرآن الكريم واتبعها سلك منهج الرشاد ، وسار فى طريق السداد ، وعاش فى الدنيا سيداً كريما ، وفارقها وهو على خير الصفات وأحسن الأخلاق .

مبادىء الاسلام تحقق فى المسلم الرجولة الكاملة إذا اعتصم بها وعمل على حسب مقتضياتها .

فلا بد للمسلم الصادق من :

(١) التخلق بالفضيلة : الصدق فى القول ، والاخلاص فى العمل ، وانجاز الوعد ، وكتمان السر ، وحسن المعاشرة والمعاملة .

(٢) البذل والتضحية فى النفس والمال فى سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وأن يحارب كل فساد وتدمير ، ويعمل على كل إصلاح وتعمير ، ويعمل على تحقيق كل خير لصلاح المجتمع

(٣) الاعتصام بالله وبكتابه وهديه ، فيحل حلاله ، ويحرم حرامه . وقد قال تعالى ﴿ ومنْ يعتصم بالله فقد هُدى إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ . سورة آل عمران

بهذه الصفات والأخلاق ساد المسلمون فى الصدر الأول ، واستخلفهم الله فى الأرض ، فكانوا خير الخلفاء ، وأحسن الناس سيرة وأقومهم عدلا .

ولكن هل المسلمون اليوم على هذه الصفات ؟ !

هل المسلمون اليوم قائمون بما يفرضه عليهم دينهم ، فاذا حدثوا صدقوا ، وإذا وعدوا أنجزوا ، وإذا ائتمنوا وفوا وكتموا ، وإذا عاملوا أحسنوا ، وإذا عاشروا بروا ؟!

هل المسلمون اليوم يضحون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الحق وازهاق الباطل

ونصرة الضعيف والمظلوم ؟ ويتعاونون على البر والتقوى ، ويبذلون فيما هو نافع ومفيد للصالح العام ؟

انظر إلى أحوال البلاد الاسلامية تر الباطل حقا والحق باطلا ، يضحى الأفراد بالمبادىء السامية فى سبيل المال والجاه والشهوة الجامحة وارواء النفس بأحط الشهوات .

أين هى الكرامة يامعشر المسلمين وقد غلبتم على أمركم وضاعت بلادكم واستعبدتكم شهواتكم وأنتم تعاملون فى كافة أنحاء الدنيا معاملة الخسف والهوان ؟

أين هى الحمية للكرامة والحرية ، وقد سلبكم المستعمرون الحرية والاستقلال ، وصرتم تتداولكم الأيدى الغاصبة كما يتداول القصاب ذبائحه : يبيع ويشترى فيها وهى لا علم لها بمن يكون مالكها ، وكم يكون ثمنها ؟

هل اعتصم المسلمون بكتاب الله الكريم فأحلوا حلاله وحرموا حرامه ؟

إن سنة العصر هى إتيان الفاحشة جهارا ونهارا :

ا — تفتح الخمامير برخص رسمية ، ويحمى شارب الخمر بقواعد دستورية

ب — يباح الزنا ، ويستحسن الكذب ، ويكره الصدق ، وتصير الغيبة حديث المجالس ، وتعد الصلاة وفاعلها من بقايا العصر القديم ، وبعبارة موجزة أحل الكثير من المسلمين ما حرمه الله ، وحرموا ما أحله الله ، وكرهوا القتال والنضال ، واستحبوا العمى والضلال على النور والهدى ، فأصبح المسلم لا يرى إلا نفسه ، ولا يعمل إلا لارضاء شهواته بكل ما أوتى من الوسائل : صحت أو فسدت ، حرمت أو حللت

حاد المسلمون عن طريق الله فضلوا .

اعتصموا بغير الله فذلوا .

غلبتهم شهواتهم فتخنثوا ، وأصبحت أخلاق الرجال أشبه بأخلاق النساء ، يبددون أوقاتهم فى قيل وقال ، وإضاعة المال ، وفيما ليس فيه فائدة .

وقد حذرهم الله تعالى فى غير آية أنه لا يستخلف فى أرضه ضعيفا مخنثا ولا جبانا

رعديدا ولا مفسدا يؤثر حب نفسه وحب المال والنساء على مرضاة ربه والدفاع عما أمر به ، ومن أخلد إلى حب الدنيا ورضى بها فقد آثر ذل الحياة على عزها ، وعرض نفسه لنزع ما فى يده واستخلاف غيره . فقال تعالى منذرا :

﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا ما لكم إذا قيل لكمْ انفرُوا فى سبيل اللهِ اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياةِ الدنيا منَ الآخرة فما متاعُ الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليلٌ ، إلا تنفروا يعذبكمْ عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروهُ شيئا واللهُ على كلِّ شىء قديرٌ ﴾ سورة التوبة

وقد حقق الله وعده فى المنافقين فى صدر الاسلام واستبدل بهم من هم خير منهم من المسلمين الصادقين الذين نصروا الاسلام وأعزوه ورفعوا رايته عالية .

وهذه سنة الله الخالدة لا يرث الأرض إلا من كان صالحا ولو كان كافرا ، ولا يذل ولا يستعبد إلا من كان خاملا مخنثا ولو ادعى الاسلام ولبس ثوب المصلين وتزين بحلة الصائمين وتزعم المتهجدين والمتعبدين

الاسلام دين ايمان وعمل ، لا دين رياء وكسل . دين حق وتضحية ، لا دين باطل ومجبنة . دين فتوة وإصلاح ، لا دين خنوثة وافساد . دين أمانة وعفة ، لا دين خيانة وفجور . دين يرعى الباطن كما يرعى الظاهر ، فهو طهارة الأخلاق وطهارة الأجسام . يحارب الفحش ويمقته ويبغض الرذيلة ويعلن الحرب عليها جهارا نهارا فى غير خوف ولا وجل

الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ، هو رب قلوب لا رب مظاهر فارغة جوفاء ، أبان لنا عن سنة واضحة جلية من أخذ بها فاز وسلم ، ومن تركها خاب وندم . فليعرض المسلمون أنفسهم على كتاب ربهم اليوم يروا أن القرآن الكريم حجة عليهم لا لهم ، وأنهم حاربوا الله بالعصيان فباءوا فى حياتهم بالفشل والخذلان ، فهم الفقراء فى مالهم ، المستعبدون فى أوطانهم ، الأذلاء فى عشيرتهم وبين أولادهم ، بأسهم بينهم لا على عدوهم ، ليس لهم كرامة فترعى ولا دعوة فتستجاب ، استهانوا بحرمات الله واستباحوها ظلما وعدوانا ، فأهانهم وسلط عليهم من يسومهم الخسف والهوان ، فهم أضعف من أن يحاربوا دودة القطن وهى أهون جنود الله ، سلطها على الأرزاق

فأكلتها ومحقتها ، وسلط عليهم الأولاد والنساء وهى الناحية الضعيفة فى البنيان العالمى فأتلفوا المال والنفس ، وسرى العطب والفساد إلى كل شىء فأصبح وبالا وخسارا ، ومقتا وغضبا يبعث الألم والأسى . وهكذا إذا فسدت نفس الانسان فسد معها كل شىء ، وإذا صلحت صلح معها كل شىء ، ومن خاف الله خافه كل شىء ، ومن لم يخفه أخافه من كل شىء . ولو اتبع المسلمون دينهم حقا لتغير حالهم من إفساد وتدمير إلى إصلاح وتعمير ، ولكانوا المثل العليا للمدنية الفاضلة التى لا تقوم إلا على الخير ، ولا تفعل إلا الخير لصالح الوطن والانسانية جمعاء

ان ميزة الاسلام التى انفرد بها هى أنه يساير التطور ويطاول الزمن ، فلا يمكن أن تكون فيه مناقضة للمدنية الصحيحة ولا معارضة للتقدم الحق

قال المسيو (بارتلمى سنتلير) : « إن القرآن قد بقى أجمل أثر للغة التى نزل بها . ولم أر ما يشبه ذلك فى جميع أدوار التاريخ الدينى للعالم الإنسانى . وهذا الأمر يفسر التأثير العظيم الذى أحدثه هذا الكتاب على العرب الذين اعتقدوا بأن محمدا فى معارفه الساذجة لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب ، وأنه لا بد أن يكون قد أملاه عليه الملك جبريل . . . . تلك التعاليم هى التى رقت عقول الملايين من الناس . ولا تزال ترقى كل يوما شعوبا متأخرة باشرابها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية والبيتية . ولن تمضى سنوات قليلة حتى تصبح افريقيا كلها دائنة للأسلام . والمائة والعشرون مليونا من المسلمين فى آسيا الذين يزدادون كل يوم عددا لأدلة حيوية على عظمة ديانة الله (يريد الاسلام)

لم يأت محمد لمكافحة التوراة والانجيل فأنه يقول بأن هذين الكتابين قد أنزلا من السماء مثل القرآن لهداية الناس الى الحق ، وان تعاليم القرآن جاءت مصدقة لهما ولكنه لم يأخذ منهما

وقد رفض جميع الرموز والأساطير ودعا الى عبادة إله واحد قادر رحمن رحيم كما يصفه بذلك فى رأس كل سورة

وقد أمر بخمس صلوات فى اليوم ليضطر الانسان للتخلى عن اشتغالاته المادية لحيظات فى اليوم ليرتفع فى خلالها الى مولاه . وأمر أن لا تجعل العبادة موجهة لأغراض ذاتية ، فان الله أعلم بما هو أصلح لنا . وقد أوجب على المسلم أن يتصدق بحصة من

إيراده . وتلك غير الصدقة الاختيارية . وأوجب حماية المرأة بالاعتراف لها بحقوقها البيتية التى كانت غير معترف بها الى عهده بمنعه أو بتهذيبه مبدأ تعدد الزوجات . وحمى الاطفال بتحريم قتلهم تخلصا من إعالتهم ، وهى تلك العادة القديمة التى كانت منتشرة . ورعى حق الرقيق ، فأمر بمعاملته كعضو من الأسرة . وقد كان أول من قرر مبدأ المساواة أمام العدالة بين جميع المسلمين ، من أغنى الناس وأقواهم الى أفقرهم وأضعفهم . وحرم السرقة والقتل والاكراه ، ومنع شرب الخمر والميسر

وقد أعلن محمد (ﷺ) بأن للانسان حياة مستقبلة فيها عقاب وثواب أبديان ، ولكن رحمة الله تدع أملا للمذنبين فى أن لا تكون عقوباتهم أبدية . . . .

الى أن قال : ان الدين الاسلامى قد أحدث رقيا عظيما جدا فى تدرج العاطفة الدينية ، فقد أطلق العقل الأنسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد بين أيدى الكهنة من ذوى الاديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، يجازى فيها على أعماله . وباله واحد يمكنه أن يعبده ويرتفع بروحه اليه دون أن يضطر لتوسيط وسيط . . .

ثم إن محمدا بتحريمه للصور فى المساجد وكل ما يمثل الله قد خلص الفكر الأنسانى من وثنية القرون الأولى الخشنة ، واضطر العالم بهذه الصورة أن يرجع الى نفسه ، وأن يبحث عن الله خالقه فى صميم روحه ، وأن يرتفع اليه عقب ذلك بالعبادة القلبية المملوءة بالاحترام والشكر والحب

ان الناس لم يلتفتوا للترقى العظيم الذى أوجده الاسلام من الوجهة الأدبية . فأن ذلك الترقى تحقق بعيدا عنا فى أمم اعتدنا أن نصفهم بالبرابرة لانهم ليس لديهم مثل أفكارنا ولا عقائدنا . ولأنهم متأخرون عنا من الوجهة العلمية والعقلية . ولكن مع هذا كله يجب الاعتراف بان هذه الحركة الدينية قد ساعدت وتساعد كل يوم لأنارة عقول أمم

والاسلام الخالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة ومن كل الشروح الضالة لأقوال النبى يظهر لنا أنه أعظم ما يدركه الأنسان عن العلاقات التى يجب أن توجد بين الأنسان وخالقه ، وأكثرها انطباقا بين الطبيعة والمنطق » (١)

---

(١) منقولة عن (مجلة الازهر) المجلد الرابع ص ٣٦٤ وما بعدها

وكتب الاستاذ مارسيل كابى وهو من أشهر كتاب فرنسا فى جريدة (لافلش) التى تصدر فى باريس عن القرآن ما يأتى : « القرآن » كتاب موحى به ، وهو يفوق ما عرف من هذا النوع كثيرا ، فان العقيدة الروحية التى يبثها تصلح أن ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية ، وهذا سر قوة الاسلام وسماحته ووحدته

و « القرآن » باسم الايمان الثابت على وجه الاطلاق يحمل للناس بدون سفسطات بيانية ولا خيالات غير طبيعية أصول العدالة والنظام الاجتماعى الذى يخضع كل فرد لمراعاة أدب الاجتماع . ويفرض على الجماعة حماية الأفراد ، وهو بهذا الأسلوب يوافق فى جوهره أحدث القواعد الاجتماعية العصرية

وكتابه قد نظم حدود وحياة كل فرد وحياة المجموع

فهو يتناول الأنسان من يوم ميلاده ويتبعه الى يوم وفاته مراعيا كل صغيرة وكبيرة من حياته : غذائه وطهره وصلواته المصحوبة بحركات متناسقة ، وصومه السنوى المطهر فى شهر رمضان ، وزواجه وطلاقه ، وواجباته البيتية والاجتماعية ، اى ما يجب على كل فرد للجماعة ، وما يجب على الجماعة لكل فرد ... (١) » الخ

رب قائل يقول : اذا كان الاسلام كما تقولون فلماذا تأخر المسلمون وهذا كتابهم بين أيديهم لم يتغير ولم يتبدل ؟ ! الجواب : ان الذى وقف فى سبيل تقدم المسلمين هو جهلهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وإعراضهم عنه ، وانغماسهم فى الشهوات والملذات ، فباعوا دينهم بدنياهم ، وعاش كل لنفسه ، لأن الاسلام سهل مرن صالح لكل زمان ومكان لا يتمرد على الطبيعة ولا يقف حجر عثرة فى سبيل التقدم والحضارة الحقة ، بل على النقيض من ذلك يدفع بمعتنقيه الى أن يتبوءوا ذروة المجد ليكونوا فى مصاف أرقى الأمم حضارة ومدنية .

قال أحد المفكرين الفرنسيين المنصفين المسيو دينيه يصف طبيعة الاسلام : « لا يتمرد الاسلام على الطبيعة التى لا تغلب ، وإنما هو يساير قوانينها ويزامل أزمانها

---

(١) نقل عن العدد الصادر فى ١٧ ابريل سنة ١٩٣٧ من جريدة لافلش التى تصدر فى باريس بتوقيع مارسيل كابى مترجمة بمجلة الازهر مجلد ٥ ص ٢٧٩

على أن الاسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها ، وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وتطبيقا فى إصلاح ونظام ورضاء ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن (بالهدى) لأنه المرشد الى أقوم مسالك الحياة ، ولأنه الدال على حسن مقاصد الخير »

وقال الدكتور هورتن الألمانى « لا نجد بالاسلام سدا يمنع نفوذ الثقافة الغربية اليه ، بل نرى أن له استعدادا غير محدود لقبول الثقافة »

ولننقل للقارىء نبذة مما كتبه الاستاذ الامريكى الشهير (درابر) فى كتابه (التنازع بين العلم والدين) :

قال جيبون (عند ذكر الحماية والرعاية التى بذلها المسلمون للعلوم) : كان أمراء المسلمين فى الاقاليم يناظرون الملوك فى حماية العلم والعلماء ، وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار (١٦٠٠٠٠ جنيه) لتأسيس كلية علمية فى بغداد وأوقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا ، وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف لا فرق بين غنى وفقير .

فكان فيها ابن السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء ، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ، ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة . وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سدا لحاجة العلم وشهوة الأغنياء فى جمع الكتب » (١)

هذه نبذة صغيرة من تاريخ الاسلام نحو العلم والتعليم يوم أن أخذ المسلمون بتعاليمه واتباع هدايته ، وليراجع من أراد الكتاب الذى الفناه « مكانة العلم فى القرآن » اذا أراد المزيد

وقال مستر ولز الانكليزى أكبر مؤرخى هذا العصر :

---

(١) « مكانة العلم في القرآن » تأليف الدكتور يحيي أحمد الدرديرى ص ٨٣

« كل دين لا يسير مع المدنية فى كل طور من أطوارها فاضرب به عرض الحائط ولا تبال به . لأن الدين الذى لا يسير مع المدنية جنبا الى جنب لهو شر مستطير على أصحابه يجرهم الى الهلاك . وان الديانة الحقة التى وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هى الديانة الاسلامية . واذا أراد الأنسان أن يعرف شيئا من هذا فليقرأ القرآن . ان كثيرا من أنظمته تستعمل فى وقتنا هذا . وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة . واذا طلب منى أحد القراء أن أحدد له الاسلام فأنى أحدده بالعبارة التالية : الاسلام هو المدنية . وهل فى استطاعة انسان أن يأتينى بدور من الأدوار كان فيه الدين الاسلامى مغايرا للمدنية والتقدم ؟

« ان محمدا هو الذى استطاع فى مدة وجيزة لا تقل عن ربع قرن أن يكتسح دولتين من أعظم دول العالم ، وأن يقلب التاريخ رأسا على عقب وأن يكبح جماح امة اتخذت الصحراء المحرقة سكنا لها . واشتهرت بالشجاعة ورباطة الجأش والأخذ بالثار واتباع آثار آبائها . ولم تستطع الدولة الرومانية أن تغلب الأمة العربية على أمرها . فمن الذى يشك أن القوة الخارقة للعادة التى استطاع محمد أن يقهر بها خصومه هى من عند الله ؟ »

أساس الاصلاح الذى ندعو اليه جميع المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها هو أن يكون القرآن الكريم قبلتهم للتخلق بأخلاقه ، وأن يأخذوا ما يصلح لهم من وسائل المدنية الغربية الحديثة وغيرها فى الصناعة والتجارة والزراعة والعلوم ، وما يرقى شأنهم ويعلى قدرهم ويحفظ مجدهم ويبقى حقهم

فإذا أراد المسلمون أن يستعيدوا ما كان لهم من عز وسلطان ، وأن يكونوا خلفاء الله فى الأرض ، فليصطلحوا مع ربهم ، وينفذوا ما جاء فى كتابهم ، وذلك باصلاح نفوسهم ، والتوسل إلى رقى أممهم بالعلم والعمل ، والجهاد فى سبيل حريتهم واستقلالهم ، وتقوى الله فى سرهم وعلانيتهم ، وإقامة العدل بينهم وبين مواطنيهم ، رحماء بكل من سالمهم من انسان وحيوان .

ولهذا كان لزاما على كل مسلم ومسلمة أن يقرأ كتاب الله ، وهو العقد (الكنتراتو)

بينه وبين خالقه ، وينفذ ما جاء فيه من أمر ونهى ، كى يسود فى الحياة عن معرفة بطرق علاجها وحل مشاكلها .

وقد وضعنا هذا التفسير الموجز بعد ، وهو منتخب من تفاسير علمائنا الأعلام وفقهائنا الكرام ، وقد اقتصرنا فيه على هداية القرآن التى هى الغرض الأول ، وتركنا ما عداه من نحو وصرف وبلاغة وبيان ، حتى لا نصرف ذهن القارىء عن الهدف المقصود من الهداية .

وإن معانى القرآن عامة وشاملة ، فلا يعد ويوعد ويعظ ويرشد أشخاصا مخصوصين ، وإنما نيط وعده ووعيده وتبشيره بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التى توجد فى الأمم والشعوب ، سواء كان ذلك فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل . وإذا كان الدين ضروريا لكل إنسان وفى كل زمان ، فنحن الآن فى أشد الاحتياج اليه كاحتياجنا للماء والهواء والغذاء « ان الدين طمأنينة العاطفة ، إنه الملجأ من العاصفة ، ومصائب الدنيا بدون الدين فراغ وجفاف وخداع ويأس . ومن مزايا الدين أن يربطنا بمن حولنا فى العالم رباطا محكما يسيطر عليه الخالق ، ويربط دنيانا بآخرتنا فى نظام شامل ، وهذا من غير شك مبعث أنس وطمأنينة لا يشعر بهما الكافر الملحد » . فاذا وفقنا إلى ما نرمى اليه فذلك فضل الله ، ويرجع ما عملنا إلى أصحاب الفضل من سادتنا العلماء السالفين جزاهم الله عنا خير الجزاء ، وإلا فأستغفر الله فيما قصر عنه الفهم وزل فيه القلم ، وكفانى حسن القصد وشرف الغاية ، والله أسأل الهداية والتوفيق لما فيه خير الاسلام والمسلمين والإنسانية جمعاء

والحمد لله رب العالمين .

الدكتور يحيى أحمد الدرديرى

سورة الفاتحة

مكية ، وآياتها سبع

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

الحمد لله رب العلمين (٢) الرحمن الرحيم (٣) ملك يوم الدين (٤) إياك نعبد وإياك نستعين (٥) اهدنا الصراط المستقيم (٦) صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين (٧)

التفسير

﴿ بسم الله ﴾ قيل : المراد تضمين الاستعانة ، فتقديره استعينوا بأن تسموا الله بأسمائه الحسنى ، وتصفوه بصفاته العلى . وقيل : المراد استعينوا بالله ، اى باسم الله أقرأ وأتلو ، لان الذى يتلو التسمية مقروء كما ان المسافر اذا حل او ارتحل فقال باسم الله والبركات كان المعنى باسم الله احل وباسم الله ارتحل . و ﴿ الله ﴾ علم لذات الواجب الوجود ، ولم يطلق على غيره . و ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من الرحيم . والمعنى تعليم العباد كيف يتبركون باسمه وكيف يحمدونه ويمجدونه ويعظمونه .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل ، فهو سبحانه يستحق الحمد باجمعه . إن الله سبحانه وتعالى يحمد لذاته باعتباره أنه مصدر جميع الوجود الممكن وما فيه من الخيرات والنعم . ويحمد لصفاته باعتبار تعلقها وآثارها فى الوجود . وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : الحمد لله هو الشكر لله والاستخذاء له والاقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك .

﴿ رب ﴾ معناها السيد المربى الذى يسوس مسوده ويربيه ويدبره .

﴿ العالمين ﴾ جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى . وأريد به جميع الكائنات الممكنة ، أى انه رب كل ما يدخل فى مفهوم لفظ العالم . والعالم للغيب والشهادة وما تبصر وما لا تبصر من أرض وسماء وإنس وحيوان ونبات وجماد وملك وجان ما علمت وما لا تعلم . والله سبحانه هو المحيط بجميع هذه العوالم ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ فاجابه موسى عليه السلام ﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ رب العالمين ﴾ قال : إله الخلق كله ، السموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم .

ومعنى الآية : ان الاوصاف الجميلة والثناء الحسن كلها لله الذى تحق له العبادة لكونه قادرا على أصول النعم وفاعلا لها ، ولكونه منشئا للخلق ومربيا لهم ومصلحا لنشأتهم . وفى الآية دلالة على وجوب الشكر لله على نعمه ، وفيها تعليم لعباده كيف يحمدونه .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال القرطبى : وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم ، كأن اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه والرغبة اليه فيكون أعون على طاعته وأمتع ، كما قال تعالى ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وان عذابى هو العذاب الأليم ﴾ . و (الرحمن) هو المفيض بالنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما و (الرحيم) الثابت له وصف الرحمة لا تزايله أبدا ، فربوبية الله ربوبية رحمة وإحسان ، وهذا ما يجعل الخلق يقبلون على اكتساب مرضاته منشرحة صدورهم ومطمئنة قلوبهم .

﴿ مالك يوم الدين ﴾ يوم يدين الله العباد بأعمالهم ، لا يملك أحد معه فى ذلك اليوم حكما كملكهم فى الدنيا ، والله سبحانه ملك يوم الجزاء وهو الآخرة ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾ وهذا هو يوم القيامة يدين الناس بأعمالهم : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، إلا من عفا عنه .

وهذه الآية دالة على إثبات المعاد ، وعلى الترغيب والترهيب ، لان المكلف اذا تصور ذلك لا بد أن يرجو ويخاف

﴿ إياك نعبد ﴾ أى نخصك بالعبادة ، ولا نعبد إلا إياك ، فلا يعبد غيرك ، وليس لمخلوق طاعة فى معصيتك

﴿ وإياك نستعين ﴾ . وبه وحده يستعين الانسان على ما عجزت قدرته عن أدائه ، وعلى النجح فيما قدر عليه . أى وإياك نستوفق ونطلب المعونة على عبادتك ، وعلى أمورنا كلها . والتوفيق هو أن يجمع بين جميع الأسباب التى يحتاج اليها فى حصول فعل .

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أى الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ، أى ومنه يطلب الهداية الى الطريق المستقيم ، وهى سنته وأحكامه ، وجملة ما يوصلنا الى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وتعاليم .

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ بالايمان الصحيح ، والعمل الصالح ، وثمرتهما وهى سعادة الدارين . أولئك المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، أى صراط الذين أنعمت عليهم فضلا وإحسانا منك .

﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه ، انصرافا عن الدليل ، ووقوفا عند التقليد ، بايثارهم الباطل على الحق ، وترجيحهم الشر على الخير ، ومنهم المنافقون والمشركون . قال تعالى ﴿ ويعذِّبُ المنافقينَ والمنافقات والمشركينَ والمشركاتِ الظانينَ بالله ظنَّ السوء عليهم دائرةُ السوء وغضبَ اللهُ عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنمَ وساءتْ مصيرا ﴾ ومنهم اليهود كما ورد فى الحديث الصحيح .

وغضب الله فسروه بلازمه وهو العقاب ، وقيل هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة بهم ، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك اذا غضب على من تحت يده .

﴿ ولا الضالين ﴾ والضلال فى لسان العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق ، وأولئك هم الذين لم يعرفوا الحق البتة ، أو لم يعرفوه على وجهه الصحيح

الذى يقرن به العمل . قال تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ ومنهم النصارى كما ورد فى الحديث الصحيح .

ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها « آمين » ومعناها : اللهم استجب .

اشتملت هذه السورة الكريمة - وهى سبع آيات - على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمه لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاد عبيده الى سؤاله والتضرع اليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم اياه الهداية الى الصراط المستقيم وهو الدين القويم ، وتثبيتهم عليه حتى يقضى لهم بذلك الى جواز الصراط يوم القيامة المفضى بهم الى جنات النعيم فى جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة وهى كثيرة متعددة من إصلاح النفس والولد والبيت والوطن والانسانية حتى ينعم الإنسان بسعادة الدنيا والآخرة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشر مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون .

سورة البقرة

مدنية ، إلا آية ٢٨١ فنزلت بمنى فى حجة الوداع

عدد آياتها مائتان وست وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

التفسير

﴿الم﴾ اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور ، فقيل : هى سر الله فى القرآن . ولله فى كل كتاب من كتبه سرّ ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله بعلمه . ولا يجب أن يتكلم فيها . ولكن نؤمن بها وتقرأ كما جاءت .

وقيل : ذكر الله تعالى هذه الحروف احتجاجا على الكفار ، وذلك أن الرسول صلوات الله عليه لما تحداهم بأن يأتوا بمثل هـذا القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة فعجزوا عنه ، أنزلت هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس إلا من هـذه الحروف ، وأنتم قادرون عليها ، وعارفون بقوانين الفصاحة ، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن ، فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من البشر .

وقيل : ان الله تعالى أقسم بهذه الحروف المعجمة لشرفها من حيث انها أصول اللغات ، بها يتعارفون ، ويذكرون الله ويوحدونه . واقتصر على البعض والمراد الكل

كما تقول قرأت الحمد وتريد السورة كلها ، وأقسم الله بها أن هذا الكتاب هو المثبت فى اللوح المحفوظ

وقيل : انها أسماء للسور ، وقيل غير ذلك

﴿ ذلك الكتاب ﴾ أى كتاب معروف معهود للنبى ﷺ بوصفه ، وذلك العهد مبنى على صدق الوعد من الله بأنه يؤيده بكتاب تام كافل لطلاب الحق بالهداية والارشاد فى جميع شئون المعاش والمعاد . فأشار بذلك إليه (١) .

والاشارة البعيدة بالكاف يراد بها بعد مرتبته فى الكمال وعلوها عن متناول قريحة شاعر أو مقول خطيب قوّال . والبعد والقرب فى الخطاب الإلهى إنما هو بالنسبة إلى المخلوقين .

﴿ لا ريب فيه ﴾ أى لا شك فيه ، ولا ريبة تعتريه ، لا فى كونه حقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا من جهة كونه من عند الله تعالى وفى كونه هاديا ومرشدا

﴿ هدى للمتقين ﴾ المراد بالهداية هنا الدلالة على الصراط المستقيم للجميع والقبول من المتقين . ﴿ والمتقون ﴾ الذين يحذرون من الله العقوبة فى ترك ما يميل الهوى إليه ، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به أى بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، واتقاء عذابه وعقابه .

ولما وصف القرآن بانه هدى للمتقين بين صفة المتقين فقال : ـ

---

(١) هذه الاشارة ذكرت فى عدة مواضع من القرآن الكريم فقد جاءت فى دعوة سيدنا ابراهيم عليه السلام حينما كان يرفع القواعد من البيت (يعنى الكعبة) اذ قال ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم ﴾ وقال ﷺ « أنا دعوة ابراهيم » وقال تعالى فى موضع آخر من سورة البقرة ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾

﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ الايمان : هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها واستسلامها . وآيته العمل بما يقتضيه الإيمان

﴿ والغيب ﴾ ما غاب علمه عنهم كذات الله تعالى وملائكته والدار الآخرة

﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ إقامة الصلاة : الاتيان بهذه العبادة الروحية البدنية على أكمل وجه ممكن . وللصلاة صورة وروح ، فصورتها عبادة الأعضاء ، وروحها عبادة القلب

وقوام الصلاة الذى يحصل بالإقامة هو التوجه إلى الله تعالى والخشوع الحقيقى له والإحساس بالحاجة اليه

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ الرزق ما انتفع به . والانفاق (الصرف) هنا يشمل النفقة الواجبة على الأهل والولد بالعدل والقسطاس ، وصلة ذوى القربى . وصدقة التطوع ، وهذه تكون للفقراء والمساكين أو لمصلحة من مصالح المسلمين ومنفعة من منافعهم العامة كبناء المدارس لمحاربة الجهل والمستشفيات لمحاربة المرض وانشاء مهمات تعاونية ومؤسسات اقتصادية لمحاربة الفقر حتى تكون الأمة عزيزة الجانب قوية السلطان ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين

﴿ والذين يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ والذين يؤمنون بما أنزل اليك : ويراد بالإيمان الإيمان التفصيلى لكل ما أنزله الله تعالى فى القرآن على محمد ﷺ ﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ فيكفى فيه الإيمان الاجمالى بالكتب والرسل . وفى هذا دلالة على أن كل الأديان السماوية دعت إلى التوحيد ، وأن مصدرها واحد وهو الله عز وجل ، وأن القرآن جاء يدعو لربط الإنسانية بعضها ببعض

﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ المراد به الحياة الآخرة حيث الجزاء على الأعمال ويتضمن كل ما وردت به النصوص القطعية من الحساب والجزاء بالجنة والنار . و (اليقين) هو الاعتقاد المطابق للواقع الذى لا يقبل الشك ولا الزوال

﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ أولئك اى الذين هذه صفتهم

على هدى من ربهم . هذه الآية للفرقة الأولى ، فقد أشعر الله قلوبهم الهداية بما آمنوا به من الغيب وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقهم الله فهم على رشاد ونور من ربهم . وأما الفرقة الثانية ، وهم المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ فعلى هدى تشترك فيه الفرقة الأولى لكن على وجه أكمل لأنها مؤمنة بالقرآن وعاملة به . وقوله على هدى تعبير يفيد التمكن من الشيء كتمكن المستقيم عليه . وإلى الفرقة الثانية وقعت الإشارة الثانية « أولئك هم المفلحون » كما هو ظاهر وهم المفلحون (الفائزون) بالفعل لاتصافهم بالإيمان الكامل بالقرآن وما تقدمه من الكتب السماوية واليقين بالآخرة ، وعلى هذا يكون المعنى : اولئك هم المقطوع لهم بالخير فى الدنيا والآخرة

*

وأهداف القرآن فى هذه الآيات المتقدمة :

(١) انجاز وعد الله لرسوله ولمن سبقه من الرسل بارسال كتاب فيه هداية وإرشاد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا شك فيه ولا فيما نزل به (انظر آية ١٢٨ و ١٥٣ من سورة البقرة)

(٢) تقسيم أصحاب الفطرة السليمة الذين تقبلوا هداية إلى قسمين :

(ا) أهل الكتاب فى وصفهم الله تعالى بالإيمان بالغيب والقيام بما أمروا به من صلاة وزكاة ، ولما جاءهم ما عرفوا (القرآن) آمنوا به

(ب) وغير أهل الكتاب ، وهم الذين صدّقوا بالقرآن وما جاءت به الكتب السماوية من قبله وباليوم الآخر

(٣) هذه الهداية التى تقبلها المتقون بالتصديق والعمل بما جاءت به لهم كانت طريق الفوز والنجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ

النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَدِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

التفسير

﴿إن الذين كفروا﴾ هذا بيان لحال القسم الثانى من أقسام الناس تجاه هداية القرآن .

والكفر : ستر الشيء ، وتغطيته ، وإخفاؤه . والكفر هنا عبارة عن جحود ما صرح الكتاب المنزل أنه من عند الله ، أو جحود الكتاب نفسه ، أو النبي الذى جاء به ، وبالجملة جحود ما علم من الدين بالضرورة .

والمعنى : أن من جحد الله أو أنكر وحدانيته أو أنكر شيئا مما أنزله على رسوله أو أنكر نبوة محمد ﷺ أو أحد من الرسل فهو كافر . نزلت فى مشركى العرب وقيل فى اليهود

﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ والمعنى أن الذين كفروا ولم يدخلوا فى قسم المؤمنين الذين تقبلوا الحق لما جاءهم لرسوخهم فى الكفر ، يستوى الإنذار وعدمه بالنسبة اليهم فى الواقع . والانذار : إعلام مع تخويف

﴿لا يؤمنون﴾ هذه جملة مفسرة لتساوى الانذار وعدمه فى حقهم ، أى لا يصدقون ولا يذعنون لما جاء به القرآن الكريم

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ ختم أى طبع هذا التعبير مثل لمن تمكن الكفر فى قلوبهم حتى فقدوا الدواعى والأسباب التى

تعطفهم إلى النظر والفكر فى أدلة الايمان ومحاسنه ، ختم الله على قلوبهم فلا يعقلون ولا يدخلها غير ما رسخ فيها ، وخص القلب بالختم لانه محل الفهم والعلم وهو لب الانسان وآلة عقله وشعوره . وعلى سمعهم فلا يسمعون آيات الله المنزلة سماع تأمل وتفقه . والغشاوة ما يغطى به الشىء . والمراد أن أبصارهم لا تدرك آيات الله المبصرة والدالة على الايمان .

وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلى الله تعالى لأنه بيان لسنته تعالى فى أمثالهم ، وعبر عنه بالماضى للدلالة على أنه أمر قد فرغ منه ، وهو لا يدل على أنهم مجبورون على الكفر ولا على منع الله تعالى إياهم فيه بالقهر ، وإنما هو تمثيل لسنته تعالى فى تأثير تجرئهم على الكفر وأعماله فى قلوبهم ، بأنه استحوذ عليها وملك أمرها حتى لم يعد فيها استعداد لغيره كما تقدم . ولذا لم يسند الغشاوة إلى فعله سبحانه حتى لا يكون هو سبحانه منعهم من إبصار آياته ، ولكن أهواءهم منعتهم

﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ ان الأعراض عن هدى الاسلام وما أرشد اليه من إصلاح المعاش والمعاد جزاؤه الضنك وفقد العزة والسلطة فى الدنيا والعذاب العظيم فى العقبى وعظمة العذاب ، أى أنه بالغ حد العظمة كماً وكيفاً ، فهو شديد الايلام طويل الزمان .

ينقسم الناس إزاء هداية القرآن إلى أقسام ذكرنا منها ثلاث فرق ، فرقتان لهما فيه هدى - إحداهما المتقون ووصفهم بأنهم ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ الخ ، ومنهم الذين كانوا يدعون الحنيفين ، والمنصفون من أهل الكتاب الذين كانوا ينتظرون إشراق نور الحق ليهتدوا به كما تقدم . والثانية هى المذكورة فى قوله تعالى ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ﴾ إلخ ، وهم كل من آمن بالنبى ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم على التحقيق .

ويوجد بازاء هاتين الطائفتين طائفتان أخريان لا ترجى هدايتهما بالقرآن ، الأولى منهما هى المشروح حالها فى قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ إلخ ، وهم الذين غلبتهم شهواتهم على أمرهم فعاشوا فى أسرها فطمست نور بصيرتهم فعموا عن طريق الهداية ولجوا فى طريق الغواية والضلالة وهى كما قدمنا

وتنقسم إلى قسمين : جاحدين لا يسمعون ، ومعاندين يعرفون الحق ولا يذعنون . وهذه الآيات التى نحن بصدد تفسيرها هى المبينة لحالة الفرقة الرابعة وهى فرقة من الناس توجد فى كل آن وفى كل عصر

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾

ومدلول الآية أن من أظهر الايمان — واعتقادُه بخلافه — لا يكون مؤمنا ، لإن الايمان لم يكن له أثر فى أخلاقهم وأعمالهم ، فصلاتهم وصدقاتهم إنما مبعثها رئاء الناس وحب السمعة ، وهم من وراء ذلك ينغمسون فى الشرور كالافساد والكذب والغش والخيانة والطمع وغير ذلك من الرذائل التى حكاها عنهم الكتاب ، وهذه الأعمال تدل على أنهم لا يؤمنون بالله كما يحب ويرضى

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ والخداع العمل الظاهر الذى لا يصدقه الباطن ، إذا قصد به إرضاء آخر . ولما كان إخفاء شىء عن الله تعالى محالا فسروا مخادعتهم لله هنا وهناك بأنها خداع فى الصورة لا فى الحقيقة ، وذلك أنه شرع أن يعاملوا معاملة المؤمنين ، ولكنهم لا يجزون جزاءهم فى الآخرة ، بل يكونون فى الدرك الأسفل من النار ، ومخادعتهم للمؤمنين ، لأنهم اتخذوهم أعداء وهم عاجزون عن إظهار عداوتهم .

﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾ لأن ضرر عملهم خاص بهم ، وعاقبته وبال عليهم وحدهم

﴿ وما يشعرون ﴾ أى لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم

« فكل مؤمن بالله واليوم الآخر ومع ذلك يصدر فى عمله عن شهواته ولا يمنعه إيمانه عن ركوب خطيئاته فاعتقاده إنما هو خيال ، لا يعلو عن لفظ فى مقال ، ودعوى عند جدال . فاذا ركن إلى هذا المعتقد فهو خادع لنفسه ، مخادع لربه ، يظن أن علام الغيوب ، لا ينظر إلى مافى القلوب » !

﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ أى ان نفوسهم خرجت عن حد اعتدالها ، وأصيبت بما يخل كمالها من نفاق وجهل وارتياب وشك .

﴿ فزادهم الله مرضا ﴾ بعد ما جاءهم الهدى من ربهم ، ووجدوا من زعزعه فى أنفسهم . ولكن أخذتهم العزة بالاثم فأبوا الايمان ، ونأوا عن القرآن . وقد كانت الآيات تنزل تترى أى آية بعد آية ، فكلما كفروا بآية ازدادوا بعد ذلك كفرا ونفاقا

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى عذاب مؤلم فوق هذا المرض .

﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ فى دعواهم الايمان بالله واليوم الآخر ، فإنهم لم يصدقوا بأعمالهم ما يزعمونه فى حالهم .

وإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

التفسير

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ يعنى المنافقين . وقيل اليهود ، والمعنى اذا قال لهم المؤمنون ﴿ لا تفسدوا فى الأرض ﴾ بصدكم عن سبيل الله من آمن ، وطعنكم فى الدين ، وتنفير الناس عن اتباع محمد والأخذ بما جاء به من الاصلاح . وأى افساد فى الأرض أعظم من التنفير عن اتباع الحق ، وعن الاعتصام بدين فيه سعادة الدارين ؟

﴿ قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ والمعنى : وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض إذا ركبوا معصية الله وقيل لهم لا تفعلوا كذا وكذا قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون

﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ رداً عليهم وتكذيبا لهم . أى هم الذين آثروا الباطل على الحق وصدوا الناس عن الهداية ودعوهم الى الضلالة

﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ فان هذا إفساد غرز فى طبائعهم بما تمكن فيها من الشبهة بتقليد رؤسائهم الذين أشربوا عظمتهم . فهم يظنون أن ما هم عليه من النفاق وإبطان الكفر صلاح وهو عين الفساد ، وقيل لا يشعرون بما أعد لهم من العذاب وسوء الخاتمة فى الدنيا والآخرة

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ﴾ أى صدقوا بمحمد ﷺ وشرعه كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب كعبد الله بن سلام وأمثاله من علمائكم .

﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ السفه معناه الطيش وخفة العقل وضعف الرأى ، ويعنون بالسفهاء أتباع النبى ﷺ ومؤمنى أهل الكتاب .

﴿ ألا إنهم هم السفهاء ﴾ أى وحدهم دون المؤمنين المصدقين بالله وبكتابه وبرسوله وثوابه وعقابه .

﴿ ولكن لا يعلمون ﴾ أن السفه محصور فيهم ، ومقصور عليهم .

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ كان أولئك النفر يدهنون فى دينهم ، فإذا لقوا المؤمنين قالوا : آمنا بما أنتم به مؤمنون ، ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ من دعاة الفتنة وعمال الافساد وأنصار الباطل الذين يصدون عن سبيل الحق بما يقيمون أمامه من عقبات الوساوس والأوهام .

﴿ قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴾ أى إنا معكم على عقيدتكم وعملكم ، وإنما نستهزىء بالمسلمين ودينهم ، فكشف القرآن هذا التلون وهذه الذبذبة ، وقابلهم عليها بما هدم بنيانهم وفضح بهتانهم فقال ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ أى ينتقم منهم ويعاقبهم ، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم ، فسميت العقوبة باسم الذنب

﴿ ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ العمه عمى القلب وظلمة البصيرة والحيرة فى الكفر أن يطيل لهم المدة (الارخاء) ويمهلهم فى ضلالهم وكفرهم متحيرين

مترددين ، ليزدادوا طغيانا فيزدادوا عقابا .

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ أولئك القوم يعنى المنافقين اختاروا الضلالة على الهدى لفائدة عاجلة لهم بازائها يبتغون الحصول عليها من الناس ، وليس أخس ممن يشترى الضلالة بالهدى ، فخسرانه مضاعف بما فقد وبما أخذ

﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ التجارة هنا هى المشار إليها باشتراء الضلالة فى الدنيا ، إذ لم تثمر لهم ثمرة حقيقية ، بل خابوا وخسروا باهمالهم النظر الصحيح الذى لا تقوم المصالح ولا تحفظ المنافع إلا به

﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ أى مصيبين فى هذه التجارة ، لأنهم باعوا فيها ما وهبهم الله من الهدى والنور بظلمات التقاليد وضلالات الأهواء والبدع التى زجوا أنفسهم فيها .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٠)

التفسير

﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ﴾ المثل والمثيل ، كالشبه والشبيه ، وهو عبارة عن قول يشبه قولا آخر أى بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره . ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقب بضرب المثل زيادة فى الكشف والبيان .

واستوقد النار طلب وقودها بفعله أو فعل غيره

والوجه فى التمثيل أن من يدعى الايمان بكتاب نزل من عند ربه قد طلب بذلك الايمان أن توقد له نار يهتدى بها فى المشبهات ، ويستضىء بها فى ظلمات الريب والمشكلات . ﴿ فلما أضاءت ما حوله ﴾ بما أودعته من الهدى والرشاد ، وكاد بالنظر يمشى فيها على هداية وسداد هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث ، وعصب عينيه شيطان الغرور ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ أى ذهب عنه نور الاسلام وهدايته ، وأطبق عليه جو الضلالة ، بل طفىء فيه نور الفطرة السليمة .

﴿ وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾ أى لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ، هذا المثل مضروب لفريق لا ترجى هدايته ، لأنه سد على نفسه جميع أبواب الهداية فلا يثق بعقله ولا بحواسه ولا بوجدانه إذا خالفت تقاليده . ولذلك عقبه بقوله تعالى ﴿ صم بكم ﴾ أى انهم فقدوا منفعة السمع الذى يؤدى إلى النفس ما يلقيه من الحجج والبراهين ، فكأنهم صم لم يسمعوا . وبكم فقدوا منفعة الاسترشاد بالقول والسؤال وطلب الحكمة من معاهدها ، فلا يسألون بيانا ولا يطلبون برهانا ﴿ عمى ﴾ أى فقدوا خير منافع الأبصار وهو نظر الاستضاءة والاعتبار ، ﴿ فهم لا يرجعون ﴾ عن ضلالتهم ، ولا يخرجون من ظلماتهم .

﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾

هذا مثل الفريق الثانى من الناس المتردد والمتشكك لا يبغى الهداية ، وإنما يبغى النفع والفائدة له على حساب فقد دينه وفطرته ، فهو يتردد بين القبول والرفض . والمراد من الصيب المطر والسحاب ، وهو الايمان والقرآن ، فكما أن الصيب يحيى الأرض فكذلك الايمان والقرآن يحييان النفوس . والرعد هو الأشياء الشاقة على المنافقين ، وهى التكاليف الشاقة من الصلاة والصوم وترك الرياسات والجهاد وترك الأديان القديمة والانقياد لمحمد ﷺ مع شدة استنكافهم عن الانقياد له . فكما أن الانسان يبالغ فى الاحتراز عن المطر الصيب الذى هو أشد الأشياء نفعا بسبب هذه الأمور المقارنة ، فكذلك المنافقون يحترزون عن الايمان والقرآن بسبب هذه

الأمور المقارنة.

والمراد من قوله ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴾ أنه متى حصل لهم شيء من المنافع وهى عصمة أموالهم ودمائهم وحصول الغنائم لهم فانهم يرغبون فى الدين ﴿ وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ أى متى لم يجدوا شيئا من تلك المنافع يكرهون الايمان ولا يرغبون فيه ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ على أنه تعالى جعلها لهم ليتوسلوا بها إلى الهدى والفلاح ، إلا أنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة . وسدوها عن الفوائد الآجلة ، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التى يجعلونها لأنفسهم ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾

يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ۝

التفسير

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ : اثر ما ذكر الله تعالى من علو طبقة كتابه الكريم ، وتحزب الناس فى شأنه إلى ثلاث فرق : (مؤمنة) به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام ، و (كافرة) قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى (مذبذبة) بينهما بالمخادعة والنفاق ، ووصف كل فرقة منها بما لها من النعوت والأحوال ، وبين ما لهم من المصير والمآل ، أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات

هزاً لهم إلى الاصغاء ، وتوجيها لقلوبهم نحو التلقى ، فأمرهم كافة بعبادته ، ونهاهم عن الاشراك به . وهذه الدعوة هى أساس بناء الانسانية العامة الكاملة بأن لها ربا واحدا يعبد دون غيره ، والكل متساوون امام هذه العبادة التى تقتضى الطاعة لأمره واجتناب نهيه ، قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس ﴾ سواء كانوا من أهل الكفر أو من أهل الايمان ﴿ اعبدوا ربكم ﴾ جميعا عبادة خشوع وإخلاص وأدب وحضور ، كأنكم تنظرون إليه وترونه ، فان لم تكونوا ترونه فإنه يراكم . والاخلاص فى العبادة باستحضار معنى الربوبية ، فإنه هو ربكم الذى أنشأكم فيما لا تعلمون ، وغذاكم بنعمه ، ونماكم بكرمه ، فان هذا الرب العظيم ﴿ الذى خلقكم و ﴾ خلق ﴿ الذين من قبلكم ﴾ قد رباكم كما ربى سلفكم ، ووهبكم من الهدايات مثل ما وهبهم ، فمن شكر منهم ومنكم زاده نعما ، ومن كفر بهذه النعم جعلها عليه نقما

يقول تعالى لجميع عباده : اعبدونى ملاحظين معنى الربوبية والمساواة فى المواهب الخلقية التى تؤهلكم للسعادة الحقيقية ﴿ لعلكم تتقون ﴾ فإن العبادة على هذا الوجه هى التى تعدكم للتقوى أى تصيرون فى ستر ووقاية من عذاب الله ، وذلك بامتثال أمره واجتناب نهيه . وذكرهم ببعض خصائص الربوبية التى تقتضى الاختصاص بالعبودية فقال ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ بما مهدها وجعلها صالحة للافتراش والاقامة عليها والارتفاق بها لأجل منفعتكم ﴿ والسماء بناء ﴾ متماسكا لكيلا تقع على الأرض فتسحقكم . والسماء مجموع ما فوقنا من العالم ، والبناء وضع شىء على شىء بحيث يتكون من ذلك شىء بصورة مخصوصة . وقد كون الله السماء بنظام كنظام البناء

وإنما ذكر السماء والارض جل ثناؤه فيما عدد عليهم من نعمه التى أنعمها عليهم لأن منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم ، وبهما قوام دنياهم ، فأعلمهم أن الذى خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما هم فيه من النعم هو المستحق عليهم الطاعة ، والمستوجب منهم الشكر والعبادة ، دون الأصنام والأوثان التى لا تضر ولا تنفع

ثم ذكر نعمة الامداد الذى تحفظ به هذه الأجساد وهى مادة الغذاء التى بها النمو

والبقاء فقال : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ أى غذاء وأقواتا . الثمرات ما يحصل من النبات نجما كان أو شجرا . وإذا كان الزارع والغارس يبذر البذر ويغرس الفسيل ، فالله هو المنزل للمطر الذى يسقى به ، والله وحده هو القادر على إنماء الزرع وإثماره

وبعد أن عرّفنا الله تعالى بأنفسنا وبنعمته علينا وعلى سلفنا ، وبعد أن عرفنا بذاته الكريمة وبآثار رحمته ومننه العظيمة ، صرنا جديرين بأن نعلم أن العبد عبد فلا يعبد ، وأن الرب رب فلا يشرك به قال ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ والأنداد جمع ند ، وفسر بالشريك وهو المضارع والكفء والعدل ، أى لا تجعلوا لله أندادا من سلفكم المخلوقين مثلكم تطلبون منهم مالا يطلب إلا منه وهو كل ما تعجزون عنه ولا يصل كسبكم اليه ، لا تفعلوا ذلك فانهم فى العبودية مثلكم ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أى حال أنكم تعلمون أنه لا ند له ، لأنكم إذا سئلتم : من خلقكم وخلق من قبلكم ؟ ومن يرزقكم من السماء ؟ ومن يدبر الأمر ؟ تقولون : الله . فلماذا تستغيثون إذن بغير الله ؟ وتدعون غير الله ؟ . نهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئا ، وأن يعبدوا غيره ، ويتخذوا له ندا وعدلا فى الطاعة فقال : كما لا شريك لى فى خلقكم وفى رزقكم الذى أرزقكم وملكى اياكم ونعمتى التى أنعمتها عليكم فكذلك فأفردونى بالطاعة وأخلصوا لى العبادة ، ولا تجعلوا لى شريكا وندا من خلقى ، فانكم تعلمون ان كل نعمة عليكم فهى منى

وبعد أن بين الله أحوال الناس ، وموقفهم إزاء الدعوة الاسلامية إلى التوحيد ، تحداهم بالكتاب الذى يدعو اليه ويناضل عنه ، ذلك الكتاب لا ريب فيه فقال :

﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾

عبر عن كون الريب بإنْ للايذان بأن من شأن هذا التنزيل أن لا يرتاب فيه ، لأن الحق فيه ظاهر بذاته . والتنزيل من مادة نزل وتفيد أن القرآن نزل نجوما متفرقة . من مثله : الضمير فى مثله لعبدنا ، أى فان أحد ممن يماثل الرسول بالأمية يقدر على الاتيان بسورة فليفعل ، فالله سبحانه قال لمن حاجه فى ندبه محمداً ﷺ من

الكفار : فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن من كلامكم أيها العرب كما أتى به محمد بلغاتكم ومعانى منطقكم

قال تعالى ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ الذين يشهدون لكم أنكم أتيتم بسورة من مثله ، أى ادعوا كل من تعتمدون عليه ليشهد لكم ﴿ من دون الله ﴾ أى ادعوا كل أحد غير الله ليؤيد دعواكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى دعواكم : يعنى بذلك ان كنتم فى شك فى صدق محمد ﷺ فيما جاءكم به من عندى أنه من عندى فأتوا بسورة من مثله ، وليستنصر بعضكم بعضا على ذلك إن كنتم صادقين فى زعمكم

﴿ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ أى فان لم تأتوا بسورة من مثله وما أنتم بفاعلين لأن هذا ليس فى طاقة المخلوقين ، فجملة ﴿ ولن تفعلوا ﴾ جملة تفيد تقوية الدليل وتقرير عجزهم أى لا تقدرون على ذلك ولا تطيقونه ﴿ فاتقوا النار ﴾ وهى موطن عذاب الآخرة وهى من عالم الغيب نؤمن بها ولا نبحث عن حقيقتها ، أى فاتقوا أن تصلوا النار بتكذيبكم رسولى بما جاءكم به ﴿ التى وقودها الناس والحجارة ﴾ الوقود : ما توقد به النار ، والحجارة : المراد بها الأصنام . لأن أكثر أصنامهم كانت من حجارة . وانما قرن الناس مع الحجارة لأنهم كانوا يعبدونها معتقدين فيها أنها تنفعهم وتشفع لهم فجعلها الله عذابهم فى نار جهنم

﴿ أعدت للكافرين ﴾ والمراد بالكافرين الذين لا يجيبون دعوة الأنبياء عليهم السلام ، والذين ينحرفون عن أصولها بعد الأخذ بها لبدع يبتدعونها وتقاليد يحدثونها . وأعدت : أى هيئت النار لمثل هؤلاء .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)

التفسير

قال تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ لما ذكر الله عز وجل جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا ، وبين أن الخير المفرح السار للذين آمنوا بما جاء به القرآن .

﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أى أن الذى يستحق البشارة هو من جمع بين الايمان والعمل الصالح الذى ترشد إليه الفطرة السليمة ويهدى إلى تحديده الكتاب العزيز وسنة الرسول المتبعة .

﴿ أن لهم جنات ﴾ أى لهم بساتين ، والمراد دار الخلود ، نؤمن بها بالغيب ولا نبحث عن حقيقتها .

﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ والمناسبة ظاهرة ، فان البساتين حياتها بالأنهار ، ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ﴾ أى كلما رزقوا أى أطعموا من الجنات رزقا (طعاما) من بعض ثمارها ﴿ قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ﴾ أى هذا الذى وعدنا به فى الدنيا جزاء على الايمان والعمل الصالح

﴿ وأتوا به متشابها ﴾ أى ان رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها فى صورته ويختلف فى طعمه ولذته

﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أى مما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلق . والتطهر يستعمل فى الأجسام ، والأخلاق ، والأفعال .

﴿ وهم فيها خالدون ﴾ أى يمكثون فيها ولا يخرجون منها ولا هى تفنى بهم فيزولوا بزوالها وإنما هى حية أبدية لا نهاية لها

﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾

أى ان الله تعالى لا يترك ضرب مثل ما من الأمثال حياء منه ، سواء كان بعضها بعوضة أو أصغر منها حجما وأقل عند الناس شأنا ، لأنه خالق كل شيء

وذلك جوابا منه جل ذكره لمن أنكر من منافقى خلقه ما ضرب لهم فى المثل بموقد النار والصيب من السماء على ما نعتهما به من نعتهما ، فقد قال المنافقون ان الله أعلى واجل من ان يضرب هذه الامثال فانزل الله هذه الآية . وقيل ان معنى ان الله لا يستحيي أن الله لا يخشى أن يضرب مثلا اى ان الله لا يخشى ان يصف شبها لما شبه به الذى هو ما بين البعوضة الى ما فوق البعوضة من الحق

﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ أى فأما الذين صدقوا الله ورسوله فيعرفون أنه ليس نقصا ، وإنما هو صدق وحق ، لأنه مبين للحق

﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾

أما الجاحدون فيجادلون فى الحق ويذهب جدلهم إلى قياس رب العالمين بمتنطعى المتأدبين . وينكرون على ربهم المثل والقياس ، ولا ينكرونه على أنفسهم وعلى الناس

﴿ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ﴾

أى يضل بالمثل أولئك الذين يجعلونه شبهة على الانكار والريب ويهدى به الذين يقدرون الأشياء بغاياتها وهم المؤمنون ويحكمون عليها بحسب فائدتها

﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾

والفسوق : الخروج . أى يضل به الخارجين عن هداية الله تعالى فى سننه فى خلقه التى هداهم اليها بالعقل والمشاعر وبكتابه

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ (٢٧)

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

التفسير

﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ أى الذين يفسدون ما أبرمه الله من العهد «الميثاق» ، وهو ما أخذهم به بمنحهم هذه السنن المعهودة للناس بالنظر والاعتبار أو العقل والحواس المرشدة إليها ، ونقضه عبارة عن عدم استعمال تلك المواهب استعمالا صحيحا ، والعهد : فطرى خلقى ، ودينى شرعى . والميثاق : اسم لما يوثق به الشىء ويكون محكما يعسر نقضه . والله تعالى قد وثق العهد الفطرى بجعل العقول بعد الرشد قابلة لادراك السنن الالهية فى الخلق ، ووثق العهد الدينى بما أيد به الأنبياء من الكتب ، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله ، فاسق عن سننه فى تقويم البنية البشرية وإنمائها

﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ ما هو الشىء الذى أمر الله أن يوصل ؟ قيل : الاشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض وإقامة شرائعه وحفظ حدوده ، فهى عامة فى كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل .

﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾ أى يعبدون غير الله تعالى ويجورون فى الأفعال إذ هى بحسب شهواتهم لا ضابط لها وليس فيها عدل فيرتكبون المعاصى ويمنعون الناس عن الايمان بمحمد ﷺ وبالقرآن وهذا غاية الفساد ، لأنهم فقدوا هداية الفطرة وهداية الدين وكان عاقبة أمرهم أنه سيحل عليهم الخسران ، وحصره فيهم بقوله ﴿ أولئك

هم الخاسرون ﴾ بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . والخاسرون الناقصون أنفسهم حقوقها - بمعصيتهم الله - من رحمته ، كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله فى بيعه ، فكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التى خلقها لعباده فى القيامة أحوج ما كان الى رحمته . ثم قال تعالى على وجه التعجب - لكن فيه تبكيت وتعنيف لهم - :

﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ أى بأى صفة من صفات الكفر (الجحود) بالله تعالى تأخذون ، وعلى أى شىء فيه تعتمدون ، وحالكم فى موتكم وحياتكم تأبى عليكم ذلك . وبين هذه الحال بقوله : ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ أى كنتم قبل النشأة الأولى من حياتكم الدنيا أمواتا منبثة أجزاؤكم فى الأرض ، فخلقكم أطواراً من سلالة من طين ، فكنتم بالطور الأخير فى أحسن تقويم ﴿ ثم يميتكم ﴾ بقبض الروح الحى الذى به نظام حياتكم ، فتنحلّ أبدانكم ، وتعود إلى أصلها الميت ، وتنبث فى طبقات الأرض . ﴿ ثم يحييكم ﴾ حياة ثانية كما أحياكم بعد الموتة الأولى ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ فينبئكم بما عملتم ويحاسبكم على ما قدمتم ويجازيكم به

﴿ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ﴾ أى جعل كل مافى الأرض مهيئا لنا ومعدا لمنافعنا . وللانتفاع بالأرض طريقان : أحدهما الانتفاع بأعيانها فى الحياة الجسدية ، وثانيهما النظر والاعتبار فى الحياة العقلية . واننا ننتفع بكل مافى الأرض برها وبحرها من حيوان ونبات وجماد ، وما لا تصل اليه أيدينا ننتفع فيه بعقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته . والتعبير بفى يتناول مافى جوف الأرض من المعادن بالنص الصريح

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ والمراد أن إرادته توجهت إلى مادة السماء . يقال استوى الى الشىء اذا قصد اليه قصدا مستويا خاصا به لا يلوى على غيره

﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ فأتم خلقهن فجعلهن سبع سموات تامات منتظمات الخلق

﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أى هو المحيط بكيفية التكوين وحكمته وبما ينفع الناس بيانه - وكيف يصح أن ينكر عاقل على الله سبحانه وهو العليم بكل شيء أن يرسل من يشاء من خلقه لهداية من شاء من عباده ؟ فهذا الآخر يتصل بأول الآية فى تقرير رسالة النبى ﷺ وإبطال شبه الذين أنكروا أن يكون البشر رسولا ، والذين انكروا أن يكون من العرب رسول ، وهذا اعتراض الجاهلين على من هو بكل شيء عليم .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

التفسير

ان أمر الخلقة وكيفية التكوين من الشئون الإلهية التى يعز الوقوف عليها كما هى . وقد قص الله علينا فى هذه الآيات خبر نشأة الانسان على نحو ما يؤثر عن أهل الكتاب من قبلنا ، ومثل لنا المعانى فى صور محسوسة . وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار كما هى سنة مخاطبة الخلق وبيان الحق . وهذه الآيات تجلى حجة الرسول ودعوته من حيث إن الملائكة إذا كانوا محتاجين إلى العلم ، ويستفيدونه بالتعليم من الله تعالى بالطريقة التى تناسب حالهم ، فالبشر أولى بالحاجة إلى ذلك منهم ، لأن طبيعة البشر جبلت على أن يكتسبوا كل شيء اكتسابا . وهى من جهة أخرى تسلية للنبى ﷺ ببيان أن البشر أولى من الملائكة بانكار ما لم يحيطوا بعلمه حتى يعلموا ، وأنهم جبلوا على أن يتوبوا ويرجعوا بعد أن يخطئوا أو يذنبوا . وأن الافساد فى الأرض ، وجحود الحق ، ومناصبة الداعى إليه ليس بدعا من قومه ، وإنما هو حيلة أهل الفكر وطبيعة البشر . أى فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء

المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين . وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها

﴿ وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ الملائكة خلق الله من عالم الغيب ، نؤمن به ولا نبحث عن حقيقته ﴿ جاعل ﴾ خالق . و ﴿ خليفة ﴾ سماه الله بهذا الاسم لأنه يخلف الله فى الحكم بين المكلفين من خلقه .

وبادرت الملائكة إلى السؤال واستفهام الاستغراب : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فيغفل بذلك عن تسبيحك وتقديسك

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ أى ننزهك عما لا يليق بصفاتك ، ونمجدك بلا غفلة ولا فتور .

ولا شك أن هذا السؤال نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة ، وما يقتضيه من العلم غير المحدود والارادة المطلقة . وكون هذا العلم المصرف للارادة لا يحصل إلا بالتدريج ، وكون عدم الاحاطة مدعاة للفساد والتنازع المفضى إلى سفك الدماء

والانسان مهما أوتى من العلم فهو قليل بالنسبة للعلم الالهى ، ولذلك أجاب الله الملائكة بالعلم ﴿ قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم ، ثم أظهر لهم أن الانسان يكون خليفة بالعلم وما يتبعه

وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

التفسير

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ علم معناه عرف ، وآدم سمى بهذا الاسم لأنه خلق من أديم الأرض ، وإنما سمى إنسانا لأنه نسى

والأسماء هى ما يرى بعلم الأشياء ، وهى العلوم المطابقة للحقائق

والمعنى أن الله تعالى أودع فى نفس آدم علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين - والعلم الحقيقى هو إدراك المعلومات نفسها . والألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التى تجرى بالمواضعة والاصطلاح ، فهى تتغير وتختلف ، والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف

علم الله آدم كل شىء ، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون له هذا العلم فى آن واحد أو فى أوقات متعددة ، والله قادر على كل شىء . ثم ان هذه القوة العلمية عامة للنوع الآدمى كله ، ويكفى فى ثبوت هذه القوة فهم معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال

﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ أى أطلعهم اطلاعا اجماليا بالالهام الذي يليق بحالهم على مجموع تلك الأشياء .

﴿ فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ﴾ المسميات ، والغرض من الإنباء بأسمائها الابانة عن معرفتها ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى ان كان هناك موقع للدهشة والاستغراب من جعل الخليفة فى الأرض من البشر

﴿ قالوا سبحانك ﴾ أى تنزيها لك . والمعنى : نقدسك وننزهك أن يكون علمك قاصرا فتخلق الخليفة عبثا ﴿ لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ وهو محدود لا يتناول جميع الأسماء ولا يحيط بكل المسميات ﴿ إنك أنت العليم ﴾ بخلقك ﴿ الحكيم ﴾ فى صنعك

﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾ أمر الله تعالى آدم أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه ، تنبيها على فضله وعلو شأنه ، فكان أفضل منهم

وفى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله ، وفى الحديث « إن الملائكة لتضع اجنحتها رضا لطالب العلم » أى تخضع وتتواضع ، لأن الله تعالى ألزمها ذلك لآدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب

﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم ﴾ قال الله تعالى للملائكة ﴿ ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض ﴾ ومن كان هذا شأنه فلا يخلق شيئا سدى ، ولا يجعل الخليفة فى الأرض عبثا . وفى هذه الآية دليل على أن أحداً لا يعلم الغيب إلا ما أعلمه الله أو من أعلمه الله تعالى ، فالمنجمون والكهان وغيرهم كذبة

﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ والذى يبدونه هو ما يظهر أثره فى نفوسهم ، وأما ما يكتمون فهو ما يوجد فى غرائزهم وتنطوى عليه طبائعهم

وقد قضت سنة الله فى كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية فى قالب العبارة اللفظية ، ويجلى لنا المعارف المعقولة بالصور المحسوسة ، تقريبا للأفهام وتسهيلا للاعلام ، ومن ذلك أنه عرّفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا ، وما أودعته فطرتنا مما نمتاز به على غيرنا من المخلوقات . فعلينا أن نجتهد فى تكميل أنفسنا بالعلوم التى خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق ، لتظهر حكمة الله فينا . ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ، ومعنى سجودهم لأصلنا ، كما عرفنا الله أيضا أن خلافة الأرض وسيادتها وصلاحها لا يكون إلا عن طريق العلم ، وهذه من سنن الله الخالدة إلى يوم القيامة ، والتاريخ فى ماضيه وحاضره أكبر شاهد ، فما ساد المسلمون فى ماضيهم إلا عن طريق العلم ، وما ضعف المسلمون الآن واستكانوا إلا عن طريق الجهل وإعراضهم عن العلم . وفى القرآن الكريم الآيات البينات ، والأدلة الواضحات ، يزيدها إيضاحا قول رسول الله ﷺ : « إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معا فعليك بالعلم » وقال أيضا « العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وورد أيضا « اطلب العلم من المهد الى اللحد » فمن تخلف عن طلب العلم فقد تخلف عن ركب الحضارة والتقدم ، واستهدف للشقاء والاستعباد

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤)

التفسير

بعد ما عرف الله الملائكة بمكانة آدم ووجه جعله خليفة فى الأرض أمرهم بالخضوع له ، وعبر عن ذلك بالسجود ، وهو سجود لا نعرف صفته ، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجود عبادة ، إذ لا يعبد إلا الله تعالى . والسجود فى اللغة التطامن والخضوع والانقياد

﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ أى سجد كلهم أجمعون إلا إبليس ، وهو فرد من أفراد الملائكة كما يفهم من الآية وأمثالها ، فان قصة الآية ٥٠ من سورة الكهف ناطقة بانه كان من الجن ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ وجميع هؤلاء المسميات بهذه الأسماء من عالم الغيب ، لا نعلم حقائقها ، ولا نبحث عنها ، ولا نقول بنسبة شىء اليها مالم يرد لنا فيه نص قطعى عن المعصوم .

﴿ أبى ﴾ السجود والانقياد أى أمتنع عن فعل ما أمره ﴿ واستكبر ﴾ يعنى التكبر وهو الظهور بصفة الكبرياء التى من آثارها الترفع عن الحق

﴿ وكان من الكافرين ﴾ قيل كان هنا بمعنى صار من الكافرين ، والواجب على المسلم فى مثل هذه الآية الايمان بمضمونها مع التفويض والحمل على أنها حكاية تمثيل ، ثم الاعتبار بها بالنظر فى الحكم التى سيقت لها القصة

قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده تعقيبا على تفسير هذه الآية :

إن كل قوة من قوى هذه الأرض ، وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها ، خلق خاضعا للانسان ، وخلق الانسان مستعدا لتسخيره لمنفعته ، إلا قوة الاغراء بالشر ،

وناموس الوسوسة بالاغراء الذى يجذب الانسان دائما إلى شر طباع الحيوان ، ويعيقه عن بلوغ كماله الانسانى .

فالظاهر من الآيات أن الانسان لا يغلب هذه القوة ولا يخضعها مهما ارتقى وكمل . وقصارى ما يصل اليه الكاملون ، وهو الحذر من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها بأن لا يكون لها سلطان على نفس الكامل تجعله مسخرا لها وتستعمله بالشرور كما قال تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ وقال عز وجل : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ﴾ (١)

وَقُلْنَا يَآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

التفسير

﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ و « اسكن » من السكنى وهو المبيت

---

(١) الجزء الاول من تفسير المنار للمرحوم العلامة السيد محمد رشيد رضا . ص ٢٧٥

والاقامة والاستقرار . والسكنى لا تكون ملكا . وهذا تنبيه على الخروج . و « الجنة » هى البستان أو المكان الذى تظلله الأشجار بحيث يستتر الداخل فيه ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها . وإن الأوصاف التى وصفت بها الجنة الموجودة بها لا تنطبق على ما كان فى جنة آدم ، ومنها كون عطائها غير مجذوذ ولا مقطوع وغير ذلك .

﴿ وكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾ أى أكلاً واسعا رافها هنيئا من أى مكان منها إلا شيئا واحدا نهاهما عنه بقوله ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ أى لا تدنوا منها ، أى لا تأكلا من هذه الشجرة . وإنما علق النهى بالقربان منها مبالغة فى تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه . و « الشجرة » لا يعلمها إلا الله . فتكونا من الظالمين : أى الذين ظلموا أنفسهم وتعدوا حدود الله

وأصل الظلم فى كلام العرب وضع الشىء فى غير موضعه ، والظلم يقال فى مجاوزة الحق فيما يكثر وفيما يقل

﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ أى حولهما وزحزحهما عن الجنة ، أى أذهبهما وأبعدهما عنها ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ أى من المكان العظيم الذى كانا مستقرين فيه فكان الذنب متصلا بالعقوبة اتصال السبب بالمسبب . ثم بين الله تعالى كيفية الإخراج بقوله ﴿ وقلنا اهبطوا ﴾ يعنى آدم وزوجه وإبليس . والهبوط معناه الانحدار على سبيل القهر ، ولا يبعد أن تكون تلك الجنة فى ربوة فسمى الخروج منها هبوطا ، أو سمى بذلك لأن ما انتقلوا اليه دون ما كانوا فيه . أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد كقوله تعالى لبنى إسرائيل : ﴿ اهبطوا مصرا ﴾ - واذا استعمل فى الانسان الهبوط فعلى سبيل الاستخفاف

﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ أى متعادون يبغى بعضكم على بعض

﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أى ان استقراركم فى الأرض ومتاعكم بالعيش والانتفاع به فيها ينتهيان إلى زمن محدود وليسا بدائمين

ثم قال ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ تلقى قيل معناه فهم وفطن ، وقيل قبل

وأخذ . والمراد هنا أفهمه الله إياها ، فأناب اليه بها . وهذه الكلمات هى كما فى سورة الأعراف ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾

تاب آدم بذلك وأناب إلى ربه ﴿ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ وتاب العبد أى رجع إلى طاعة ربه . والمعنى أى قبل توبته . وبين سبب ذلك بأنه تعالى هو التواب ، أى الذى يقبل التوبة كثيرا ، فمهما يذنب العبد ويندم ويتب يتب الرب عليه ، وبأنه هو الرحيم بعباده مهما يسىء أحدهم بما هو سبب لغضبه تعالى ويرجع اليه فإنه يخصه برحمته . وبرحمته اياه إقالة عثرته وصفحه عن عقوبة جرمه

والتوبة فى الشرع ترك الذنب لقبحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما امكنه أن يتدارك بالاعادة . فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة

﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا ﴾ أى فقد انتهى طور النعيم الخالص ، وادخلوا فى طور لكم فيه طريقان : هدى وضلال ، وإيمان وكفران ، وفلاح وخسران

﴿ فاما يأتينكم منى هدى ﴾ من رسول مرشد وكتاب مبين ﴿ فمن تبع هداى ﴾ الذى أشرعه وسلك طريقى المستقيم الذى أحدده ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ من وسوسة الشيطان ، ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران

﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على فوت مطلوب أو فقد محبوب ، لأنهم يعلمون بهذه الهداية أن الصبر والتسليم مما يرضى الله تعالى ويوجب مثوبته

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أى الذين أشركوا . والآية هى العلامة الظاهرة ، قال الراغب وحقيقته لكل شىء ظاهر ملازم لشىء باطن يعرف به ويدرك بإدراكه حسيا . والمعنى : وأما الذين كفروا بآياتنا التى نجعلها دلائل الهداية وحجج الارشاد ، بأن جحدوا بها وأنكروها ولم يذعنوا لصدقها ، ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ هم أصحاب النار هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ، أى وهم فى خوف قاهر وحزن مساور

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ (٤٠) وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (٤٣)

التفسير

لا يزال الكلام فى الكتاب وكونه لا ريب فيه ، وبيان أحوال الناس وأصنافهم فى أمره . وهو فى هذه الحالة يخاطب الأمم والشعوب الموجودة فى البلاد التى ظهرت فيها النبوة تفصيلا ، فبدأ بهذه الآيات بذكر اليهود للمعنى الذى نذكره

﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ : إسرائيل لقب نبى الله يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام . قيل معناه الأمير المجاهد مع الله ، والمراد ببنيه ذريته .

اختص بنى إسرائيل بالخطاب لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب السماوية ، والمؤمنة بالأنبياء المعروفين ، ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين ، ولأن دخولهم فى الاسلام حجة على غيرهم من النصارى ، وكانوا يسمون شعب الله كما فى كتبهم ، وذكر القرآن أن الله اصطفاهم وفضلهم ، وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر الناس لله شكرا ، وذلك بأن يؤمنوا بكل نبى يرسله لهدايتهم ، ولكنهم جعلوا النعمة حجة الإعراض عن الايمان ، وسبب إيذاء النبى ﷺ ، لأنهم زعموا أن فضل الله تعالى محصور فيهم ، وأنه لا يبعث الأنبياء إلا منهم ، ولذلك بدأ تعالى خطابهم بالتذكير بنعمته :

﴿ اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ الذكر بالقلب ضد النسيان ، والمعنى : لا تغفلوا عن نعمتى التى أنعمت عليكم ولا تناسوها . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسلوى ، وفجر لهم من الحجر الماء ، إلى ما استودعهم فى التوراة التى منها صفة محمد ﷺ ، ونعمته رسالته ، والنعم على الآباء نعم على الأبناء لانهم يشرفون بشرف آبائهم

﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾ وعهد الله تعالى يعرف من الكتاب الذى نزله اليهم بأن يؤمنوا به وبرسله ويأتمروا بأمره وينتهوا عما نهى عنه ، هذا هو العهد الخاص المنصوص ، ويدخل فى عموم العهد العهد الأكبر الذى أخذه على جميع البشر بمقتضى الفطرة ، وهو التدبر والتروى ووزن كل شىء بميزان العقل والنظر الصحيح ، لا بميزان الهوى والغرور . ولو التفت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الالهى العام ، وإلى تلك العهود الخاصة المنصوصة فى كتابهم ، لآمنوا بالنبى ﷺ واتبعوا هدايته وكانوا من المفلحين . هذا هو عهد الله ، وأما عهدهم فهو أن يمكن الله لهم فى الأرض ، ويدخلهم الجنة .

﴿ وإياى فارهبون ﴾ أى خافون . والرّهب ، والرهبة : الخوف . والمعنى : إن كنتم تخافون فوت بعض المنافع ونزول بعض المضار بكم إذا خالفتم الجماهير واتبعتم الحق فالأولى أن لا تخافوا ولا ترهبوا إلا من بيده أزمة المنافع كلها فإن شاء أعطى وإن شاء منع ، وهو الله صاحب النعم كلها ، فارهبوه وحده ولا ترهبوا سواه

﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ﴾ أى صدقوا بالقرآن . فاذا نظرتم فى القرآن ووجدتموه مصدقا لما معكم فى مقاصد الدين الالهى وأصوله وهداية الخلق إلى الحق فبادروا إلى الايمان بهذا الكتاب وهو القرآن ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ أى ولا تبادروا إلى التنكر له والجحود به

﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ﴾ الآيات هى الدلائل التى أيد بها النبى ﷺ وأعظمها القرآن ، أى لا تعرضوا عن الايمان بهذا النبى وما جاء به وتستبدلوا بهدايته هذا الثمن القليل وهو ما يستفيده رؤساؤكم من المرءوسين من مال وجاه وما

يتوقعه المرءوسون من الزلفى والحظوة باتباع الرؤساء وما يخشونه إذا خالفوهم من المهانة والذلة . وسمى هذا الجزاء قليلا لأن كل ما عدا الحق قليل وحقير بالنسبة إليه . وهذه الآية وان كانت خطابا لبنى إسرائيل نهيا لهم فهى متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب أو بلحنه ، فمن أخذ من المسلمين رشوة على ابطال حق أمر الله به أو إثبات باطل نهى الله عنه أو امتنع من تعليم ما علمه الله وكتم البيان الذى أخذ الله عليه ميثاقه به فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا

﴿ وإياى فاتقون ﴾ بالايمان واتباع الحق والاعراض عن حطام الدنيا

﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ واللبس الخلط ، والمعنى لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذى تخترعونه وتكتبونه حتى يشتبه احدهما بالآخر . ولا تجعلوا الحق ملتبسا بسبب الباطل الذى تكتبونه فى تضاعيفه أو تذكرونه فى تأويله . و « تكتموا الحق » مجزوم داخل تحت حكم النهى ، كأنهم أمروا بالايمان وترك الضلال ، ونهوا عن الاضلال بالتلبس على من سمع الحق والاخفاء عمن لم يسمعه ، أو منصوب باضمار « أن » على أن الواو للجمع ، أى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانه ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أى حال كونكم عالمين بأنكم لابسون كاتمون ، أو أنتم تعلمون أنه حق وأنتم من أهل العلم

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ فبعد الدعوة إلى الايمان اليقينى دعاهم إلى العمل الصالح ، على الوجه النافع المرضى . فقد كانوا يصلون ، ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة . لأن الاقامة هى الاتيان بالشىء مقوما كاملا ، وهى فى الصلاة التوجه إلى الله تعالى بالقلب ، والخشوع بين يديه ، والاخلاص له بالذكر والدعاء والثناء

ثم أمر الله تعالى بالصلاة وبأيتاء الزكاة التى هى عنوان الايمان . والايتاء : الاعطاء . آتيته : أعطيته . والزكاة مأخوذة من زكا الشىء إذا نما وزاد . والزكاة هى بذل المال فى سبيل الله ، مواساة لعياله ، ومساعدة على مصالحهم التى هى ملاك مصلحته ، وتطهير المال ، وسبب فى نمائه وزيادته

﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ والركوع معناه الخضوع . فكأنه تعالى لما أمرهم

بالصلاة والزكاة أمرهم بعد ذلك بالانقياد والخضوع وترك التمرد

وقوله « مع الراكعين » فيه الارشاد الى شهود الجماعة والخروج الى المساجد . وثبت فى الصحيح عنه ﷺ « الذى يصلى مع الامام أفضل من الذى يصلى وحده ثم ينام - وان صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة ، أو بسبع وعشرين درجة »

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)

التفسير

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ والبرّ هنا الطاعة والعمل الصالح ، وبخ الله هؤلاء القوم (اليهود) على أنهم كانوا يأمرون الناس بالبر كالأخذ بالحق ومعرفته لأهله وعمل الخير مع الغفلة عن أنفسهم وعدم تذكيرها بذلك .

﴿ وأنتم تتلون الكتاب ﴾ وتتلون : تقرءون . والمعنى كيف نسيتم أنفسكم وأنتم تقرءون الكتاب وتأمرون الناس باتباعه وتعرفون منه مالا يعرفه المأمورون . ثم انتقل معهم من تقريع الى تقريع ، ومن توبيخ الى توبيخ ، فقال : لو لم تكونوا

من أهل العلم وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم من يعقل حائلا بينكم وبين ذلك ، ذائدا لكم عنه ، زاجرا لكم منه فقال :

﴿ أفلا تعقلون ﴾ والعقل : المنع . والمعنى : ألا يوجد فيكم عقل يمنعكم عن هذا السفه ، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم . ويصح أن يكون معنى الآية : أفلا تنظرون بعقولكم التى رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ الصبر : حبس النفس على ما تكره . والاستعانة بالصبر تكون بالالتفات إلى الأسباب التى تأفك الناس وتصرفهم عن هدى الشريعة ، كاتباع الشهوات . . . والصبر هنا على الطاعة وعن مخالفة كتابه ، والاستعانة بالصلاة أقرب إلى حصول المأمول وارجاع النفس إلى الله تعالى لما لها من التأثير فى الروح ، ولكنها أشق على النفس الأمارة بالسوء ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ أى لثقيلة شديدة الوقع إلا على المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى .

فمن خواص الصلاة الصبر ، وهى تقى الجزع . ومن خواصها النهى عن الفحشاء والمنكر . ومن خواصها الجود والسخاء . فالمصلى الحقيقى هو البار الحقيقى الذى لا يترك الحق لأجل شهوة ، ولا لما يعرض له فى معاملاته مع الخلق من خوف وخشية . هذا أثر صلاة الخاشعين بالاجمال ، ولذلك قال تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ وقال ﴿ الذين يظنون انهم ملاقو ربهم وانهم اليه راجعون ﴾ أى الذين يتوقون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء ، وأنهم اليه راجعون بعد البعث لا مرجع لهم إلى غيره . وهذا إقرار بالبعث وما وعد الله به فى اليوم الآخر والصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية

﴿ يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ ناداهم باسم أبيهم اسرائيل (وهو لقب يعقوب) الذى هو أصل عزهم ، وأسند اليهم جميعا لا اليه وحده لأن النعمة عمتهم والتفضيل شملهم ، والتفضيل مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل وهى نعمة كبرى .

﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ أى أعطيتكم من الفضل - وهو الزيادة فيما محس - ما لم أعط غيركم من الشعوب . والحكمة فى التذكير بالتفضيل أن يتذكروا أن الذى فضلهم له أن يفضل غيرهم كمحمد ﷺ وأمته

﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ أى واحذروا يوما عظيما أمامكم سيقع فيه الجزاء والحساب ، يوم لا تقضى فيه نفس - مهما يكن قدرها عظيما - عن نفس - مهما يكن ذنبها صغيرا - شيئا كحمل وزرها أو تكفير ذنبها .

﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ والمعنى لا يقبل منها أن تأتى بشفيع يشفع لها ، ولا يؤخذ منها فداء أو بدل إن هى استطاعت أن تأتى بذلك .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أى يمنعون من عذاب الله ، فلا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، وصار الحكم الى العدل الجبار فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها .

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . (٥٣)

التفسير

هذه الآيات - كالتى قبلها واللواتى بعدها - تفصيل لنعمة الله على شعب إسرائيل

التى ذكرت من قبل مجملة . وابتدىء التفضيل بذكر التفصيل ﴿ وإذ نجينا كم من آل فرعون ﴾ أى واذكروا إذ نجينا كم من فرعون « لقب لملك مصر » و (آله) خاصته وأهل دينه ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ أى يذيقونكم ويلزمونكم أشد العذاب ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ أى يقتلون ذكران نسلكم ويستبقون إناثه أحياء لإضعافكم وإذلالكم المفضى إلى قطع نسلكم وإبادتكم ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أى وفى ذلكم العذاب وفى النتيجة منه - فى كل منهما - بلاء وامتحان عظيم لكم من ربكم

﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ أى واذكروا من نعمنا عليكم أن جعلنا لكم فى البحر طريقا يبسا سلكتموه فى هربكم من فرعون ﴿ فانجينا كم ﴾ بعبوره من جانب إلى آخر ﴿ واغرقنا آل فرعون ﴾ إذ عبروا وراءكم ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ ذلك بأعينكم أى تنظرون الى فرق الله لكم البحر واهلاكه آل فرعون فى الموضع الذى نجاكم فيه ، ولولاه لعظم عليكم خبر غرقهم ولم تصدقوه

بعد أن قرر نعمة الانجاء من استعباد الظالمين ذكر النعمة التى وليتها ، وذكرهم بما كان من كفرهم إياها ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ ، وقد كانت هذه المواعدة لاعطائه التوراة . ولما ذهب لميقات ربه استبطأوه ، فاتخذوا عجلا من ذهب فعبدوه . وأشار اليه بقوله : ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ أى اتخذتموه إلها ومعبودا ظالمون أى وانتم مضارون لأنفسكم بالمعصية ، حيث وضعوا العبادة فى غير موضعها ، وخالفوا موعد نبيهم عليه السلام

والظلم فى كلام العرب وضع الشىء فى غير موضعه ، ويقال فى مجاوزة الحق

وبعد أن ذكرهم بذلك الظلم ذكرهم بتفضله عليهم بالتوبة ، ثم بالعفو الذى هو جزاء التوبة . فقال ﴿ ثم عفونا عنكم ﴾ أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم ﴿ من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾

هذه النعمة - وهى العفو - بدوام التوحيد والطاعـــة ، وهو معنى الشكر اى لتشكروا ما أنعم الله به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذى وقعتم فيه . ثم قفى على هذا بذكر الكتاب - وهو المنة الكبرى - لان فيه الهداية فقال ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾

فالكتاب هو التوراة والفرقان مافى الكتاب من الشرائع والأحكام المفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام . وقيل انه الحجة والبيان بالآيات التى أعطاها الله من العصا واليد وغيرها كأنه قال آتينا موسى التوراة والآيات التى ارسلناه بها معجزة له

﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أى لعل هذا الكتاب يهيئكم للاسترشاد فلا تقعوا فى وثنية أخرى . ومن كمال الاستعداد للهداية لفهم الكتاب أن يعرفوا أن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام هو هدى ونور يرجعهم إلى الأصل الذى تفرقوا عنه واختلفوا فيه ، وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون وجحده الرؤساء المستكبرون

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

التفسير

﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ للذين اتخذوا من حليهم عجلا إذ كان يناجى ربه فى

الميقاتين الزمانى والمكانى ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ إلهـا عبدتموه . والقصة مفصلة فى سورتى الأعراف وطه ، وذكرت هنا لدعوة بنى إسرائيل إلى الإسلام ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ والتوبة محو أثر الرغبة فى الذنب من القلب ، وذلك بأن يقتل بعضكم بعضا ، فان قتل المرء لأخيه قتل لنفسه ﴿ ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ لأنه يطهركم من رجس الشرك الذى دنستم به أنفسكم ، ويجعلكم أهلا لتوبته ورحمته . وقوله ﴿ فتاب عليكم ﴾ أى ففعلتم ما أمر به موسى عليه السلام فتاب عليكم ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أى هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها ، وانه الرحيم بهم ، ولولا رحمته لعجل باهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى لا سيما الشرك به .

﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ أى واذكروا إذ قلتم لنبيكم : يا موسى لن نصدق بما جئت به حتى نرى الله عيانا جهرة فيأمرنا بالايمان لك .

﴿ فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ أى فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون ذلك بأعينكم .

﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ أى أحييناكم بعد موتكم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت

﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ أى ولولا أن ساق الله اليهم الغمام يظللهم فى التيه لسفعتهم الشمس ولفحت وجوههم . والغمام هو السحاب الكثيف ﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ ما منح من الله تعالى يسمى ايجاده انزالا ، على أن المن ينزل كالندى وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر مائعة ثم تجمد وتجف فيجمعها الناس . وأما (السلوى) فقد فسروها بالطائر المسمى السمانى ، فمعنى النزول يصح فيه على حقيقته أيضا ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى وقلنا كلوا من الحلال واللذيذ الذى أعطيناكم

﴿ وما ظلمونا ﴾ يُقدَّرُ قبله فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصى . ويعنى بقوله وما ظلمونا : وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم ايانا موضع مضرّة علينا ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوا أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها

قال الشيخ محمد عبده : « والعبرة الاجتماعية فى الآيات أن الخطاب فى كل ما تقدم كان موجها إلى الذين كانوا فى عصر التنزيل ، وأن الكلام عن الآباء والأبناء واحد لم تختلف فيه الضمائر ، حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالتوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار وبالشكر ، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة واعتبار أن كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنقم إنما يكون لمعنى موجود فيها يصح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع به ، ليعلم الناس أن سنة الله تعالى فى الاجتماع الانسانى أن تكون الأمم متكافلة يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم ، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب فى الأمة وإن لم يواقعها هو ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ وهذا التكافل فى الامم هو المعراج الاعظم لرقيها ، لانه يحمل الامة التى تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين »(١)

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ

---

(١) تفسير القرآن الكريم تأليف السيد محمد رشيد رضا جزء أول ص ٣٢٢ .

منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين (٦٠) وإذ قلتم يموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٦١) إن الذين ءامنوا والذين هادوا والنصرى والصبئين من ءامن بالله واليوم الآخر وعمل صلحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) وإذ أخذنا ميثقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما ءاتينكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون (٦٣) ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخسرين (٦٤)

التفسير

﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ﴾ المراد المدينة ، وهى فى الأصل اسم لمجتمع الناس ، وأطلقت على الأمة نفسها ـ وقد أمر بنو إسرائيل بدخول بلاد كثيرة وهى نعمة إخرى إذ أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التيه ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ وأباح لهم الأكل عن سعة وبكثرة ﴿ وادخلوا الباب سجدا ﴾ أى ادخلوا خاشعين لله خاضعين لأمره ، وهذا معنى السجود وروحه المراد هنا ﴿ وقولوا حطة ﴾

والمراد بالحطة الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر النعم ﴿ نغفر لكم خطاياكم ﴾ أى يفعو عنهم ولا يؤاخذهم بما فعلوا من الذنوب ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ ثوابا . أى من كان منكم محسنا زيد فى إحسانه ومن كان مخطئا نغفر له خطيئته . جعل الامتثال توبة للمسىء وسببا لزيادة الثواب للمحسن

﴿ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ﴾ أى خالف فريق منهم وهو الخارج عن الطاعة وقال غير ما أمر به ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء ﴾ فأنزلنا على المخالفين والعاصين رجزا (عذابا) من السماء بسبب ظلمهم وعصيانهم ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أى بسبب تكرار الفسوق والعصيان منهم أى بما كانوا يتركون من طاعة الله تعالى فيخرجون عنها الى معصيته وخلاف امره

﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ أى طلب السقيا ﴿ الماء ﴾ لهم من الله تعالى ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر ﴾ أمره أن يضرب بعصاه حجرا من حجارة تلك الصحراء بتلك العصا التى ضرب بها البحر فضربه ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ﴾ بعدد أسباطهم ، وذلك قوله عز وجل ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ لكل سبط عين معلومة مستفيض ماؤها لهم . ثم أراد أن يصور حال بنى إسرائيل فى هذه النعمة واغتباطهم بما منحهم من العيش الرغد فى مهاجرهم فقال ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ﴾ يعنى المن والسلوى والماء كان يأتيهم بلا مشقة ولا كلفة . ثم للاحتفاظ بهذا الرزق يجب البعد عن الفساد فقال : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ أى لا تنشروا فسادكم فى الأرض وتكونوا فى الشرور قدوة سيئة للناس ، يقال عثا إذا نشر الشر والفساد وأثار الخبث .

﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ﴾ وسياق الآيات قبلها وما يلحق بعد ذلك من قوله ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ الخ كل ذلك يدل على أن ما عدد من

أفاعيلهم مع تضافر الآيات بين أيديهم وتوارد نعم الله عليهم كل هذا من خطاياهم ؛ ومن ذلك ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ﴾ وهو المن والسلوى ، والعرب تقول لمن يأكل كل يوم عدة ألوان لا تتغير : إنه يأكل طعاما واحدا . والبقل ما يطعمه الانسان من أطايب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما . والقثاء هى أخت الخيار تسميها العامة « القتة » والعدس والبصل معروفان والفوم هو الحنطة وقال بعضهم الثوم ، وطلبهم للحنطة هو طلبهم للخبز الذى يصنع منها ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام تقريعا لهم ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ ﴾ أى أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المن والسلوى ؟ والأدنى فى اللغة الأقرب واستعير للاخس ، والاستبدال طلب شىء بدل الآخر

﴿ اهبطوا مصرا ﴾ من الأمصار ﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ أى وجدتم فيه ما سألتم من نبات الأرض فأقدموا على محاربة من يليكم من سكان الأرض الموعودة وعند ذلك تجدون طلبتكم فالتمسوا الخير فى نفوسكم وأفعالكم . والهبوط الانحدار على سبيل القهر . واذا استعمل فى الأنسان الهبوط فعلى سبيل الاستخفاف وتنبيه على الغض

قال تعالى ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ فضرب الذلة والمسكنة على اليهود هو جعل الذل وضعف العزيمة محيطين بهم كما تحيط القبة المضروبة بمن فيها . والذلة هى الصغار « يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون » والمسكنة فى هذا الموضع مسكنة الفاقة والحاجة وهى خشوعها وذلها .

﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ أى رجعوا به ، والمعنى استحقوا غضبه ، ومن استحقه فقد أصابه . وتنكير الغضب دلالة على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه

﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ أى ذلك العقاب بضرب الذلة والمسكنة وبالغضب الإلهى بسبب ما جروا عليه من الكفر بآيات الله الخ فانهم بإحراجهم لموسى عليه السلام وإعناتهم له فى المطالب مع كثرة ما شاهدوا من العجائب دلوا على أن لا أثر للآيات فى نفوسهم فهم بها كافرون فى الحقيقة ﴿ ويقتلون النبيين بغير

الحق ﴾ مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلا عنهم إلا بحقه المبين فيه ، وقد ارتكبوا هذا الجرم العظيم عامدين مع علمهم مخالفته لشرع الله وكتابه ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أى بعصيانهم - والعصيان خلاف الطاعة ، والاعتداء التخطى لحدود الله ونبذها أى يتجاوزون أمر الله ويرتكبون محارمه ، ومعنى الكلام ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله من أجل كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين بغير الحق ومن أجل عصيانهم ربهم واعتدائهم حدوده أى فعلت ذلك كله بهم بما عصوا أمرى وتجاوزوا حدّى الى ما نهيتهم عنه

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ المراد به المسلمون الذين اتبعوا محمدا ﷺ والذين سيتبعونه إلى يوم القيامة ﴿ والذين هادوا والنصارى والصابئين ﴾ يراد به هذه الفرق من الناس التى عرفت بهذه الاسماء او الالقاب من الذين اتبعوا الانبياء السابقين وأطلق على بعضهم لفظ يهود والذين هادوا ، وعلى بعضهم لفظ النصارى ، وعلى بعضهم لفظ الصابئين

﴿ من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ﴾ وقد تقدم شرح الإيمان واليوم الآخر فى أوائل السورة ، وعمل صالحا تصلح به نفسه وشؤونه مع من يعيش معه ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ والمعنى أن لهم أجرهم المعلوم لوعد الله لهم على لسان رسولهم ولا خوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار ولا هم يحزنون على شىء فاتهم

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ وهو العهد الذى أخذه عليهم فى قوله ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا ﴾ الآيات التى ذكر معها . والمعنى قبول ما جاء فى التوراة

﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الايمان وعاهدوا موسى عليه . فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التى رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأجل أخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد ، لأن رؤية الآيات تقوى الايمان ، ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾

أى تمسكوا به واعملوا بجد ونشاط ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ أى بالعمل على المحافظة به ﴿ لعلكم تتقون ﴾ فالعمل بما يرشد اليه الكتاب يطبع فى النفس ملكة مراقبة الله تعالى فتكون بها تقية نقية .

﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ أى أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ أى بتوليكم استحققتم العقاب ولكن حال دون نزوله بكم فضل الله عليكم ورحمته بكم ولولا ذلك لخسرتم سعادة الدنيا وهو التمكن فى الأرض المقدسة وخسرتم الآخرة وهى خير ثوابا وخير أملا

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِىَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

التفسير

﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ﴾ أى وأقسم أنكم لقد علمتم خبر الذين تجاوزوا حدود حكم الكتاب فى ترك العمل الدنيوى يوم السبت ، وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا فى السبت وأمرهم أن يتجردوا للعبادة فيه وتعظيمه ثم ابتلاهم فما كان يبقى حوت فى البحر الا أخرج خرطومه يوم السبت فاذا مضى تفرقت . فحفروا حياضا عند البحر وشرعوا لها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لانها من الصيد فكانوا يسدون مشارعها من البحر فيصطادونها يوم الأحد ، فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم . وسيأتى نبأهم مفصلا فى سورة الاعراف

﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال : ما مسخت صورهم ، ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا ﴾ والخسؤ هو الطرد والصغار ، والأمر للتكوين ، أى فكانوا بحسب سنة الله فى طبع الانسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس

﴿ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ أى جعلنا هذه العقوبة نكالا ، وهو ما يفعل بشخص فى إيذاء وإهانة ليعتبر غيره ، أى عبرة ينكل من يعلم بها أى يمتنع من اعتداء الحدود . و « النكول » هو الامتناع . وما بين يديها يراد به من وقعت فى زمنهم ، كما يراد بما خلفها من بعدهم إلى ما شاء الله تعالى . أما كونها موعظة للمتقين فهو أن المتقى يتعظ بها فى نفسه بالتباعد عن الحدود التى يخشى اعتداؤها

﴿ وإذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا ﴾

قال المفسرون أول القصة مؤخر فى التلاوة وهو قوله تعالى ﴿ واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ﴾ وذلك أن رجلا موسرا قتله بنو عمه ليرثوه وطرحوه على باب مدينة ثم جاءوا يطالبون بديته ، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله

وفى هذه القصة اختلف النسق ، فذكر المخالفة بعد فى قوله ﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ﴾ ثم المنة فى الخلاص منها فى قوله ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ الخ وقدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص وهى ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها . ولما كان فى جوابهم هذا رمى لموسى عليه السلام بالسفه والجهالة ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ أى ألتجىء إلى الله واعتصم بتأديبه إياى من الجهالة والهزء بالناس وفيه تعريض بهم أى أنتم جاهلون حيث نسبتمونى الى الاستهزاء ﴿ قالوا ادع ربك يبين لنا ما هى ﴾ أى ما الصفات المميزة لها ﴿ قال إنها بقرة لا فارض ﴾ أى غير مسنة انقطعت ولادتها ﴿ ولا بكر ﴾ لم تلد بالمرة والمراد بها لم تلد كثيرا

﴿ عوان بين ذلك ﴾ العوان النصف فى السن ، أى لا هى صغيرة ولا كبيرة

﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنت ، ولكنهم أبوا إلا تنطعا واستقصاء فى السؤال ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ الفاقع الشديد الصفرة بحيث لا يخالطه لون آخر .

لم يكتفوا بهذا وزادوا تنطعا إذ ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ وقد أرادوا بهذا السؤال زيادة التمييز للونها عاملة سائمة قال ﴿ انها بقرة ﴾ سائمة ﴿ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ﴾ اى غير مذللة بالعمل فى الحراثة ولا فى السقى ﴿ مسلمة ﴾ من العيوب أو من سائر الأعمال ﴿ لا شية فيها ﴾ أى ليس فيها لون آخر غير الصفرة الفاقعة . والشية : مأخوذ من وشى الثوب أو نسيج على لونين

﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ أى بينت ووصفت البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها . فذبحوها أى فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف فذبحوها ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط

والتعنت وعدم المبادرة ، فكان ذلك مظنة الاستبعاد ومحلا للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّرَءْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

التفسير

﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ﴾ هذه أول القصة المحتوية على المخالفة على ما أشرنا اليه ، وهى القتل ، ثم التنازع فى القاتل ، ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة ، وما كان من إلحاحهم فى السؤال على ما سبق ، وأسند فيه القتل إلى

الأمة وان كان القاتل واحدا باعتبار ما تقدم من كونها فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد . و (التدارؤ) التدافع ، وهو يدل أنه كان خصام واتهام ، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم غيره ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ من الايقاع بقوم برآء تتهمونهم بالقتل لاخفاء القاتل ، لأنه لا يخفى عليه مكركم

﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ﴾ فهذا بيان لاخراج ما يكتمون ، والمراد اضربوا المقتول بجزء منها ، وقالوا انهم ضربوه فعادت اليه الحياة وأقر بالقاتل ، والاحياء هنا معناه الاستبقاء ﴿ ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخشوع للشريعة

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ والقسوة الصلابة ، ان هذه القلوب فى قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها أى أشد قسوة من الحجارة ، إذ لا شعور فيها يأتى بخير ، والحجارة ليست كذلك ﴿ وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله ﴾ والتفجر : الشق الواسع ، وعبر بالتشقق لخروج الماء الذى يصدق بالقليل منه

وملخص التشبيه أن قلوبكم تشبه الحجارة فى القسوة بل تزيد عنها فان الحجارة الصم تتأثر فى باطنها بالماء اللطيف النافع : بعضها بالقوى منه فيخرج منها الأنهار ، وبعضها بالضعيف فيخرج منه الماء ، ولكن قلوبكم لا تتأثر بالحكم والمواعظ التى من شأنها التأثير فى الوجدان . والحجارة تتأثر بالحوادث الهائلة التى يحدثها الله فى الكون كالصواعق والزلازل ، ولكن قلوبكم لم تتأثر بتلك الآيات الإلهية التى تشبهها ، فلا أفادت فيها المؤثرات الداخلية ولا المؤثرات الخارجية كما أفادت فى الأحجار ، فبذلك كانت قلوبكم أشد قسوة . ثم هددهم بقوله ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ أى فهو سيريكم بضروب النقم إذا لم تتربوا بصنوف النعم . وأصل الغفلة عن الشىء تركه على وجه السهو عنه والنسيان له ، فأخبرهم سبحانه أنه غير غافل عن أعمالهم الخبيثة ولاساه عنها بل هو لها محصن ولها حافظ

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ الخطاب للنبي عليه السلام ومن معه من المؤمنين. والمعنى: أفتطمعون أن يؤمن اليهود ويظهروا التصديق، ومن علم منهم الحق لم يعترف بذلك بل غيره وبدله. والتحريف هو إمالة الشيء عن حقه

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا. وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ والكلام فى مجموع اليهود ويوجه (الأول) إلى الذين اذا لاقوا المؤمنين قالوا آمنا يعنى المنافقين من اليهود كانوا اذا لقوا أصحاب النبي ﷺ قالوا آمنا أى صدقنا بمحمد ﷺ وبما صدقتم به (والثانى) إلى الذين يلاقيهم هؤلاء (اليهود) من قومهم ويعذلونهم على الافضاء إلى المؤمنين بما فتح الله عليهم، والمراد بالفتح هنا الالهام بالشريعة والأحكام والبشارة بالنبي ﷺ ﴿ ليحاجوكم به عند ربكم ﴾ معناه يقيمون به عليكم الحجة من كتاب ربكم وهو التوراة من حيث أن ما تحدثونهم به موافق لما فى القرآن ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أن هذه حجة عليكم حيث تعترفون به ثم لا تتابعونه

﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أنكر الله تعالى عليهم هذا التلون والدهان فى الدين، ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون من كفر وكيد وما يعلنون من إظهار إيمان وود واحاطته بما يجول فى أطواء ضمائرهم.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ

عَلَى اللهِ مالا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)

التفسير

﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون ﴾ الأمى من لا يعرف القراءة والكتابة ، هذا هو شأن عامتهم ، لا علم لهم بشىء من الكتاب ، وانما هى ظنون يلهون بها ، وهذا محل الذم لا مجرد كونهم أميين ، لأن الآية تدل على بطلان التقليد وعدم الاعتداد بايمان صاحبه . والمعنى أنهم يعلمون من الكتاب أنه مجموعة أمانى يمنون أنفسهم بها ، فهم لا يأخذون منه إلا ما هو لهم ويمدهم فى غرورهم ، وأما ما ينهاهم عن سيئات أعمالهم فكأنه غير معروف لهم من الكتاب . وقيل منهم أميون لا يعلمون ولا يدرون مافى التوراة ، وهم يجحدون نبوتك بالظن

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ أى ويل وهلاك عظيم لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتب بأيديهم ويودعونها آراءهم ويحملون الناس على التعبد بها قائلين ان ما فيها من عند الله والاستغناء بها عن كتاب الله الذى نفهم منه مالا يفهم غيرنا ، يخطبون بتلك الكتب ميل العامة ويأكلون أموالهم بالدين .

﴿ ليشتروا به ثمنا قليلا ﴾ وكل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل ، لأن الحق أثمن الأشياء وأغلاها ، ولذلك كرر الوعيد فقال :

﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ فالهلاك والويل محيط بهم من أقطارهم ، ونازل بهم من جانب الوسيلة وهى الكتابة ، ومن المقصد وهو الكسب .

﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ هذا ضرب من ضروب غرورهم

بقولهم لن تمسنا النار فى الآخرة الا أياما محصورة ﴿ قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ﴾ أى خبرا أو وعدا بما تزعمون ، فان ما تدعون لا يكون إلا بناء على وعد قوى ، ولذلك عبر عنه بالعهد ، أى وان كان الأمر كذلك فلن يخلفه ، والاستفهام للانكار ، أى لستم على عهد من الله تعالى ، ولذلك كذبهم بقوله ﴿ أم تقولون على الله مالا تعلمون ﴾ أى أم تقولون على الله شيئا ليس لكم به علم ، والمعنى أنه لا بد من أحد أمرين : إما اتخاذ عهد عند الله ، وإما القول على الله بغير علم . وإذا كان اتخاذ العهد لم يحصل تعين أنكم تكذبون على الله بجهلكم وغروركم .

﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ بلى مبطلة لدعواهم ، والكسب استجلاب النفع ، وتعليقه بالسيئة أى كبيرة من الكبائر .

﴿ واحاطت به خطيئته ﴾ ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها وأخذها بجوانب احساسه ووجدانه كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجا . وقيل السيئة الكفر . والخطيئة الكبيرة . وكان السلف يقولون « المعاصى بريد الكفر »

﴿ فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ خبر « من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » أى هم أصحاب دار العذاب فى الآخرة . وتأويل الآية من أشرك بالله واقترف ذنوبا جمة فمات عليها قبل الإنابة والتوبة فأولئك أصحاب النار هم فيها مخلدون أبدا

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٨٢)
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِى إِسْرَٰءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ

دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من ديركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون (٨٤) ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديرهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسرى تفدوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحيوة الدنيا ويوم القيمة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون (٨٥) أولئك الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون (٨٦)

التفسير

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ اى الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح وما يلزمه من الأعمال الصالحات ، وهى إطاعة الله فيما أمر والبر بالانسانية ، فإذا أتقن كل عامل عمله لخير بنى جنسه وارتقاء أمته كان هذا عملا صالحا ، وهذا هو المعنى العام . ﴿ فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أى أولئك دون غيرهم أصحابها الحقيقون بها بحسب وعد الله وفضله هم خالدون فيها . وفيه دليل على أن الوعد على الإيمان والعمل معا ، إذ لا ينفك أحدهما عن الآخر

﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل ﴾ أى واذكر أيها الرسول إذ أخذنا ميثاق (العهد) بنى إسرائيل ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ وهذا النهى عن عبادة غير الله مستلزم للأمر بعبادته تعالى . ولم يصرح به لأنهم كانوا يعبدون الله وانما يخشى عليهم الشرك به وعبادة الله اثبات توحيده وتصديق رسله والعمل بما انزل فى كتبه . والمعنى استحلفناهم والله لا تعبدون إلا الله ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أى وتحسنون

بالوالدين احسانا . والإحسان نهاية البر فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية .

ولما كان حب الوالدين للأولاد بمكانة من القوة لا يخشى زوالها ترك النص على الاحسان بهم ، وثنى بالاحسان بمن دونهم فى النسب فقال تعالى ﴿ وذى القربى ﴾ قضى نظام الفطرة بأن تكون صلة القرابة أمتن من كل صلة ، فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق ، وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص . والاحسان لهم صلتهم ، والقيام بما يحتاجون اليه بحسب الطاقة ، وبقدر ما تبلغ به القدرة . ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير . وقد قدم الوصية به على الوصية بالمسكين ولم يقيدها بفقر ولا مسكنة ، فعلم أنها مقصودة لذاتها . والمسكين من يعجز عن كسب يكفيه ، ولم يكن هؤلاء الذين اتخذوا السؤال والشحاذة حرفة ومغنما . والمساكين جمع مسكين وهو من أسكنته الحاجة وذللته ، وهو أشد فقرا من الفقير عند أكثر أهل اللغة وكثير من أهل الفقه

﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ بعد بيان ما به إصلاح البيوت من إعانة الأقربين ، وما به صلاح بعض العامة من معونة اليتامى والمساكين على إصلاح بيوتهم ، بقى بيان حقوق سائر الأمة ، وهى النصيحة لهم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيهم ، فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ وليس معناه مجرد التلطف بالقول والمجاملة فى الخطاب ، فالحسن هو النافع فى الدين والدنيا ، ولا شك أن فى القيام بهذه الفرائض إصلاح الأمة كلها .

﴿ واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وإنما اقامة الصلاة بالإخلاص لله ، والصدق فى التوجه إليه ، والخشوع لعظمته ، والاستكانة لعز سلطانه ، وهى بهذا تكون وسيلة لاصلاح النفس . وإيتاء الزكاة أى إخراج المال لذوى الحاجة ، وذلك لإصلاح شئون المجتمع .

﴿ ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ﴾ أى ثم كان من أمركم بعد هذا الميثاق الذى فيه سعادتكم أن توليتم وأنتم فى حالة الاعراض عنه وعدم الاكتراث

له ﴿ إلا قليلا منكم ﴾ فهو استثناء لبعض من كانوا فى زمن موسى عليه السلام ، أو فى كل زمن فانه لا تخلو أمة من الأمم من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم .

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ والخطاب موجه إلى اليهود والحاضرين فى زمن التنزيل ، تماديا فى سياق الالتفات ، وتذكيرا بوحدة الأمة ، واعتبارها كالشخص الواحد يصيب الخلف أثر ما كان عليه السلف من خير وشر ، فاستنوا بسنتهم وجروا على طريقتهم . وقد أورد النهى عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم ، بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة ، وتحدث أثرا شريفا يبعثها على الامتثال فقال ﴿ لا تسفكون دماءكم ﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه ، حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده وقال ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ على هذا النسق ، وقيل معناه لا تركبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل والاخراج من الديار ﴿ ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ أى إنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد اقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه فى قلوبكم ، بل تشهدون وتعلنونه ، فالحجة ناهضة عليكم به .

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه ولا ينكرون منه شيئا ذكر نقضهم إياه فقال ﴿ ثم أنتم هؤلاء ﴾ الحاضرون الشاهدون المشاهدون ﴿ تقتلون أنفسكم ﴾ أى يقتل بعضكم بعضا كما كان يفعل من قبلكم ، مع اعترافكم بأن الميثاق مأخوذ عليكم كما كان مأخوذا عليهم .

ويتبع هذا القتال الأسر ، ومن لوازمه الإخراج من الديار ولذلك قال :

﴿ وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴾ والتظاهر معناه التعاون . كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالأثم كالقتل والسلب ، وبالعدوان كالاخراج من الديار . وكانوا إذا اتفقوا على فداء الاسرى يفدى كل فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه ، ويعتذرون عن هذا بأنهم مأمورون فى الكتاب بفداء أسرى شعب

إسرائيل . فان كانوا مستمسكين بالكتاب فلم قاتلوا شعب إسرائيل وأخرجوهم من ديارهم وهم منهيون عن ذلك فى الكتاب ؟ ! هذا لعب بالكتاب واستهزاء بالدين ، ولذلك قال تعالى ﴿ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ بعد أن كنتم أسرتموهم وأخرجتموهم بالتظاهر عليهم مع العرب ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ بميثاق أغلظ من معاداتهم . قال المفسرون كان الله سبحانه قد أخذ على بنى إسرائيل أربعة عهود فترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة وفداء أسراهم ، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء فوبخهم الله على ذلك بقوله ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب ﴾ وهو فداء الأسرى ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ آخر منه وهو النهى عن القتل والاخراج ، والإيمان لا يتجزأ فالكفر بالبعض كالكفر بالكل ، ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ﴾ الخ ، أوعدهم الله كما أوعد من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذى يجمعهم والشريعة التى هى مناط وحدتهم ورباط جنسيتهم بالخزى العاجل - والخزى الهوان - والعذاب الآجل ﴿ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾ فهو مع كونه من عالم الغيب معقول المعنى ، لأن من فسدت نفسه بارتكاب المعاصى ساقها إلى عذاب الله الشديد يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئا .

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ بل هو محيط به لا يخفى عليه منه شىء ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أى جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلا من الآخرة بما فرطوا فى جانب الله وأهملوا من شريعته حتى لا يتبعوا منها إلا ما يوافق هواهم ولا يعارض شهواتهم .

﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ لان علته ذاتية فيهم وهى ظلمة أرواحهم وفساد اخلاقهم . ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ بشفاعة شافع أو ولاية ولى من دون الله .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٧٨) وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١)

التفسير

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ﴾ شروع فى بيان بعض آخر من جناياتهم . وتصديره بالجملة القسمية لاظهار كمال الاعتناء به . والمراد بالكتاب التوراة فأنها نزلت جملة واحدة . وقفينا أى أتبعنا . وبالمعنى أى أرسلنا رسلا تترى . والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلا جعلهم تابعين له وهم أنبياء بنى إسرائيل المبعوثون من بعده ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ أى المعجزات الواضحات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص أو الأنجيل . وايدناه بالروح المقدسة ، والمراد أن الله تعالى أرسل إليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين

فيهم بعد موسى وأعطاه مالم يعط كل رسول من أولئك الرسل من الوحى أو من قوة الروح وزكاء النفس ومكارم الأخلاق ونسخ بعض الأحكام ، وقد كان حظه مع ذلك منهم كحظ بقية الذين لم يؤتوا من المواهب مثلما أوتى به . وروح القدس : أى الروح المقدسة . والقدس الطهارة ، والمقدس المطهر ، قيل هو جبريل أيد الله به عيسى . وقيل المراد به الانجيل . وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه ايده الله به لما فيه من القوة ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم ﴾ أى بما لا يوافقها ولا يلائمها . وأصل الهوى الميل الى الشيء ﴿ استكبرتم ﴾ أى اتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات وعصيتم الرسل ، واحتميتم عليهم إن انذروكم ودعوكم إلى أحكام كتابكم ﴿ ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ﴾ وهذا نهاية الذم ، لأن اليهود من بنى إسرائيل كانوا إذا أتاهم رسول بخلاف ما يهوون كذبوه ، وإن تهيأ لهم قتله قتلوه . . .

﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ والغلف جمع أغلف وهو ما يحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء . والمراد أننا لا نعقل قولك ، ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ أى أن قلوبهم ليست غلفا لا تفهم الحق لطبيعتها وانما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالانبياء السابقين وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعا لاهوائهم . فقليلا ما يؤمنون . إنما القلة فى الايمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة وبالنسبة إلى اليقين فى الايمان وتحكيمه فى الفكر والوجدان ، وقال ابن جرير انه لم يؤمن بالنبى وما جاء به إلا قليل منهم .

﴿ ولما جاءهم كتاب ﴾ أى أن ايمانهم كان قليلا حال كونهم كانوا ينتظرون نبيا وكتابا ، والكتاب هنا القرآن ، نكره للتفخيم وقوله ﴿ مصدق لما معهم ﴾ معناه أنه موافق له فى التوحيد وأصول الدين ومقاصده ، والاستفتاح فى قوله ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ معناه طلب الفتح وهو الفصل فى الشيء والحكم بين المتحاربين ، وكانت اليهود تستفتح على مشركى العرب بالنبى المنتظر يقولون إنه سيظهر فينصر كتابه التوحيد الذى نحن عليه ويخذل الوثنية التى تنتحلونها ويبطلها

فيكون مؤيدا لدين موسى ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وهو الكتاب ، راعهم أنه أنزل على النبى العربى فحسدوه ، فحملهم الحسد على الكفر به جحودا وبغيا ، فسجلت عليهم اللعنة التى أصابتهم بكفرهم الأول بأن الكفر صار وصفا لازما لهم ولذلك قال ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ ولم يقل عليهم لأن المظهر أبلغ وأعم وأشمل ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ﴾ بئس تستعمل للذم ، أى بئس شيئا اشتروا به أنفسهم وهو كفرهم بما أنزل الله مصدقا لما معهم كما كانوا ينتظرون . شرى الشىء واشتراه يستعمل كل منهما بمعنى باع الشىء ، وبمعنى ابتاعه ، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن اشتروا هنا بمعنى باعوا أى أنهم باعوا أنفسهم بما حرصوا عليه من الكفر بغيا وحسدا للنبى وحبا فى الرياسة واعتزازا بالجنسية وبما كان لكل من الرؤساء والمرءوسين من المنافع المتبادلة فى المحافظة عليها ، فهذا كله يعد ثمنا لأنفسهم التى خسروها بالكفر كأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع ﴿ بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ أى كفروا به لمحض البغى الذى أثاره الحسد كراهة أن ينزل الله الوحى من فضله بمقتضى مشيئته . ومعنى قوله بغيا فانه يعنى تعديا وحسدا أن الله جعله فى غيرهم ﴿ فباءوا بغضب على غضب ﴾ باءوا رجعوا ، وبغضب وهو الغضب الذى استوجبوه حديثا بالكفر بالنبى ﷺ ، فوق الغضب الذى لحقهم من قبل بإعنات موسى عليه السلام والكفر به . ثم توعدهم بعد الغضب المزدوج فقال ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ أى مقرون بالاهانة والاذلال ، وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾ وإذا قيل لهم يعنى به العهد آمنوا بما أنزل الله أى بكل ما أنزل الله ، قالوا نؤمن - أى نصدق - بما أنزل علينا - أى التوراة - فلما آمنوا بالبعض دون البعض ﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾ وهى نبوة محمد ﷺ والقرآن الكريم ﴿ وهو الحق ﴾ أى والحال أنه الحق الثابت فى نفسه بالدليل حال كونه ﴿ مصدقا لما معهم ﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل

ولذلك قال ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين ﴾ بما أنزل اليكم وليس فيه الأمر بقتل الأنبياء بل فيه النهى الشديد عن قتل أنفسهم . والاستفهام للتوبيخ ، أى ان كنتم تؤمنون بما أنزل عليكم فكيف تقتلون الأنبياء ، وقد نهيتم عن قتلهم فيما أنزل عليكم ؟

وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

التفسير

﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ أى من بعد هذا المجىء لا من بعد موسى ، والمراد أنه لم يكن لهم عذر فى ذلك الاتخاذ فإنه بعد بلوغ الدعوة وقيام الحجة ولذلك قال ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ هو حال ، أى عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها ، أو اعتراض أى وأنتم قوم عادتكم الظلم . وأى ظلم أعظم من الشرك بالله تعالى . وحذف مفعول ﴿ اتخذتم ﴾ أى اتخذتموه إلها . ثم

ذكرهم هنا ايضا بأخذ الميثاق ورفع الطور كما ذكرهم به فى آية تقدمت . وقد قال هناك ﴿ خذوا ما أتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ﴾ وقال هنا ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ وأمرهم فى تلك بالحفظ وأمرهم فى هذه بالفهم والطاعة . وقلنا فى تفسير ﴿ واذكروا ﴾ أن المراد الحث به على العمل ، فالعبارتان تتلاقيان فى المعنى والمراد

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ ومعنى الآية واذ أخذنا ميثاقكم أن خذوا ما آتيناكم بقوة واعملوا بما سمعتم وأطيعوا الله ورفعنا فوقكم الطور من أجل ذلك . ثم التفت عن خطاب الحاضرين الى الحكاية عن الغابرين فقال ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ أى أنهم قبلوا الميثاق وفهموه ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعنتا وتأولا ، وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ بل المراد انهم بمثل من قال ذلك ﴿ وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ وإشراب الشىء مخالطته إياه وامتزاجه به ، وقد قدر الأكثرون هنا مضافا محذوفا فقالوا : المراد حب العجل ، والمعنى هو إقامة الحجة على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبى ﷺ ورد زعمهم أنهم مؤمنون بشريعة لا يطالبهم الله الايمان بغيرها كما قلنا فى التى قبلها ، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى مخاطبا للنبى عليه السلام ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشريعة فبئسما يأمركم به ذلك الايمان من الأعمال التى منها عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ﴾ والمعنى إن صحت دعواكم وصدق قولكم انه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا فتمنوا الموت — كالتعرض للقتل فى سبيل الله — الذى يوصلكم الى دار النعيم الخالص الذى لا منازع لكم فيه ولا مزاحم ، وان لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين . والتمنى هو ارتياح النفس وتشوقها الى الشىء الذى توده وتحب المصير اليه

﴿ ولن يتمنوه أبدا ﴾ والمانع لهم من تمنى الموت هو ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ لأنهم يعرفون من أنفسهم أنهم عاصون مقترفون للذنوب التى يستحقون عليها

العقوبة ، وقد أسند الفعل إلى الأيدى لأن أكثر الأعمال تزاول بها ، وقد ختم الآية بقوله ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ ليبين أنهم ظالمون فى حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم وأن غيرهم من الشعوب محروم منها وأن كل من كان مثلهم مفتاتا على الله تعالى فهو ظالم مثلهم

﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ كذلك كانوا وكذلك هم الآن . ونكر الحياة للتحقير كأنه يقول انهم شديدو الحرص على الحياة وان كانت فى بؤس وشقاء . ثم خص طائفة من الناس بالذكر عرفوا بشدة الحرص على الحياة لا يؤمنون بحياة بعدها فقال ﴿ ومن الذين اشركوا ﴾ أى انهم أحرص الناس من جميع الناس حتى من الذين اشركوا وهم الذين لا يصدقون بالبعث ولا العقاب ، فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ أى يتمنى لو يعمره الله ويبقيه ألف سنة ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ أى وما تعميره الطويل بمزحزحه أى منجيه ومبعده من العذاب المعد له ولأمثاله فإنه ميت مهما طال عمره ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ لا تخفى عليه خافية من أعمالهم ، بل هو بجميعها محيط ولها ذاكر حتى يذيقهم بها العقاب جزاءها . والبصير العالم بالشىء الخبير به

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ كِتٰبَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا
مَا تَتْلُو الشَّيٰطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٰنُ وَلٰكِنَّ الشَّيٰطِينَ كَفَرُوا
يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمٰنِ
مِنْ أَحَدٍ حَتّٰى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ
الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا
يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرٰهُ مَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ
خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَقُولُوا رٰعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا
وَاسْمَعُوا وَلِلْكٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتٰبِ
وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)

التفسير

﴿ قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله ﴾ والمعنى اذا كان جبريل يناجى روحك ويخاطب قلبك باذن الله لا افتئاتا من نفسه ـ وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم ـ فعداوة جبريل لا يصح أن تصد عن الايمان بك ، فان القرآن من عند الله لا من عنده . فقوله ﴿ باذن الله ﴾ حجة أولى عليهم أى بعلم

الله وإرادته وتيسيره وتسهيله ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ أى التوراة أو جميع الكتب المنزلة والآيات والرسل الذين بعثهم الله ، أى حال كونه موافقا الكتب التى تقدمته فى الأصول التى تدعو اليها من التوحيد واتباع الحق والعمل الصالح والبشارة بالنبى ، وما كان جبريل الا واسطة فى تبليغه وتنزيله ، وهذه حجة ثانية . ﴿ وهدى ﴾ أى نزله هاديا من الضلالات والبدع التى طرأت على الأديان ، وهذه حجة ثالثة . ﴿ وبشرى للمؤمنين ﴾ فما لكم تتركون هذه البشرى إن كنتم من أهل الايمان ، لأن الذى نزل بها قد نزل بإنذار أهل الفساد والطغيان

أقام الله تعالى الحجج على حماقتهم وسخفهم فى دعوى عداوة جبريل وبيان أنها لا يصح أن تكون مانعة من الايمان بكتاب الله ، ثم بين فى آية أخرى حقيقة حالهم فى هذه العداوة فقال ﴿ من كان عدوا لله ﴾ بكفره بما ينزله من الهداية ﴿ وملائكته ﴾ برفض الحق والخير الذى فطروا عليه ، وكراهة القيام بما يعهد به اليهم ربهم عز وجل ﴿ ورسله ﴾ بتكذيب بعض وقتل بعض ﴿ وجبريل وميكال ﴾ بأن الأول ينزل بالآيات والنذر ، ومن كان عدوا لجبريل فهو عدو لميكال لأن فطرتهما واحدة وحقيقتهما واحدة ﴿ فان الله عدو للكافرين ﴾ أى من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين من الله الذين جعلهم رحمة لخلقه فان الله عدو له ، لأنه كافر بالله ومعاد له ، والله عدو للكافرين أى يعاملهم معاملة الأعداء للاعداء . والعداوة من العبد هى صدور المعاصى منه لله والبغض لأوليائه . والعداوة من الله للعبد هى تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له

﴿ ولقد أنزلنا اليك آيات بينات ﴾ الوحى من الله للنبى يسمى تنزيلا وإنزالا ونزولا ، لبيان علو مرتبة الربوبية ، لا أن هناك نزولا حسيا من مكان مرتفع إلى مكان منخفض . وأما كون آيات القرآن بينات فهى أنها باعجازها البشر ، وبقرن المسائل الاعتقادية ببراهينها ، والأحكام الأدبية والعملية بوجوه منافعها ، لا تحتاج إلى دليل . فهى كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى شىء آخر يظهره ﴿ وما يكفر بها الا الفاسقون ﴾ الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا فى ظلمة

التقليد . وكذا الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسدا لمن ظهر الحق على يديه وعنادا له

﴿ أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ﴾ النبذ طرح الشيء وإلقاؤه ، والمراد بالعهود هنا عهودهم للنبي ﷺ . ولما كان لفظ فريق يوهم العدد القليل وكان الواقع أن الذين كانوا يرون الوفاء له ﷺ قليلين والناقضون هم الأكثرون ، أضرب عنه وقال ﴿ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ فهم لا إيمان لهم أى لا عهود لهم

﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ﴾ تقدم تفسيره فيما سبق الآية ٤١ والآية ٨٩ ﴿ نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ﴾ ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته وإنما المراد أنهم طرحوا جزءا منه وهو ما يبشر بالنبي ﷺ ويأمرهم بالايمان به واتباعه ، أى فهو تشبيه لتركهم إياه وانكاره بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره وترك الجزء منه كتركه كله ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ أى نبذوه نبذ من لا يعلم أنه كتاب الله ، يريد أنهم بالغوا فى تركه وإهماله

﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين ﴾ من الأنس فى قصصها وأساطيرها أو من الجن فى وسوستها أو منهما جميعا على حد قوله تعالى ﴿ شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ قال الطبرى اتبعوا بمعنى فعلوا ومعنى (تتلو) تتقوله وتقرؤه ﴿ على ملك سليمان ﴾ أى ما كانت تتلو على عهده وفى أيام ملكه اذ زعموا أن ملكه قام على أساس السحر والطلسمات وأنه ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام مرضاة لنسائه الوثنيات ﴿ وما كفر سليمان ﴾ وما سحر ﴿ ولكن ﴾ أولئك ﴿ الشياطين ﴾ الذين يسندون اليه ما انتحلوه من السحر وما تلبسوا به من الكفر هم الذين ﴿ كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ ليفتتنوا به العامة ، ويضلوهم عن طلب الأشياء من أسبابها الظاهرة ومناهجها المشروعة .

والسحر فى عرف اللغة هو كل ما لطف مأخذه ، ودق وخفى . وقالوا سحره وسحره بمعنى خدعه .

وقد وصف الله السحر فى القرآن بأنه تخييل يخدع الأعين فيريها ما ليس بكائن كائنا فقال ﴿ يخيل اليهم من سحرهم أنها تسعى ﴾ والسحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون ، فيسمون العمل بها سحراً ، لخفاء سببه ولطف مأخذه . ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الانسانية فى نفس أخرى لمثل هذه العلة .

وقد وكل الله معرفة حقيقة السحر إلى بحث الانسان وانشغاله بالعلم ، لأنه من الأمور الكسبية ، ولو بين مسائلها بالنص القاطع لجاءت مخالفة لعلم الناس واختبارهم فى كل جيل لم يرتق فيه العلم إلى أعلى درجة ، فتكون هداية الله موضع الشك والتكذيب .

﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ أجمل بهذه العبارة الوجيزة خبر قصة كانوا يتحدثون بها ، كما أجمل فى ذكر تعليم السحر فلم يذكر ما هو ؟ ﴿ الملكين ﴾ هاروت وماروت قيل هما رجلان صاحبا وقار وسمت فشبها بالملائكة ، وكان يؤمهما الناس بالحوائج الأهلية . على أنه يمكن أن يراد بما أنزل نفى الانزال خاصة ، أى أن ذلك السحر الذى ينسبونه الى الملكين لم ينزل عليهما إنزالا من الله فينظمه اليهود فى سلك العلوم المحمودة ويزعمونه أنه حق ، وإنما هو شىء افتجراه واختراعاه من عند أنفسهما .

ثم قال ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ أى إن ما عندنا هو أمر يبتلى به الله الناس ويختبرهم ، فلا تتعلم ما هو كفر ، فان أصر علماه ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ أى أنهم كانوا يتعلمون منهم ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين . ولم يبين القرآن حقيقة ذلك العلم لأنه موكول إلى بحث البشر وارتقائهم فى العلم ، ولكنه لم يهمل ما يتعلق بالعقائد وبيان الحق فيها ، ولذلك قال بعد حكاية السحر عنهم ﴿ وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ﴾ أى إذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم إنما ذلك باذن الله ، أى بسبب من الأسباب التى جرت العادة بأن تحصل بها المسببات من ضر أو نفع باذن الله تعالى أى

بقضاء الله الذى سبق له فى علم الله أنه يضره ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ يضرهم لأنه سبب فى الاضرار بالناس ، وهو محرم يعاقب الله عليه ، ولما كان الضرر أكبر من النفع نفى النفع وقال لا ينفعهم . واننا نرى منتحلى السحر وما فى معناه أفقر الناس وأحقرهم ، ولو عقل السفهاء الذين يختلفون اليهم يلتمسون المنافع لأنفسهم والإيقاع باعدائهم لعلموا أن الشقى فى نفسه لا يمكن أن يهب السعادة لغيره

﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ﴾ أى أنهم يعلمون أن من اختار هذا واستبدله بما آتاه الله من أصول الدين الحق الموصل الى سعادة الدنيا والآخرة فليس له نصيب فى نعيم الآخرة من أجل أنه لم يكن له إيمان ولا دين ولا عمل صالح يجازى به فى الجنة ويثاب عليه ليكون له نصيب فى الاخرة أى لا نصيب لهم فيها من الخيرات وأما من الشرور فأن لهم فيها نصيبا ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ أى باعوها ، أى وبالله لبئسما باعوا به أنفسهم السحر والكفر ، فقد عرضوا أنفسهم للهلكة وباعوها بما لا يزيدهم إلا خسارا لو كانوا يعلمون علما صحيحاً .

﴿ ولو انهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير ﴾ أى لو آمنوا بكتابهم إيمانا حقيقيا ومنه البشارة بالنبى ﷺ والأمر باتباعه واتقوا بالعمل به والمحافظة على حدوده لكان ثواب الله لهم خيرا لهم من جميع ما توهموه فى المخالفة من المنافع ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ علما صحيحا يظهر أثره فى أعمالهم ، ولآمنوا بالنبى عليه السلام واتبعوه فكانوا من المفلحين .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ﴾ نهاهم الله تعالى عن كلمة كانوا يقولونها ، وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ما كانوا يريدونه منها . فكلمة « انظرنا » تفيد معنى كلمة « راعنا » فان فيها الانظار والامهال ، وفيها معنى المراقبة وهو ما يستفاد من النظر بالعين . أذن الله تعالى لهم بهذه الكلمة « انظرنا » ، وأمرهم بالسماع للنبى عليه السلام ليعوا عنه ما يقول من الدين . وهو أمر يتضمن الطاعة والاستجابة ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ وان سوء الأدب فى خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذى يعذب عليه الانسان العذاب الموجع أشد الايجاع

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ الود محبة الشيء وتمنى وقوعه ، ونفيه بمعنى الكراهة ، والمعنى : ما يحب الذين كفروا من اليهود والنصارى ولا المشركين أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم . والمقصود بالخير هو الكتاب والنبوة وفيهما سعادة الدارين ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أسند كلا من هذين الأمرين (الرحمة والفضل) الى الذات الأعظم لأنهما حقه لذاته فليس لأحد من عبيده أدنى تأثير فى منحهما ولا فى منعهما

﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ النسخ معناه الترك ، وفيه المعنى الآخر هو الازالة . والمراد هنا بنسخ الآية أى نسخ حكم الآية ، وهو عام يشمل نسخ الحكم وحده ونسخه مع التلاوة . والمعنى : ما ننسخ من آية أى نبدلها إما بأن نترك حكمها فقط أو تلاوتها فقط أو نبدلها . وأما قوله تعالى ﴿ أو ننسها ﴾ فالمراد بتركها كما كان فلا نبدلها . وحاصل الآية أن الذى نبدله فأنا نأتى بخير منه أو مثله .

﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أى أنه لا يستنكر على الله كما زعم اليهود لأنه مما تناله قدرته . والمعنى ألم تعلم يا محمد أنى قادر على تعويضك مما نسخت من أحكامى وغيرته من فرائضى التى كنت افترضتها عليك ما أشاء مما هو خير لك ولعبادى المؤمنين معك وأنفع لك ولهم إما عاجلا فى الدنيا وإما آجلا فى الآخرة ، أو بأن أبدل لك ولهم مكانه مثله فى النفع لهم عاجلا فى الدنيا وآجلا فى الآخرة وشبيهه فى الخفة عليك وعليهم ، فاعلم يا محمد أنى على ذلك وعلى كل شيء قدير . ومعنى قوله قدير فى هذا الموضع قوى ، يقال منه قد قدرت على كذا وكذا اذا قويت عليه

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ

الكتب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير (١٠٩) وأقيموا الصلوة وءاتوا الزكوة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير (١١٠) وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصرى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صدقين (١١١) بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١١٢) وقالت اليهود ليست النصرى على شيء وقالت النصرى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون (١١٣) ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم (١١٤) ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم (١١٥)

التفسير

﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ والخطاب في « تعلم » للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد به غيره من المؤمنين الذين ربما كانوا يمتعضون من كلام اليهود وغيرهم المعترضين على النسخ . وتوجيه الكلام الى شخص يراد به غيره شائع في كلام العرب والمولدين ، ولذلك قال بعض العلماء : نزل القرآن على طريق قولهم « إياك أعني

واسمعى يا جارة » . واذا كان هذا الملك العظيم لله وحده يتصرف فيه بالايجاد والاختراع ونفوذ الأمر فى جميع مخلوقاته ، فهو أعلم بمصالح عباده ، وما فيه النفع لهم من أحكامه التى تعبدهم بها وشرعها لهم

وقد يختلف ذلك باختلاف الاحوال والازمنة والأشخاص . فلا شك أنه لا يعجزه أن ينسخ حكما من الأحكام ﴿ وما لكم من الله من ولى ولا نصير ﴾ أى أن وليكم وناصركم هو الله وحده ، فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾ والمعنى هنا أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تبرما وإعناتا ؟ حيث سألوه أن يريهم الله جهرة ، وسألوا محمداً ﷺ أن يأتى بالله والملائكة قبيلا . . . يحذر المسلمين ما فعل أولئك ، وقد أتبع التحذير بالوعيد فقال ﴿ ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ أى أن ترك الآيات الموجودة والأعراض عنها لاعنات النبى بسؤال غيرها لتكون بدلا منها هو اختيار الكفر على الايمان ، واستحباب العمى على الهدى . وتبدل وبدّل واستبدل يدل على جعل الشىء فى موضع آخر . قال الأستاذ الشيخ محمد عبده : إن سياق الآيات فى نسخ الآيات ونسيانها وما جاء بعدها لا يلتئم مع تفسير المفسرين ، والمعنى الصحيح الذى يلتئم مع السياق أن الآية هنا هى ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم ، أى ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ نقيمها دليلا على نبوة نبى من الأنبياء أى ننزلها ونترك تأييد نبى آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها ، فاتنا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف فى الملك نأتى بخير منها فى قوة الاقناع واثبات النبوة أو مثلها فى ذلك . ومن كان هذا شأنه فى قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه . والآية فى أصل اللغة هى الدليل والحجة والعلامة على صحة الشىء ، وسميت جمل القرآن آيات لأنها باعجازها حجج على صدق النبى ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحى من الله عز وجل من قبيل تسمية الخاص باسم العام .

﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ والمراد بسواء السبيل الحق والخير اللذان تكمل الفطرة بالاستقامة على السير فى طريقهما ومن مال عن الحق وقع فى الباطل لا محالة . والسواء :

الوسط من كل شيء . وقيل القصد . اى ذهب عن قصد الطريق وسمته ، أى طريق طاعة الله . ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ﴾ فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الاسلام ، فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفارا كما كانوا ، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به .

وفائدة هذا التنبيه أو التنبيهات أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحيانا من إلقاء الشبه على الاسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو مكر السوء يبعث عليه الحسد لا النصح الذى يبعث عليه الاعتقاد . وقال ﴿ حسدا من عند أنفسهم ﴾ ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية ، وإنما هو خبث النفوس وفساد الاخلاق والجمود على الباطل وان ظهر لصاحبه الحق ، ولذلك قفاه بقوله ﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ أى بالآيات التى جاء بها النبى عليه الصلاة والسلام ، وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبى آخر الزمان عليه .

﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ أى عاملوا الناس بالصفح والعفو ، فان هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين . وفيه إشارة الى أن الله وضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء ، لأن الصفح لا يكون إلا من القوى إيذانا بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية ، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم ﴿ حتى يأتى الله بأمره ﴾ فوعدهم بأنه سيمدهم بمعونته ويؤيدهم بنصره . أى افعلوا ذلك إلى أن يأتى اليكم الأمر من الله سبحانه فى شأنهم بما يختاره ويشاؤه وما قد قضى به فى سابق علمه ، وهو قتل من قتل منهم ، وإجلاء من أجلى ، وضرب الجزية على من ضربت عليه وإسلام من أسلم ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ وقدرته هى النافذة التى لا يشذ عنها شيء فى العالمين . ومعنى الآية ههنا : ان الله على كل ما يشاء بالذين وصفت من أمرهم من أهل الكتاب وغيرهم قدير إن شاء الانتقام منهم بعنادهم ربهم ، وإن شاء هداهم لما هداكم الله له من الايمان ، لا يتعذر عليه شيء أراده ، ولا يتعذر عليه أمر شاء قضاءه ، لأن له

الخلق والأمر ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . وإقامة الصلاة إنما هى عبارة عن القيام بحقوقها الروحية فى صورتها العملية ، وذلك باشعار القلب عظمة الله وكبرياءه ، فبهذا الشعور ينمو الايمان وتقوى الثقة بالله وتتنزه النفس أن تأتى الفواحش والمنكرات ، فنفوس المصلين جديرة بالنصر لما تعطيه الصلاة من القوة المعنوية ، ومن الثقة بقدرة الله تعالى .

وقد مضت سنة القرآن بقرن الزكاة بالصلاة ، لأن الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد والزكاة لاصلاح شئون الاجتماع . ثم فيها من معنى العبادة مافى الصلاة ، فان المال كما يقولون شقيق الروح ، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله تعالى كان بذله مزيدا فى إيمانه ، فهى إصلاح روحى أيضا ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ قوله تعالى « تجدوه » هو كقوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » وقالوا : ان المراد أنه يرى ويجد جزاءه ، ولكن لما كان الجزاء مبنيا على أثر العمل فى نفس العامل وارتقائها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه . ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الاحسان فيه ويدل على تحققه فقال ﴿ ان الله بما تعملون بصير ﴾ فلا يخفى عليه منه شىء فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئا ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ وهو عطف على قوله ﴿ ود كثير من أهل الكتاب ﴾ أى قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى كذلك فى أنفسهم ، وهذه عقيدة الفريقين الى اليوم ، وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة لهم عليه فى كتبهم المنزلة فقال ﴿ تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ والامانى جمع أمنية وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه . ثم طالبهم تعالى بالبرهان على صدق دعواهم ، فقرر لنا قاعدة لا توجد فى غير القرآن من الكتب السماوية وهى أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه ، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها .

قال الله ردا عليهم ﴿ بلى ﴾ وهى كلمة تذكر فى الجواب لاثبات نفى سابق فهى

مبطلة لقولهم ﴿ لن يدخل الجنة ﴾ الخ أى بلى إنه يدخلهـا من لم يكن هودا ولا نصارى ، وان رحمة الله مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لهـا ، وهو ما بينه سبحانه وتعالى بقوله ﴿ من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ﴾ إسلام الوجه لله هو التوجه اليه وحده ، وتخصيصه بالعبادة دون سواه ، والاحسان فى دار المقامة . قيده تعالى باحسان العمل الذى يكون عليه الأجر ، وتلك سنة القرآن : تقرن الايمان بعمل الصالحات لقوله تعالى ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾ وهذا فى معنى الآيات التى يفسرها نفى أمانى المسلمين كما نفى أمانى أهل الكتاب ، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطا بالايمـان والعمل الصالح معا . والمعنى : بلى من أخلص طاعته لله وعبادته له محسنا فى فعله فله جزاؤه وثوابه عند الله

ثم بعد أن أثبت للمسلم وجهه الى الله وهو المحسن فى عمله الآخر عند الله نفى عنه الخوف فقال ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، ولا شك أن المخـاوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية ، وأساءوا أعمالهم بالاعراض عن الهداية الدينية .

﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ﴾ من الدين حقيقى يعتد به ، فالشىء فى اللغة هو الموجود المتحقق ﴿ وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ﴾ من الدين حقيقى يعتد به ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ أى يتلو كل منهم كتابه ، فكتاب الأولين (التوراة) يبشر برسول منهم ظهر وهو (عيسى عليه السلام) ولكنهم لم يؤمنوا به فهم مخالفون لكتابهم ، وكتاب الآخرين (الانجيل) يقول بلسان المسيح انه جاء متمما لناموس موسى لا ناقضا له ، وهم قد نقضوه : ترك بعضهم أوله ، وبعضهم آخره ، فلم يؤمن به كله أحد منهم . والكتاب الذى يقرأون حجة عليهم ﴿ كذلك ﴾ نحو ذلك السخف والخسران ﴿ قال الذين لا يعلمون ﴾ من مشركى العرب وغيرهم من أهل الملل ﴿ مثل قولهم ﴾ فيغضب كل لملته التى جعلها جنسيته وزعم أنها هى المنجية

﴿ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فانه هو العليم بما عليه كل فريق من حق وباطل ، وهو الذى يحق الحق ويجعل أهله فى النعيم ، ويبطل الباطل وياق باهله فى الجحيم ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ﴾ والمعنى لا أحد أظلم . وقيل المساجد هنا بيت المقدس ومحاريبه ، وقيل الكعبة . وجمعت لأنها قبلة المساجد ، أو للتعظيم . وقيل المراد سائر المساجد . والآية ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح ، وبتحريم السعى فى خراب المعابد ، وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون فى خرابها - أى هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها - بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من استفهام الانكار ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ وهذا خبر من الله عز وجل عمن منع مساجد الله أن يذكر فيه اسمه ، قد حرم عليهم دخول المساجد التى سعوا فى تخريبها ومنعوا عباد الله المؤمنين من ذكر الله عز وجل فيها ماداموا على مناصبة الحرب إلا على خوف ووجل من العقوبة على دخولهم بها . أى فكيف يدخلونها مفسدين ومخربين ، لذلك توعد الله تعالى أولئك المعتدين الظالمين بقوله ﴿ لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ فأما خزى الدنيا فهو ما يقتضيه الظلم من فساد العمران المفضى الى الذل والهوان ، ويعنى بالخزى العار والشر والذلة : إما القتل والسباء ، وإما الذلة والصغار بأداء الجزية . وعذاب الآخرة فالله أعلم به ، ونحن بوعده ووعيده من المؤمنين .

﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ المراد بالمشرق والمغرب الأرض كلها ، لأنهما ناحيتاها .

﴿ فاينما تولوا فثم وجه الله ﴾ أى أىّ مكان تستقبلون فى صلاتكم فهناك وجه القبلة التى أمر الله بأن يتوجه اليها ، والمراد على كل حال أية جهة استقبلت وتوجهت اليها فى صلاتك فأنت متوجه الى الله تعالى لأن كل الجهات له ﴿ ان الله واسع ﴾ لا يتحدد ولا يحصر ، فيصح أن يتوجه اليه فى كل مكان فهو يسع خلقه كلهم بالكفاية والافضال والجود والتدبير ﴿ عليم ﴾ بالمتوجه اليه أينما كان . أى فاقصد الله حيثما كنت ، وتوجه

اليه أينما حللت ، ولا تتقيد بالأمكنة فإن معبودك غير مقيد ، عليم بأفعال عباده لا يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم .

وهذه الآية تثبت لنا قاعدة من أهم قواعد الاعتقاد وهى أن الله تعالى لا تحدده الجهات ، ولا تحصره الأمكنة ، ولا يتقرب اليه بالبقاع والمعابد ، ولا تنحصر عبادته فى الهياكل والمساجد ، وانما ذلك الوعيد لانتهاك حرمات الله وإبطال نوع من أنواع عبادته وهو العبادة الاجتماعية التى يجتمع لها الناس فى أشرف المعابد على خير الأعمال التى تطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وإذا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

التفسير

﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا ﴾ ان الله تعالى أخبرنا فى موضع من كتابه بان اليهود قالت : عزير ابن الله ، وان النصارى قالت : المسيح ابن الله . وان المشركين قالوا : ان الملائكة بنات الله ، ثم رد على مدعى اتخاذ الولد بقوله ﴿ سبحانه بل له مافى السموات والارض كل له قانتون ﴾ نزه تعالى نفسه بكلمة « سبحانه » التى تفيد التنزيه مع التعجب مما ينافى أن جميع مافى السموات والارض ملك له قانت لعزته وجلاله اى خاضع لقهره مسخر لمشيئته ، ولا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب اليه ، وجعله ولدا مجانسا له ، وقد يختص الله سبحانه من شاء بما شاء كما اختص الأنبياء بالوحى ، ولكن هذا التخصيص لا يرتقى بالمخلوق الى مرتبة الخالق

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ البديع بمعنى المبدع . وقالوا إن الابداع هو ايجاد الشىء بصورة مخترعة على غير مثال سبق ، وإذا كان هو المبدع للسموات والأرض والمخترع لهما والموجد لجميع ما فيهما فكيف يصح أن ينسب اليه شىء منهما على أنه جنس له ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿ وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ فمعناه إذا أراد إيجاد أمر وإحداثه إنما يأمره أن يكون موجودا فيكون موجودا ، فكن ويكون من « كان » التامة . وذهب بعضهم إلى أن أمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه الى الموجود ، أو المراد به جعله موجوداً دائما توجه اليه لأنه معلوم ، فالله تعالى يعلم الشىء قبل وجوده وأنه سيوجد فى وقت كذا فتتعلق ارادته بوجوده على حسب مافى علمه فيوجد ، وشيخ الإسلام ابن تيمية يسميه « الأمر القدرى الكونى » وإذا كان الله تعالى هو المبدع لجميع الكائنات وهى بأسرها ملكه ومسخرة لإرادته فلا معنى لأضافة الولد اليه

﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ أى الجاهلون بالكتاب والشرائع من مشركى العرب : ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ كما كلم الله هذا الرسول مع أنه بشر مثلنا ﴿ أو تأتينا آية ﴾ من الآيات التى اقترحناها ، يعنون ما حكاه الله تعالى عنهم بمثل قوله :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ الآيات ﴿ كذلك قال الذين خلوا من قبلهم مثل قولهم ﴾ أى مثل هذا القول ، قال الكفار الذين أرسل الله اليهم الرسل من قبلهم فى معناه ، وهو أنهم أنكروا على الرسل الاختصاص بالوحى من دونهم واقترحوا عليهم الآيات تعنتا وعنادا ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ لأن الطغيان قد ساوى بينهم حتى كأنهم تواصوا به . والتشابه هنا هو فى مكابرة الحق واستبعاد كون واحد من البشر رسولا يوحى اليه واقتراح الآيات تعنتا وعنادا .

﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ أى اننا لم ندعك يا محمد بغير آية ، بل بينا الآيات بيانا لا يدع للريب طريقا إلى نفس من يعقلها ، وقد قال ﴿ بينا الآيات ﴾ ولم يقل أعطيناك الآيات للتفرقة والفصل بين آيات القرآن التى هى من علم الله وكلامه ليظهر بها الحق بطريق معقول بين لا يشتبه فيه الفهم ولا يحار فيه الذهن ، وبين الآيات الكونية التى هى من صنعه يستخذى لها العقل ويخضع لها الشعور بأنها من قوة فوق قوته ـ وأن الآيات العلمية لا يعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين ولذلك قال ﴿ لقوم يوقنون ﴾ وهم الذين خلصت نفوسهم من كل رأى وتقليد ، وتوجهوا إلى طلب الحق فى الأمور الاعتقادية ، وأخذوا على أنفسهم العهد أن يطلبوه بدليله وبرهانه ، فهم إذا قام عندهم البرهان اعتقدوا وأيقنوا إيقانا . ثم قال ﴿ إنا ارسلناك بالحق ﴾ أى إنا أرسلناك بالعقائد الحقة المطابقة للواقع ، والشرائع الصحيحة إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿ بشيرا ﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين ﴿ ونذيراً ﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزى الآخرة ﴿ ولا تسئل عن أصحاب الجحيم ﴾ أى فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم ، لأنك لم تبعث ملزما لهم ، ولا جبارا عليهم ، فيعد عدم إيمانهم تقصيرا منك تسئل عنه ، بل بعثت معلما وهاديا بالبيان والدعوة وحسن الأسوة ، لا هاديا بالفعل ولا ملزما بالقوة .

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ ومعناه أن اليهود والنصارى على اتحادهم فى أصل الدين قد تغضب لتقاليده . ومن اتخذ الدين جنسية لا يرضيه

من أحد شيء إلا الدخول فيها وقبول لقبها ، فقوله تعالى ﴿ حتى تتبع ملتهم ﴾ مراد به ما هم عليه من التقاليد والأهواء التى غيروا بها وجه الدين الواحد حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض كما تقدم فى الآيات السابقة . ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ أى اجهر بقول الحق ، وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذى أنزله على أنبيائه ، دون ما أضافه اليه اليهود والنصارى بآرائهم وأهوائهم ، ففرقوا دينهم ، وكانوا شيعا كل شيعة تكفر الاخرى وتقول إنها ليست على شيء . أى فان أردت استرضاءهم فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ التى أضافوها على كتبهم وجعلوها أصولا وفروعا لدينهم ﴿ بعد الذى جاءك من العلم ﴾ اليقين بالوحى الإلهى المبين الذى بين ما كان منهم مما ذكر ﴿ مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾ أى فانك لن تنجح ولن تصل إلى حقك بمجاراتهم على باطلهم ، لأن الله لا ينصرك على ذلك . ومن المعلوم أن شرط إن لا يقتضى الوقوع ، فهو لا يدل على أن اتباع أهوائهم متوقع منه ﷺ ، وإنما هو فرض فرض لبيان مضمونه الذى ذكرنا ، وفيه أن من سنن الله تأييد متبعى الهدى على علم صحيح ، وأنهم هم الغالبون المنصورون ، وهو ما يعبر عنه علماء الاجتماع ببقاء الأمثل فى كل تنازع بينه وبين ما دونه

إن الله يخاطب الناس كافة فى شخص النبى ﷺ ، فهو يرشدنا بهذا التهديد العظيم إلى الصدع بالحق والانتصار له وعدم المبالاة بمن يخالفه - مهما قوى حزبهم واشتد أمرهم - فمن عرف الحق وعرف أن الله تعالى ولى أهله وناصرهم لا يخاف فى تأييده لومة لائم .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى وهم ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ : أى يعملون بما فيه فيحللون حلاله ويحرمون حرامه فيكون من تلاه يتلوه إذا تبعه ، ومنه قوله ﴿ والقمر اذا تلاها ﴾ أى اتبعها . كذا قيل . ومن المحتمل أن يكون من التلاوة أى يقرأونه حق قراءته ، ويفهمون أسراره ويفقهون حكمة تشريعه وفائدة نوط التكليف به ، لا يتقيدون فى ذلك بآراء من سبقهم فيه ولا بتحريفهم كلمه عن مواضعه ﴿ أولئك ﴾ هم الذين يقدرون ما جئت به من الترقى فى الدين

﴿ يؤمنون به ﴾ أى يصدقون به بعد العلم بأنه الحق ﴿ ومن يكفر به ﴾ أى بالكتاب ويجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد ﷺ وتصديقه ويبدله ويحرف تأويله من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين وهم الأكثرون ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ لسعادة الدارين ، المحرومون مما يكون للمؤمنين من المجد والسيادة

وجملة القول أن الذى يتلو الكتاب لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا ، فلا حظ له من الإيمان بالكتاب ، لأنه لا يفهم أسراره ، ولا يعرف هداية الله فيه . وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية وإن كان القارىء يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها ، وإنما الفهم فهم التصديق والاذعان ، فمن يتدبر الكتاب ينبغى له أن يتدبره مستهديا ومسترشدا وعاملا ملاحظاً أنه مخاطب به من الله تعالى ليأخذ به فيهتدى ويرشد . وقد ورد فى الحديث « القرآن حجة لك أو عليك » فإن اتبعت هدايته ساقك إلى الجنة ، وإن أعرضت عن هدايته ساقك إلى النار ولو تلوته آناء الليل وأطراف النهار

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣) وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ

بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير

التفسير

﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ وقد سبق التذكير بهذه النعمة فى أول المحاجة ، ثم أعيد هنا للمناسبة الظاهرة ، وهى أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به ، وذكرهم بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بإيتائه الكتاب أن يكون حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفارا ، وهذه الآية تمهيد لما بعدها وهو فذلكة القصة والمقصود من إقامة الحجة ، ذلك قوله تعالى ﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الإعراض عن فهم كتاب الله بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه وأنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن تفهموا وتتدبروا ، فانه يوم لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئا ﴿ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ﴾ وكانوا يعتقدون بالمكفرات تؤخذ عدلا أى (فداء) عما فرطوا فيه بشفاعة أنبيائهم ، فأخبرهم الله تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه شيء آخر ، ثم قطع حبل رجائهم من كل ناصر ينصرهم فقال ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أى أنه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين ولا من غيرهما ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ إن الكلام فى هذه الآية موجه إلى مشركى العرب ، ووجه الاتصال بينها وبين ما قبلها أن ذلك كان يتضمن الاحتجاج على أهل الكتاب بسلفهم الصالح ، وهذا يتضمن الاحتجاج على مشركى قريش وأمثالهم بسلفهم الصالح ، فانهم ينتسبون إلى إسماعيل وابراهيم ويفتخرون بأنهما بنيا لهم الكعبة معبدهم الأكبر ، وكانوا فى عهد التنزيل قد اختلطوا بالأمم المجاورة التى تعرف لهم هذا النسب ﴿ وإذ ﴾ بمعنى

واذكر لأهل الكتاب ولقومك وغيرهم اذ ﴿ابتلى ابراهيم ربه﴾ ابتلى أى اختبر ، ﴿كلمات﴾ جمع كلمة ، والمراد هنا مضمونها من أمر ونهى - والمراد من الآية أن الله تعالى عامل ابراهيم عليه السلام معاملة المبتلى أى المختبر له لتظهر حقيقة حاله ويترتب عليها ما هو اثر لها ، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله باتمامه ما كلفه الله تعالى إياه وإتيانه به على وجه الكمال .

﴿قال انى جاعلك للناس إماما﴾ الامامة هنا بمعنى الرسالة ، وقد تحققت إمامته للناس بدعوته إياهم إلى التوحيد الخالص . وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم ، فقام على عهده بالحنيفية ، وهى الايمان بتوحيد الله والبراءة من الشرك . وتسلسل ذلك فى ذريته خاصة فلم ينقطع دين التوحيد ، ولذلك وصف الله الاسلام بأنه ملة إبراهيم ﴿قال ومن ذريتى﴾ أى قال ابراهيم واجعل من ذريتى أئمة للناس ، وقد راعى الأدب فى طلبه فلم يطلب الامامة لجميع ذريته بل اقتصر على بعضها لأنه الممكن .

وبماذا أجاب الله ابراهيم حين دعاه هذا الدعاء ؟ ﴿قال لا ينال عهدى الظالمين﴾ أى إننى أعطيك ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ، ولكن عهدى بالامامة لا ينال الظالمين لأنهم ليسوا بأهل لأن يقتدى بهم ، ففى العبارة من الايجاز ما يناسب ما قبلها ، وانما اكتفى فى الجواب بذكر المانع من منصب الامامة مطلقا وهو الظلم بتنفير ذرية ابراهيم من الظلم وتبغيضه اليهم ليتحاموه وينشئوا أولادهم على كراهيته ، ولتنفير الناس من الظالمين وترغيبهم عن الاقتداء بهم .

﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ والمعنى واذكر أيها الرسول - أو أيها الناس - إذ جعلنا البيت الحرام بمكة مثابة للناس وأمنا ، أى ذا أمن بأن خلقنا بما لنا من القدرة فى قلوب الناس من الميل إلى حجه والرحلة اليه المرة بعد المرة من كل فج وصوب ما كان به مثابة لهم ، ومن احترامه وتعظيمه وعدم سفك دم فيه ما كان به أمنا . ولفظ « البيت » من الأعلام الغالبة على بيت الله الحرام ﴿واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى﴾ ومقام اسم مكان من القيام ، قال بعضهم إنه الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء الكعبة ، وقال آخرون إنه الحرم كله ، والمراد بالمصلى موضع

الصلاة بمعناها اللغوى العام وهو الدعاء والتوجه إلى الله تعالى وعبادته مطلقا

﴿ وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى ﴾ الخ عهد اليه بالشىء وصاه به ، والمراد أن الله كلفهما أن يطهرا ذلك المكان الذى نسبه اليه وسماه بيته لأنه جعله معبدا يعبد فيه العبادة الصحيحة ، ولم يذكر ما يجب أن يطهراه منه ليشتمل جميع الرجس الحسى والمعنوى كالشرك وأصنامه واللغو والرفث والتنازع . وقوله تعالى

﴿ للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ بين لنا أن ابراهيم واسماعيل طهراه بأمره لأداء نوع من العبادات فيه كالطواف حول الكعبة ، وفى معناه السعى بين الصفا والمروة ، و« العاكفين » المقيمين به ، والعكوف فى المسجد والركوع والسجود وهما من أعمال الصلاة ، والركع السجود جمع الراكع والساجد ، والآية تدل على أن ابراهيم كان مأمورا هو ومن آمن به بهذه العبادات

﴿ واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا ﴾ والمعنى ظاهر ، وهو أن يكون محفوظا من الأعداء الذين يقصدون السوء ، أى من يكون فيه يكون آمنا ممن يسطو عليه فيظلمه أو ينتقم منه ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ فالثمرات تجمع من حيث تكون وتساق الى مكة . وقد خص ابراهيم بدعائه المؤمنين كما هو اللائق به ، ولكن الله واسع الرحمة ، وقد جعل رزق الدنيا عاما للمؤمن والكافر ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾

﴿ قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ أى وأرزق من كفر أيضا فأمتعه بهذا الرزق قليلا - وهو مدة وجوده فى الدنيا - ثم أسوقه إلى عذاب النار وبئست النهاية والخاتمة .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً

منهم يتلو عليهم ءايتك ويعلمهم الكتب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم (١٢٩) ومن يرغب عن ملة إبرهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصلحين (١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العلمين (١٣١)

التفسير

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ ظاهر فى أنهما هما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالى فى تلك البلاد الوثنية - وقد ذكر القصاصون روايات كثيرة نضرب عنها صفحا . و (القواعد) - وهى جمع قاعدة - وهى ما يعقد القوم عليه البناء من الأساس أو من الساقات . ورفعها إعلاء البناء عليها أو إعلاؤها نفسها و « من » للبيان ، وعليه يكون البيت بمعنى نفس البناء والجدران ، وتقديم إبراهيم عليه السلام الالماع الى كون المأمور من الله ببناء البيت هو إبراهيم ، وإنما كان إسماعيل مساعدا له ، وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة ، ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ الخ دعاء وبيان لحالهما وقتئذ ، وتقبل الله العمل قبله ورضى به ﴿ إنك أنت السميع ﴾ لأقوالنا ﴿ العليم ﴾ بأعمالنا ونيتنا فيها ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ المسلم والمستسلم واحد وهو المنقاد الخاضع ، والمراد بالكلمة ما يشمل التوحيد والاخلاص لله تعالى فى الاعتقاد والعمل جميعا . دعا هذان النبيان العظيمان لانفسهما بحقيقة الاسلام أى واجعلنا مستسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك لا نشرك معك فى الطاعة أحداً سواك ، ولا فى العبادة غيرك . ثم دعوا بذلك لذريتهما فقالا ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ أى واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك كاسلامنا ليستمر الإسلام لك بقوة الأمة وتعاون الجماعة . وقد استجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وولده اسماعيل

عليهما السلام ، وجعل فى ذريتهما أمة الاسلام وبعث فيها منهـا خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أى علمنا إياها علما يكون كالرؤية البصرية فى الجلاء والوضوح . والمناسك جمع منسك ومعناه غاية العبادة . وهو الموضع الذى ينسك منه فيه ويتقرب اليه فيه بما يرضيه من عمل صالح إما بذبح ذبيحة له ، واما بصلاة أو طواف أو سعى أو غير ذلك من الأعمال الصالحة . وأصل المنسك فى كلام العرب الموضع الذى يعتاده الرجل ويألفه ، ولذلك سميت المناسك مناسك لانها تعتاد ويتردد عليها بالحج والعمرة وبالاعمال التى يتقرب بها الى الله وأغلب استعمال النسك فى عبادة الحج خاصة ، والمناسك فى أفعاله وأعماله ﴿ وتب علينا ﴾ أى وفقنا للتوبة لنتوب ونرجع اليك من كل حال أو عمل يشغلنا عنك ، أو المعنى أقبل توبتنا ﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾ أى إنك أنت وحدك الكثير التوب على عبادك ، وإن كثر تحولهم عن سبيلك بتوفيقهم للتوبة اليك وقبول توبتهم منهم الرحيم ، بالتائبين المستنقذ من تشاء منهم رحمتك من هلكته ، المنجى من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك . ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ أى من أنفسهم . وقد أجاب الله تعالى هذه الدعوة بخاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ كما ورد فى حديث أحمد « أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى » الخ ووصف هذا الرسول بقوله ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ الدالة على صدق رسلك إلى خلقك ، فالمراد بالآيات : الآيات الكونية والعقلية ، وتلاوتها ذكرها المرة بعد المرة لترسخ فى النفس وتؤثر فى القلب . أى يقرأ عليهم كتابك الذى توحيه اليه

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ فسروا الكتاب بالقرآن والحكمة بالسنة . وفيه وجه ثان وهو المراد بالكتاب مصدر كتب يقال : كتب كتابا وكتابة ، وإنما الدعاء لأمة أمية لا بد فى إصلاحها وتهذيبها من تعليمها الكتابة ، وقد كانت الأمم المجاورة لها من أهل الكتاب فلا يتيسر لها اللحاق بها أو سبقها حتى تكون من الكاتبين مثلها . وأما الحكمة فهى فى كل شىء معرفة سره وفائدته ، والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ، وقد بين النبى ﷺ ذلك بسيرته فى المسلمين وما فيها من الفقه فى الدين . ﴿ ويزكيهم ﴾ أى يطهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة ، وينزع منها تلك

العادات الرديئة ، أى يطهرها من الشرك وسائر المعاصى ويعودها الأعمال الحسنة التى تطبع فى النفوس ملكات الخير ، ويبغض اليها الأعمال القبيحة التى تغريها بالشر

﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ العزيز : هو الغالب على أمره فلا ينال بضيم ولا يغلب على أمر ، والحكيم : هو الذى يضع الأشياء أحسن وضع ، ويحسن الصنع

﴿ ولا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ أى امتهنها واستخف بها كانه تعالى يقول : هذه ملة أبيكم إبراهيم الذى تنتسبون اليه وتفخرون به ، فكيف ترغبون عنها ، أى تبتعدون عنها وتنتحلون لأنفسكم أولياء لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا نشورا لا بالذات ولا بالواسطة . ومعنى الكلام : وما يرغب عن ملة ابراهيم الحنيفية المسلمة إلا سفيه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها ويضرها فى معادها ﴿ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ﴾ أى اخترناه واجتبيناه لهذه الملة فجعلناه إماما للناس وجعلنا فى ذريته الكتاب والنبوة ، ففى ذلك أوضح بيان من الله سبحانه عن أن من خالفه فهو لله عدو لمخالفته الأمام الذى نصبه الله لعباده . ﴿ وانه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ لجوار الله بعمله بهذه الملة ودعوته اليها وارشاده الناس لها . والصالح من بنى آدم هو المؤدى حقوق الله عليه ، فاخبر سبحانه عن ابراهيم خليله أنه فى الدنيا صفى وفى الآخرة ولى وأنه وارد مورد أوليائه الموفين بعهده ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ أى اصطفاه إذ دعاه إلى الاسلام بما أراه من آياته ونصب له من بيناته ، فأجاب الدعوة . والمعنى أى أذعن وأطع . وقيل اثبت على ما أنت عليه من الاسلام والاخلاص واستقم وفوض أمورك إلى الله تعالى . وإضافة الرب فى جوابه عليه السلام إلى العالمين للايذان بكمال قوة إسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به ، أى خضعت بالطاعة وأخلصت العبادة لمالك جميع الخلائق ومدبرها دون غيره

وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ

إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)

التفسير

﴿ ووصى بها ﴾ ووصى بهذه الكلمة ، أعنى بالكلمة قوله « أسلمت لرب العالمين » وهى الاسلام الذى أمر به نبيه ﷺ وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح له ، أى بالملة أو الخصلة التى ذكرت أخيرا ﴿ إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ بنيه أيضا إذ قال كل منهما لولده ﴿ يا بنى أن الله اصطفى لكم الدين ﴾ أى اختاره لكم بهدايتكم اليه وجعل الوحى فيكم ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أى فحافظوا على الاسلام لله والاخلاص فى الانقياد اليه بحيث لا تتركوا ذلك لحظة لئلا تموتوا فيها فتموتوا غير مسلمين . أى فاتقوا الله ولا تموتن الا وأنتم مسلمون . ويتضمن هذا النهى إرشاد من كان منحرفا عن الاسلام الى عدم اليأس وأن يبادر بالرجوع اليه والاعتصام بحبله لئلا يموت على غيره

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ﴾

ومعناه أكنتم غائبين أم كنتم شهداء إذ احتضر يعقوب فسأل بنيه عما يعبدون من بعده - سؤال تقرير ليشهدوه على أنفسهم بالتوحيد الخالص ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق ﴾ عرّفوا الإله بالاضافة إلى آبائه لأنهم هم الذين انفردوا بعبادة رب العالمين خالق السموات والأرض وحده، ودعوا الأمم الى ذلك فى وقت فشت فيه عبادة آلهة كثيرين من الكواكب والأصنام والحيوانات وغيرها. وإسماعيل عم يعقوب، ذكر مع آبائه للتغليب أو لتشبيه العم بالأب كما فى حديث «عم الرجل صنو أبيه» والجمع بين الحقيقة والمجاز جائز يكثر فى القرآن ﴿ إلها واحدا ﴾ أى نعبده حال كونه إلها واحدا لا نشرك معه أحدا بدعاء ولا توجه فى قضاء حاجة ولا غير ذلك من العبادات ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى والحال أننا نحن منقادون مذعنون مستسلمون له وحده دون غيره.

هذه آيات نزلت تكذيبا من الله سبحانه لليهود والنصارى فى دعواهم وابراهيم وولده يعقوب أنهم كانوا على ملتهم. فقال لهم فى هذه الآية أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت فتعلموا ما قال لولده وقال له ولده. ثم اعلمهم ما قال لهم وما قالوا له

يتبين مما تقدم أن دين الله تعالى واحد فى كل أمة وعلى لسان كل نبى، ولذلك قال فى آية أخرى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ فالتفرق فى الدين ما جاء إلا من الجهل والتعصب للأهواء والمحافظة على الحظوظ والمنافع المتبادلة بين المرءوسين والرؤساء. فالقرآن يطالب الجميع بالاتفاق فى الدين والاجتماع على أصليه: العقلى وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه، والقلبى وهو الإسلام والاخلاص لله فى جميع الأعمال.

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ الأمة هنا الجماعة من الناس والمشار اليه إبراهيم وأولاده وأحفاده المذكورون فى الآية السابقة ﴿ قد خلت ﴾ مضت وذهبت من هذا العالم. لها ما كسبت من عمل تجزى به. ولكم ما كسبتم من عمل تجزون به. ولا يجزى أحد بعمل غيره، ولا

تسألون يوم الحساب والجزاء عما تعملون سؤال حساب وجزاء ، ولا يسألون عما تعملون كذلك ، بل كل يسأل عن عمله ويجازى به دون غيره ، فلا ينتفع أحد بعمل غيره ولا يتضرر به من حيث هو عمله ، إلا أنه قد ينتفع أو يتضرر بعمل غيره إذا كان هو سببا له لأنه أرشده اليه وكان قدوة له فيه . فالله سبحانه يقول لليهود والنصارى : يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ماهم أهله ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية فتضيفونهما اليهم ، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فان الدعاوى غير مغنيتكم عند الله ، وانما يغنى عنكم عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم ان كنتم عملتموها وقدمتموها . وقد بين الله فى هذه الآية سنته فى عباده أنه لا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله ، ولا يسأل إلا عن كسبه وعمله ، وما أحسن قول الغزالى :

إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه ، والظمآن يروى بشرب والده وإن لم يشرب ، فالعاصى ينجو بصلاح والده ! والآيات التى تؤيد هذه الآية كثيرة جداً ، فهى أصل من أصول الدين الإلهى ، لا يفيد معها تأويل المغرورين ولا غرور الجاهلين

﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ﴾ بيان لعقيدة الفريقين فى التفرق فى الدين . والضمير فى ﴿ قالوا ﴾ لأهل الكتاب و ﴿ أو ﴾ للتوزيع أو التنويع . أى ان اليهود يدعون إلى اليهودية التى هم عليها ويحصرون الهداية فيها ، والنصارى يدعون إلى النصرانية ويحصرون الهداية فيها ، ولو صدق أى واحد منهما لما كان إبراهيم مهتديا لأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا . وكيف وهم متفقون على كونه إمام الهدى المهتدى ، لذلك قال تعالى ملقنا لنبيه البرهان الأقوى فى محاجتهم ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ أى بل اتبع أو اتبعوا ملة إبراهيم الذى لا نزاع فى هداه ولا فى هديه ، فهى الملة الحنيفية القائمة على الجادة بلا انحراف ولا زيغ ، العريقة فى التوحيد والاخلاص بلا وثنية ولا شرك .

والحنيف من مال عن كل دين أعوج ، ويطلق على المستقيم . ﴿ قولوا آمنا بالله

وما أنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ﴾ الخطاب للمسلمين وأمرهم أن يقولوا هذه المقالة ، أى صدقنا بالله و بالقرآن و بالكتب التى سبقته التى انزلت الى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، يعنى آمنا أيضا بالتوراة وبالانجيل والكتب التى آتى النبيين كلهم وصدقنا . أى لا تكن دعوتكم إلى شىء خاص بكم يفصل بينكم وبين سائر أهل الأديان السماوية ، بل انظروا إلى جهة الجمع والاتفاق ، وادعوا إلى أصل الدين وروحه الذى لا خلاف فيه ولا نزاع ، وهو التسليم بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين ، مع الاسلام لرب العالمين ، لا نعبد إلا الله ، ولا نفرق بين أحد من رسل الله . والأسباط أولاد يعقوب ، والفرق والشعوب الاثنى عشر المتشعبة منهم

﴿ وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ﴾ ان المراد بالايمان بما أنزل الله تعالى وما أعطاه لأولئك النبيين والمرسلين إجمالا وأنه إن كان وحيا من الله فلا نكذب أحدا منهم بما ادعاه ودعا اليه فى عصره بصرف النظر عما طرأ عليه من ضياع بعضه وتحريف بعضه فان ذلك لا يضرنا ، لأن الأيمان التفصيلى والعمل مقصور على ما أنزل الينا . فقد روى البخارى من حديث أبى هريرة : أن أهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال النبى ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا ﴿ آمنا بالله ﴾ الآية . وعن معقل بن يسار مرفوعا « آمنوا بالتوراة والانجيل والزبور وليسعكم القرآن » ﴿ وما أنزل الينا ﴾ أى معشر المسلمين وهو القرآن وقوله بعد ﴿ وما أوتى النبيون ﴾ ممن ذكر أسماؤهم ولم تذكر ، سواء كانت لهم كتب أو لم تكن لهم كتب ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ أى سواء منهم من له كتاب يؤثر ومن ليس له كتاب ، نؤمن بالجميع إجمالا ، ونأخذ التفصيل عن خاتمهم النبى ﷺ الذى بين لنا أصل ملتهم التى كانوا عليها ، وزادنا من الحكم والأحكام ما يناسب هذا الزمان وما بعده من الأزمان . والعمدة فى الدين على إسلام القلب لله تعالى ، والعمل بما أمر ، والانتهاء عما نهى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى مذعنون منقادون كما هو مقتضى الايمان الصحيح .

فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

التفسير

﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ أى فان آمنوا وهم أهل الكتاب وغيرهم بالله وبما أنزل على النبيين والمرسلين ، بأن يؤمنوا بمثل ما نؤمن نحن به ـ لا بما هم عليه من ادعاء حلول الله فى بعض البشر وكون رسولهم إلها أو ابن الله ـ فنحن نؤمن بالتنزيه وهم يؤمنون بالتشبيه فقد اهتدوا أى وفقوا ورشدوا ولزموا طريق الحق ﴿ وإن تولوا ﴾ أى أعرضوا عما تدعوهم اليه من الرجوع إلى أصل دين الأنبياء ولبابه بإيمان كإيمانكم ﴿ فإنما هم فى شقاق ﴾ أى أن أمرهم محصور فى العداوة والمشاقة أى الايذاء والايقاع فى المشقة ، أو شق العصا بتزيين الخلاف والتعصب لما يفصلهم ويبينهم منكم ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ أى يكفيك ايذاءهم ومكرهم السيء ويؤيد دعوتك وينصر أمتك . فهذا الوعد بالكفاية عام للمؤمنين ما داموا قائمين بأمر الدين ، وقد أنجز الله وعده للنبى والمؤمنين عند ما كانوا على ذلك الايمان ، وكان الناس يقاومونهم لأجله ، فلما انحرفوا من بعدهم عنه خرجوا

عن الوعد ، ولو عادوا لعاد الله عليهم بالكفاية والنصر ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾

﴿ صبغة الله ﴾ وهى ما صبغ الله به أنبياءه ورسله والمؤمنين من عباده على سنة الفطرة . والصبغة فى أصل اللغة صيغة للهيئة من صبغ الثوب إذا لونه بلون خاص

﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ أى دين الله أو الاسلام ، أى لا أحسن من صبغته فهى جماع الخير الذى يؤلف بين الشعوب والقبائل ، ويزكى النفوس ويطهر القلوب والعقول ﴿ ونحن له ﴾ وحده ﴿ عابدون ﴾ فلا نتخذ أحبارنا وعلماءنا أربابا يزيدون فى ديننا وينقصون ، ويحلون لنا بآرائهم ويحرمون ، ويمحون من نفوسنا صبغة الله الموجبة للتوحيد ويثبتون مكانها صبغة البشر القاضية بالشرك والتنديد

﴿ قل أتحاجوننا فى الله ﴾ بدعواكم الاختصاص بالقرب منه وزعمكم أنكم أنبياء الله وأحباؤه ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، ومن أين جاءكم هذا القرب والاختصاص بالله دوننا ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ ورب العالمين ، فنسبة الجميع اليه واحدة وإنما تتفاضل الناس بالأعمال البدنية والنفسية ﴿ ولنا أعمالنا ﴾ التى تختص آثارها بنا إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ كذلك ، وروح الأعمال كلها الاخلاص ، فهو وحده الذى يجعلها مقربة لصاحبها من الله تعالى ووسيلة لمرضاته ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ من دونكم . وحاصل معنى الآية ابطال معنى شبهة أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه ، والفوز عندهم بعمل سلفهم لا بصلاح أنفسهم ولا بأعمالهم ، وهذا الاعتقاد هدم لدين الله ، وإن روح الدين الالهى وملاكه هو التوحيد والاخلاص المعبر عنه بالاسلام ، وكل عمل أمر به الدين فإنما الغرض منه إصلاح القلب والعقل بسلامة الاعتقاد وحسن القصد ، فان زال هذا المعنى وحفظت جميع الأعمال الصورية فإنها لا تفيد شيئا ، بل إنها تضر بدونه ، لأنها تشغل الانسان بما لا يفيد وتبعده عن المفيد

﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو

نصارى ﴾ الآية فى إقامة الحجة عليهم بأنهم يعتقدون أن إبراهيم كان على الحق وأن ملته هى الملة الألهية المرضية عند الله تعالى ، وإذا كان الأمر كذلك وكانت هذه التقاليد التى تقلدوها غير معروفة على عهد إبراهيم فما بالهم صاروا ينوطون النجاة بها ويزعمون أن ما عداها كفر وضلال ؟ فهو لا يثبت لهم القول بأن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا وإنما يقول انهم لا يقدرون على القول بذلك ، لأن البداهة قاضية بكذبهم ، ولذلك قال لنبيه ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ أأنتم أعلم بالمرضىّ عند الله أم الله أعلم بما يرضيه وما لا يرضيه ؟ لا شك أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون

﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ والمعنى أن هؤلاء (اليهود) مجادلون فى الحق بعد ما تبين ، مباهتون للنبى مع العلم بأنه نبى ، إذ ما كان لهم أن يشتبهوا فى أمره بعد شهادة كتابهم له ، فاذا كان ظلمهم لأنفسهم قد انتهى بهم إلى آخر حدود الظلم وهو كتمان شهادة الله تعالى تعصبا لجنسيتهم الدينية فكيف ينتظر منهم أن يصغوا إلى بيان أو يخضعوا لبرهان ، والاستفهام هنا يتضمن التوبيخ والتقريع المؤكدين بالوعد فى قوله ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وإنما الجزاء على الأعمال . ثم ختم المحاجة بتأكيد أمر العمل وعدم فائدة النسب فقال :

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ وإنما تسألون عن أعمالكم وتجازون عليها فلا ينفعكم ولا يضركم سواها . وهذه قاعدة يتبعها كل دين . كررت هذه الآية للتأكيد . أو لأن المراد بالأول الأنبياء عليهم السلام وبالثانى أسلاف اليهود والنصارى .

جاء القرآن يبالغ فى تقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل والكسب وتبيينها ، ونفى الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يتأس بهم فى العمل الصالح ، ولذلك أعاد هذه الآية بنصها فى مقام محاجة أهل الكتاب المفتخرين بسلفهم من الأنبياء العظام المعتمدين على شفاعتهم وجاههم وإن قصروا عن غيرهم فى الأعمال . وفائدة الإعادة تقرير بناء السعادة على العمل دون الآباء والشفعاء والإشعار بمعنى يعطيه السياق هنا ، وهو أن أعمال هؤلاء المجادلين المشاغبين من أهل الكتاب مخالفة لأعمال سلفهم من

الأنبياء فهم فى الحقيقة على غير دينهم ، فكل واحد من السلف والخلف مجزى بعمله لا ينفع أحدا منهم عمل غيره من حيث هو عمل ذلك الغير ولا شخصه بالأولى قال تعالى ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ﴾

الجزء الثانى — من سورة البقرة

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)

التفسير

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما وليهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ ليست صخرة بيت المقدس بأفضل من سائر الصخور فى مادتها وجوهرها ، فليس لها منافع وخواص لا توجد فى غيرها ، وكذلك يقال فى هيكل سليمان وفى الكعبة والبيت الحرام ، وإنما يجعل الله للناس قبلة لتكون جامعة لهم فى عبادتهم ، ولكن سفهاء الأحلام من أهل الجمود يظنون أن القبلة أصل فى الدين من حيث هى الصخرة المعينة أو البناء المعين ، ولذلك كانت الحجة التى لقنها الله لنبيه فى الرد على السفهاء الجاهلين بهذه الحكمة ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ أى إن الجهات كلها لله تعالى لا فضل لجهة منها على جهة ، وان الله يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء وهو الذى ﴿ يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ صراط الاعتدال فى الأفكار والأخلاق والأعمال ، وإن العبرة فى التوجه اليه سبحانه بالقلوب لا بالوجوه . و ﴿ السفهاء ﴾ هم الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والاعراض عن النظر ، يريد المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين ، وولاه صرفه عنه

قال تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ الوسط هو الخيار بين طرفى الأمر ، أى المتوسط بينهما . والأمة الاسلامية قد جمع لها فى دينها بين الحقين حق الروح وحق الجسد فهى روحانية جثمانية ، وإن شئت قلت إنه أعطاها جميع حقوق الانسانية ، فان الانسان جسم وروح وحيوان وملك كأنه قال : جعلناكم أمة وسطا تعرفون الحقين وتبلغون الكمالين ﴿ لتكونوا شهداء ﴾ بالحق ﴿ على الناس ﴾ الجسمانيين بما فرطوا فى جنب الدين والروحانيين اذا فرطوا وكانوا من الغالين ، وإن ما هديتم اليه هو الكمال الانسانى ، لان صاحبه يعطى كل ذى حق حقه : يؤدى حقوق ربه وحقوق نفسه وحقوق جسمه وحقوق ذوى القربى وحقوق سائر الناس ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ أى أن الرسول صلوات الله عليه هو المثال الكامل لمرتبة الوسط ، وانما تكون هذه الأمة وسطا باتباعها له فى سيرته وشريعته ، وهو القاضى بين الناس فيمن اتبع سنته ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حذا حذو

المبتدعين . فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدى والروحى بأنهم قد ضلوا عن القصد يشهد لها الرسول بما وافقت سنته وما كان لها من الاسوة الحسنة فيه . فكأنه قال : انما يتحقق لكم وصف الوسط اذا حافظتم على العمل بهدى الرسول واستقمتم على سنته ، وأما اذا انحرفتم عن هذه الجادة فالرسول بنفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التى وصفها الله فى كتابه بهذه الآية بقوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ بل تخرجون بالابتداع من الوسط ، وتكونون فى أحد الطرفين ، وكلاهما مذموم

بين الله تعالى للمسلمين منزلتهم من سائر الأمم وهى أنهم أمة وسط لا تغلو فى شىء ولا تقف عند الظواهر ، وأنهم شهداء على الناس وحجة عليهم باعتدالهم فى الأمور كلها وفهمهم لحقائق الدين وأسراره ومن أهمها القبلة التى يتوجه اليها لا شأن لها فى ذاتها وإنما العبرة فيها باجتماع أهل الملة على كيفية واحدة عند التوجه الى الله تعالى ، ولا يليق أن تبالى بانتقاد السفهاء المذبذبين بين الافراط والتفريط . بعد هذا قال تعالى ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ أى وما جعلنا القبلة فيما مضى هى الجهة التى كنت عليها الى اليوم ثم أمرناك بالتحول عنها الى الكعبة الا ليتبين الثابت على إيمانه ممن لا ثبات له . وإنما يثبت من فقه فى الشىء فعرف سره وحكمته ، وأما المقلد الآخذ بالظواهر من غير فقه ولا عرفان فلا يثبت فى مهاب عواصف الشكوك والشبهات . ومعنى الانقلاب على العقبين الانصراف عن الشىء وتركه بالمرة ، وفيه إشعار أنه رجع عن خير الى شر . ولذلك قال تعالى ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ فمنحهم الاعتدال فى الفكر والادراك ، وفى الميل والرغبة ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم ﴾ اى بشر المؤمنين المتبعين بأنهم يجزون على إيمانهم الجزاء الأوفى فلا يضيع الله أجرهم ولا يلتهم (ينقصهم) من ثباتهم على اتباع الرسول شيئا . وقال القرطبى : اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلى الى بيت المقدس ، ثم قال :

فسمى الصلاة ايمانا لاجتماعها على نية وقول وعمل . وقيل ثبات المؤمنين على الايمان عند تحويل القبلة وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم . ﴿ ان الله بالناس

﴿ رؤوف رحيم ﴾ أى الله رؤوف بالناس لأنه ذو الرحمة الواسعة فلا يضيع عمل عامل منهم . والرأفة لا تستعمل الا فى حق من وقع فى بلاء ، والرحمة تشمل دفع الألم والضرر ، وتشمل الاحسان وزيادة الاحسان . ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ﴾ تقلب الوجه فى السماء عبارة عن التوجه الى الله تعالى انتظارا لما كانت تشعر به روح النبى ﷺ وترجوه من نزول الوحى بتحويل القبلة . ولا تدل الآن على أنه كان يدعو بلسانه طالبا هذا التحويل ولا تنفى ذلك . وهذا التوجه هو الذى يحبه الله تعالى ويهدى قلب صاحبه الى ما يرجوه ويطلبه لذلك قال تعالى ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ وقرن الوعد بالأمر فقال ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ والشطر هنا معناه النحو والجهة ، فالواجب استقبال جهة الكعبة على البعد عنها وعدم رؤيتها . ﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ أمر الله المؤمنين بما أمر به النبى للتأكيد الذى اقتضته الحال فى حادثة القبلة ، فانها كانت حادثة كبيرة استتبعت فتنة عظيمة . فأكد الأمر بها وشرفهم بالخطاب مع خطاب الرسول صلوات الله عليه لتشتد قلوبهم وتطمئن نفوسهم ﴿ وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ أى إن تولى المسجد الحرام هو الحق المنزل من الله على نبيه ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ فهو المطلع على الظواهر والضمائر ، الحسيب على مافى السرائر ، الرقيب على الاعمال ، فيخبر نبيه بما شاء أن يخبره ، واليه المرجع والمصير ، وعليه الحساب والجزاء ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ فلا يحزنك قولهم ولا إعراضهم ، ولا تحسبن الآيات والدلائل مؤثرة فيهم وصارفة لهم عن عنادهم ، فهم قوم مقلدون لا نظر لهم ولا استدلال ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ أى فائدة ترجى من موافقتك إياهم عليها وأنت تابع قبلة ابراهيم الذى يجلونه ويحترمونه ؟ ألم تر كيف اختلفوا هم فى القبلة فجعل النصارى لهم قبلة غير قبلة اليهود التى كان عليها عيسى بعد موسى ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ لأن كلا منهم قد جمد بالتقليد على ما هو عليه ، والمقلد لا ينظر فى آية ولا دليل ، فهو أعمى لا يبصر ، أصم لا يسمع ، أغلف

القلب لا يعقل ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين ﴾ : أى ولئن التمست يامحمد رضاء هؤلاء اليهود والنصارى فرجعت الى قبلتهم بعد أن وصل اليك من العلم باعلامى إياك أنهم يقيمون على باطل وعلى عناد منهم للحق انك اذا من المخالفين أمرى المعتدين حدودى

أفرد النبى عليه الصلاة والسلام بالخطاب مع أن المراد أمته خاصة ، اذ يستحيل أن يتبع هو أهواءهم أو يجاريهم على شىء نهاه الله تعالى عنه ، ليتنبه الغافل ويعلم المؤمنون أن اتباع أهواء الناس ومجاراتهم على ما هم عليه من باطل هو من الظلم العظيم الذى يقطع طريق الحق ويرد الناس فى مهاوى الباطل ، كأنه يقول : هذا ذنب عظيم لا يتسامح فيه مع أحد ، حتى لو فرض وقوعه من أكرم الناس على الله تعالى لسجل عليه الظلم وهو العصيان والخروج عن الطاعة وجعله من أهله الذين صار وصفا لازما لهم ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ فكيف حال من ليس له ما يقارب مكانته عند ربه عز وجل - وفى هذا إيماء الى اتباع العلماء أهواء العامة بعد ما جاءهم من العلم وما نزل عليهم من الوعيد عليه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ ذكر فى هذه الآية علة الانكار وهو أنهم (أهل الكتاب) يعرفون النبى ﷺ بما فى كتبهم من البشارة به ومن نعوته وصفاته التى لا تنطبق على غيره وبما ظهر من آياته وآثار هدايته . وقيل يعرف هؤلاء الأحبار من اليهود والعلماء من النصارى أن البيت الحرام قبلتهم وقبلة ابراهيم وقبلة الأنبياء قبلك كما يعرفون أبناءهم الذين يتولون تربيتهم وحياطتهم حتى لا يفوتهم من أمرهم شىء ﴿ وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ أنه الحق الذى لا مرية فيه ، فماذا يرجى منهم بعد هذا . وقد أسند هذا الكتمان الى فريق منهم اذ لم يكونوا كلهم كذلك ، فأن منهم من اعترف بالحق وآمن واهتدى به ، ومنهم من كان يجحده عن جهل ولو علم به لجاز أن يقبله

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)

التفسير

﴿ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ أى أن العمدة فى معرفة الحق هو الوحى يأتيك من عند ربك فلا تلتفت إلى أوهام هؤلاء الجاحدين فانها لا تصلح شبهة على الحق الصريح الذى علمك الله فتمترى بها (تشك) . والنهى فى الآية هو كالوعيد فى الآية السابقة ، أى لا تكونن فى شك يا محمد أن الكعبة هى قبلتك وكانت قبلة الأنبياء من قبلك . وجه الخطاب به الى النبى ﷺ والمراد أمته من كان منهم غير راسخ فى الايمان وخشى عليه الاغترار بمظاهر اولئك المخادعين الذين يغتر بأمثالهم فى كل زمان ومكان ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ أى لكل أمة من الأمم جهة توليها فى صلاتها . والمراد بالوجهة القبلة أى انهم لا يتبعون قبلتك وأنت لا تتبع قبلتهم . ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ باتباع الامام المرشد ، وإياكم والجدل والمشاغبة فى أمثال

هذه الأمور . وهذا الأمر عام موجه إلى أمة الدعوة لا خاص بالمؤمنين المستجيبين لله والرسول . والمراد من الاستباق الى الخيرات الاستباق الى الصلاة فى أول وقتها وقيل الاعمال الصالحة . ثم قال ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ﴾ أى فى أى جهة وأى مكان يقيم المرء فالله تعالى يأتى به ، إذ البلاد والجهات لا شأن لها فى أمر الدين لذاتها إنما الشأن لعمل البر واستباق الخيرات ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ فلا يعجزه الاتيان بالناس مهما بعدت بينهم المسافات ، وتنائت بهم الديار والجهات . فالتصريح بالقدرة تذكير بالدليل على الدعوى ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ أعاد الله تعالى الأمر فى صورة أخرى ليبين أنه شريعة عامة فى كل زمان ومكان ، لا يختص ببلاد دون أخرى ، ولا بحضر دون سفر . وقد كان الأمر بالتحويل نزل على النبى ﷺ وهو فى الصلاة فأعلمه بصيغة الأمر أنه ليس خاصا بتلك الصلاة ولا بذلك المكان ، بل عليه أن يفعل ذلك من حيث خرج وأين توجه ، وقد وثق الأمر وأكده بقوله ﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ ثم قال فى حال الناس ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ أى أن الله لا يغفل عن أعمالكم وأنتم تحت نظر الحق دائما ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ والمراد بالناس المحاجون فى القبلة المعروفون ، وهم فريقان أهل الكتاب والمشركون . ووجه انتفاء حجتهم هو أن أهل الكتاب كانوا يعرفون من كتبهم أن النبى الذى يبعث من ولد اسماعيل يكون على قبلته وهى الكعبة ، فجعل بيت المقدس قبلة دائمة له حجة على أنه ليس هو النبى المبشر به ، فلما كان التحويل عرفوا أنه الحق من ربهم وأن المشركين كانوا يرون أن نبياً من ولد ابراهيم جاء لاحياء ملته لا ينبغى له أن يستقبل غير بيت ربه الذى بناه جده ابراهيم ، وقد جاء التحويل موافقا لما يرونه فانتفت حجة الفريقين ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ فهم لا يهتدون بكتاب ولا يعتبرون ببرهان ولا قيمة لما يقول هؤلاء ، فانهم هم السفهاء كما وصفوا فى الآية الأولى وهم اليهود ومشركو العرب ﴿ فلا تخشوهم ﴾ يريد الناس أى لا تخافوا مطاعنهم فانها داحضة باطلة لا تضركم إذ لا مرجع لكلامهم من الحق ، لأنه لا يستند إلى برهان عقلى ولا هدى سماوى ﴿ واخشونى ﴾ أنا فإننى

التقدير . والآية ترشدنا إلى أن صاحب الحق هو الذى يخشى جانبه ، وأن المبطل لا ينبغى أن يخشى . فإن الحق يعلو ولا يعلى عليه ، وما آفة الحق الا ترك أهله له ، وخوفهم من أهل الباطل فيه ﴿ ولأتم نعمتى عليكم ﴾ ان كل أمر يصدر من الله تعالى فامتثاله نعمة ، ولكنه إذا كان فيه حكمة ظاهرة وشرف للأمة يتعلق بتاريخها وكان أثره حميدا نافعا فيها تكون النعمة أتم والمنة أكمل ، ولذلك عبر بالاتمام ، واتمام النعمة الهداية الى القبلة واتمام شرائع الله الحنيفية المسلمة التى وصيت بها الرسل من قبل ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ أى كى ترشدوا للصواب ، أى وليعدكم بذلك الى الاهتداء بالثبات على الحق والرسوخ فيه ، فان المعارضات والمحاجات تظهر ضعف الباطل وزهوقه ، وتبين قوة الحق وثبوته ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ﴾ أى يتم نعمته عليكم بارساله تعالى رسولا منكم ، فالقبلة فى بلادكم ، والرسول من أمتكم ، والخطاب للعرب كما هو ظاهر ﴿ يتلو عليكم آياتنا ﴾ أى حججنا الدالة على أن ما جاء به من التوحيد والهداية هو الحق من عند الله ﴿ ويزكيكم ﴾ أى يطهر نفوسكم من الأخلاق السافلة والرذائل الممقوتة ويخلقها بالاخلاق الحميدة بحسن الأسوة لا بالقهر والسطوة ﴿ ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾ تقدم تفسيره فى الكلام على دعوة ابراهيم وما هو ببعيد فالكتاب هو القرآن وما جاء به من الهداية والارشاد لاصلاح العباد . والحكمة هى المفسرة لما جاء به الكتاب العزيز من سيرة النبى ﷺ فى بيوته ومع أصحابه فى السلم والحرب والسفر والاقامة وفى حالة الضعف والقوة والقلة والكثرة ، فالسنة العملية المتواترة هى المبينة للقرآن بتفصيل مجمله وبيان مبهمه وإظهار مافى أحكامه من الأسرار والمنافع ، ولهذا أطلق عليها لفظ الحكمة فانها كانت كالحكمة (اللجام) لتأديب الفرس . فالسنة هى التى علمت المسلمين كيف يهتدون بالقرآن ، ومرنتهم على العدل والاعتدال فى جميع الأحوال ﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أى مالا طريق لكم إلى معرفته بالنظر والفكر ، وهو لا يعلم إلا من الوحى . ويصح أيضا أن يراد مالم تكونوا تعلمون من شئون أنفسكم ، والسنن الإلهية الحاكمة فيكم . وقد بلغوا بتعليمه وإرشاده مبلغا فاقوا فيه سائر الأمم . أى فالتعليم ليس محصورا فى الكتاب ، بل هناك زيادة أعد الله تعالى نبيه لتبيينها . والمقابلة بين هذا التعليم وتعليم الكتاب مبنية على أن المراد

بالكتاب القرآن ، وبالآيات الدلائل . وقد تقدم فى تفسير دعوة إبراهيم وجه آخر فى الكتاب ، وهو أنه مصدر كتب ، أى ويعلمكم الكتابة بعد أن كنتم أميين ، ولا مقابلة على هذا والأمر ظاهر .

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

التفسير

﴿ فاذكرونى ﴾ بما شرعت من أمر القبلة وبما أتممت عليكم من النعمة بارسال رسول منكم يعلمكم ويزكيكم ، ولا تنسوا أنى أنا المتفضل بافاضة هذه النعم عليكم ﴿ أذكركم ﴾ بادامتها وبغير ذلك من أركان السعادة ، وهذه أفضل تربية من الله تعالى لعباده إذا ذكروه ذكرهم بادامة النعمة والفضل ، وإذا نسوه نسيهم منه بمقتضى العدل . ومعنى الآية اذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ودوام النعم . وقيل ذكر الله بثلاثة أقسام : ذكر باللسان وذكر بالقلب وذكر بالجوارح . فذكر اللسان هو أقل أنواع الذكر ، وهو الألفاظ التى يقصد بها العبد التحميد والتسبيح والتمجيد . وأما ذكر القلب فعلى ثلاثة انواع : أولها أن يتفكر الانسان فى دلائل الذات والصفات . . وثانيها ان يتفكر فى دلائل التكاليف من الأمر والنهى والوعد والوعيد ويجتهد أن

يقف على حكمها وأسرارها ، وحينئذ يسهل عليه فعل الطاعات وترك المحظورات . وثالثها أن يتفكر الانسان فى مخلوقات الله وأسرارها . . . أما ذكر الله بالجوارح فهى أن تصير الجوارح مستغرقة فى الطاعات وخالية عن المنهيات . وبهذا التفسير سمى الله تعالى الصلاة ذكرا فقال ﴿ فاسعوا الى ذكر الله ﴾ . اذا عرفت ذلك علمت أن قوله تعالى ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ يتضمن الأمر بجميع الطاعات والوعد باعطاء جميع الكرامات والخيرات . ثم بعد أن علمهم ما يحفظ النعم أرشدهم إلى المزيد بمقتضى الجود والكرم فقال ﴿ واشكروا لى ﴾ هذه النعم بالعمل بها وتوجيهها إلى ما وجدت لأجله ﴿ ولا تكفرون ﴾ أى لا تكفروا نعمى باهمالها أو صرفها إلى غير ما وجدت لاجله بحسب السنن الألهية . وهذا تحذير لهذه الأمة مما وقعت فيه الأمم السالفة ، إذ كفرت بنعم الله تعالى ، فحولت الدين عن قطبه الذى يدور عليه ، وهو الاخلاص وإسلام الوجه لله وحده ، وعطلت ما أعطاها الله من مواهب المشاعر والعقل فلم تستعملها فيما خلقت له . وهكذا انحرفوا بكل شىء عن أصله فسلبهم الله ما كان وهبهم تأديبا لهم ولغيرهم ، ثم رحمهم بأن أرسل اليهم رسولا لهداية عامة تعرفهم وجه تلك التربية الألهية وتحذرهم العود إلى أسبابها . وقد امتثل المسلمون هذه الأوامر زمنا قصيرا فسعدوا ، ثم تركوها بالتدريج فحل بهم ما نرى ، فاذا عادوا عاد الله عليهم بما كان أعطى سلفهم ، وإلا كانوا من الهالكين . ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ المراد بالصبر فى هذه الآيات كلها ملكة الثبات والاحتمال التى تهوّن على صاحبها ما يلاقيه فى سبيل الحق ونصرة الفضيلة ، وإنما يكون الامتثال بتعويد النفس على احتمال المكاره والشدائد فى سبيل الحق ، وعلى ذلك جرى النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه عليهم الرضوان ، حتى فازوا بعاقبة الصبر المحمود ، ونصرهم الله تعالى - مع قلتهم وضعفهم - على جميع الأمم مع قوتها وكثرتها . وإنما كان ذلك بالصبر ، لأن الله تعالى جعله سبباً للنجاة من الخسر ، كما جاء فى سورة العصر . والصلاة التى أكثر من ذكرها الكتاب العزيز ووصف ذويها بفضلى الصفات ، وهى التوجه إلى الله تعالى وحضور القلب معه سبحانه واستغراقه فى الشعور بهيبته وجلاله وكمال سلطانه ، تلك الصلاة التى قال فيها ﴿ إن الصلاة تنهى على الفحشاء والمنكر ﴾

ثم قال ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ إن من سنة الله تعالى أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار . وهذا إنما يكون بالصبر ، فمن صبر فهو على سنة الله ، والله معه بما جعل هـذا الصبر سببا للظفر ، لأنه يولد الثبات والاستمرار الذى هو شرط النجاح ، ومن لم يصبر فليس الله معه ، لأنه تنكب سنته ولم يثبت فيبلغ غايته . علم الله سبحانه وتعالى المؤمنين ما يستعينون به على مجاهدة الخواطر والهواجس ، ومقاومة الشبهات والوساوس ، فأمر أولا بالاستعانة بالصبر والصلاة ، ثم ذكر أعظم شيء يستعان عليه لذلك وهو القتل فى سبيل دعوة الحق وحمايته . ذكره مدرجا فى سياق تقرير حقيقة ودفع شبهة فقال ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ﴾ أى لا تقولوا فى شأنهم هم أموات ﴿ بل ﴾ هم ﴿ أحياء ﴾ فى عالم غير عالمكم ﴿ ولكن لا تشعرون ﴾ بحياتهم ، إذ ليس فى عالم الحس الذى يدرك بالمشاعر وهى حياة لا نعرفها وانما لا نثبت مالا نعرف . ذكر الله تعالى فضل الشهادة التى استهدف لها المؤمنون فى سبيل الدعوة الى الحق والدفاع عنه ، ثم ذكر مجموع المصائب التى يلاقونها فقال : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ يعلم الله المؤمنين أن اتصاف الانسان بالإيمان لا يقتضى سعة الرزق وقوة السلطان وانتفاء المخاوف والأحزان ، بل يجرى ذلك بسنن الله تعالى فى الخلق . وانما المؤمن الموفق من يستفيد من مجارى الأقدار إذ يتربى ويتأدب بمقاومة الشدائد والاخطار . ومن لم تعلمه الحوادث وتهذبه الكوارث فهو جاهل بهدى الدين ، متبع غير سبيل المؤمنين ، غير معتبر بقوله تعالى ﴿ وبشر الصابرين ﴾ لأن معالى الأمور لا تكتسب إلا بالصبر والمثابرة .

والخوف المشار اليه فى الآية — وأعداء الاسلام على ما كانوا عليه من الكثرة والقوة — ظاهر لا يخفى . على أن بعضهم فسره بالخوف من الله تعالى وهو كما ترى . وأما الجوع فهو أن أحدهم يؤمن ، فيفصل من أهله وعشيرته ، ويخرج فى الغالب صفر اليدين ، ولذلك كان الفقر عاما فى المسلمين من أول عهدهم إلى ما بعد الفتح . ومن هذا التفسير يفهم المراد من نقص الأموال ، وهى الأنعام التى كانت معظم ما يتموله

العرب . وأما الثمرات فهى على أصلها ، وكان معظمها ثمرات النخيل ، وقد بلغ من جوع المسلمين أن كانوا يتبلغون بتمرات يسيرة لا سيما فى واقعة الأحزاب . وأما نقص الأنفس فهو ما كان من القتل والموتان من اجتواء المدينة ، فقد كانت عند هجرتهم اليها بلد وباء وحمى . ثم ذكر من وصف الصابرين قوله ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ والمراد التلبس بمعناها ، والتحقق فى الإيمان بأنهم من الله وإلى الله يرجعون ، فهو الذى بيده ملكوت كل شىء ، ولا يفعل الا ما سبقت به الحكمة ، وارتضاه النظام الالهى المعبر عنه بالسنة . فأصحاب هذا الاعتقاد والشعور هم الجديرون بالصبر إيمانا وتسليما ، بحيث لا يملك الجزع نفوسهم ، ولا تفقد المصائب هممهم ، بل تزيدهم ثباتا ومثابرة فيكونون هم الفائزين .

ذكر البلاء ، وذكر الوصف الذى يستحقون به البشارة ، وختم القول ببيان الجزاء بالاجمال ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ ، فاما الصلوات فالمراد بها أنواع التكريم والرحمة والنجاح وإعلاء المنزلة عند الله والناس ، وأما الرحمة فهى ما يكون لهم فى نفس المصيبة من حسن الجزاء وبرد الرضى والتسليم للقضاء ، فهى رحمة خاصة يحسد الملحدون عليها المؤمنين ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ إلى ما ينبغى عمله فى أوقات المصائب والشدائد ، إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم ، ولا يذهب البلاء بالأمل فى قلوبهم ، فيكونون هم الفائزين بخير الدنيا والراحة فيها ، المستعدين لسعادة الآخرة بعلو النفس وكرم الأخلاق

إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ

أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٨٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

التفسير

﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ﴾ إن من حكم تحويل القبلة إلى البيت الحرام توجيه قلوب المؤمنين إلى الاستيلاء عليه لأجل تطهيره من الشرك وغيره كما عهد الله إلى أبويهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وإن فى طى ﴿ ولأتم نعمتى عليكم ﴾ بشارة بهذا الاستيلاء مفيدة للأمل والرجاء . والصفا والمروة مرتبطة به أشد الارتباط من حيث أن الحكم الذى فيها من مناسك الحج التى كان عليها إبراهيم الذى أحيا النبى دينه وجعلت الصلاة إلى قبلته ، كأنه قال : لا تلوينكم قوة المشركين فى مكة وكثرة الأصنام على الصفا والمروة عن القصد إلى تطهير البيت الحرام وإحياء تلك الشعائر العظام ، كما لا يلوينكم عن استقبال البيت تقول أهل الكتاب والمشركين ، ولا زلزال مرضى القلوب من المنافقين ، بل ثقوا بوعد الله واستعينوا بالصبر والصلاة . واصل (الصفا) فى اللغة

الحجر الاملس . و (المروة) هى الحجارة الصغار

والصفا والمروة فى هذه الآية جبلان فى مكة ، والمسافة بينهما خمسمائة متر . والشعائر تطلق على المكان وعلى العمل المخصوص الذى هو عبادة ونسك ، فى آية أخرى ﴿ لا تحلوا شعائر الله ﴾

فالشعائر فى الآية معناها العلامات . فأما كون المواضع كالصفا والمروة من علامات دين الله أو أعلام دينه فظاهر ، وأما كون المناسك والأعمال شعائر وعلامات فوجهه أن القيام بها علامة على الخضوع لله تعالى وعبادته إيمانا وتسليما . ولذلك غلب استعمال الشعائر فى أعمال الحج لأنها تعبدية . والسعى بين الصفا والمروة من هذا النوع التعبدى ، فهو مطلوب بقوله تعالى ﴿ فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ حج البيت : قصده . أو اعتمر : أى زار . والتطوف هو الذى عرف فى الاصطلاح بالسعى بين الصفا والمروة ، وفسرته السنة بالعمل . وإذ كان مشروعا فسواء كان ركنا بقول الأئمة الثلاثة أو واجبا كما يقول الحنفية . وقوله عز وجل ﴿ فلا جناح عليه ﴾ لا إثم عليه فى الطواف ، وهذه الآية نزلت فى الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالصفا والمروة والذين يطوفون ثم يتحرجون أن يطوفوا بهما فى الإسلام ، وكانت الصفا والمروة من شعائر الجاهلية . ﴿ فمن تطوع خيراً ﴾ فان معنى التطوع فى أصل اللغة الإتيان بما فى الطوع أو بالطاعة ، وإطلاقه على الندب اصطلاح للفقهاء وقوله ﴿ إن الله شاكر عليم ﴾ معناه إن الله يثيبه ، لأنه شاكر يجزى على الإحسان ، عليم بمن يستحق الجزاء ومن لا يستحقه

ثم قال تعالى ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ﴾ إلخ ، هذه الآية عود إلى أصل السياق ، وهو مجاحدة النبى ومعاندته من الكفار عامة ومن اليهود خاصة ، وقد بينها الله تعالى فى هذه الآية أنهم كتموا مافى الكتاب من الهدى والارشاد بضروب التأويل ، حتى أفسدوا الدين ، وانحرفوا بالناس عن صراطه . وذكر جزاءهم فقال ﴿ أولئك ﴾ أى الذين كتموا

البينات والهدى ﴿ يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ أى يتبرأ منهم ويبعدهم من ثوابه . وأصل اللعن الإبعاد والطرد . ولعن اللاعنين معناه أنهم بفعلتهم هذه موضع لعنة اللاعنين الآتى ذكره فى الآية التالية ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ عن الكتمان ﴿ وأصلحوا ﴾ عملهم بالأخذ بتلك البينات عن النبى ودينه والهدى المطابق لما جاء به ﴿ وبينوا ﴾ ما كانوا يكتمونه ﴿ فأولئك أتوب عليهم ﴾ أى أرجع وأعود عليهم بالرحمة والرأفة بعد الحرمان المعبر عنه باللعنة ﴿ وأنا التواب الرحيم ﴾ يصف نفسه سبحانه بكثرة الرجوع والتوبة فأى ترغيب فى ذلك أبلغ من هذا وأشد تأثيرا منه لمن يشعر . وان حكم الآية عام وإن كان سببها خاصا . فكل من يكتم آيات الله وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة ، فليحاسب كل امرىء نفسه قبل أن يحاسب ، وليتب إلى الله قبل حلول الأجل لعله يتوب عليه وهو التواب الرحيم

﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ المراد أن هؤلاء الكافرين المصرّين على كفرهم إلى الموت هم أهل اللعنة وموضوع لها من الله والملائكة الروحانيين ومن الناس أجمعين ﴿ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ قالوا الخلود فى اللعنة عبارة عن الخلود فى أثرها وهو النار بقرينة لا يخفف عنهم العذاب .

﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ﴾ أى فلا تشركوا به أحدا . والشرك به نوعان : أحدهما يتعلق بالألوهية ، وهو أن يعتقد أن فى الخلق من يشاركه تعالى أو يعينه فى أفعاله أو يحمله عليها أو يصده عنها لأجل قربه منه . وثانيهما يتعلق بالربوبية وهى أن تؤخذ أحكام الدين فى عبادة الله والتحليل والتحريم من غيره ، أى غير كتابه ووحيه الذى بلغه عنه رسله . وإذا كان الله تعالى واحداً لا إله معه فلا ينبغى أن يشرك معه غيره فهو كذلك ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فلا ينبغى أن يعرض العبد عن أسباب رحمته اعتمادا على رحمة سواه ممن يظن أنهم مقربون عنده كأنه يقول : إذا

أنتم تركتم ما أنتم فيه لأجله تعالى فهو بتفرده بالألوهية يكفيكم كل ضرر تخافونه ، ويعطيكم برحمته الواسعة كل ما ترجونه ، الرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبدا . إن الوحدة تذكر أولئك الكافرين الكاتمين للحق بأنهم لا يجدون ملجأ غير الله يقيهم عقوبته ولعنته . وذكر الرحمة بعدها يرغبهم فى التوبة ، ويحول دون يأسهم من فضل الله بعد ايئاسهم ممن اتخذوهم شفعاء ووسطاء عنده ، فيطابق ذلك قوله تعالى فى الآية التى ذكر فيها الكتمان ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ الخ .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ الخ هذه آية قرآنية تشرح لنا بعض الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى إثباتا لما ورد فى الآية قبلها من هذين الوصفين له تعالى على طريقة القرآن فى قرن المسائل الاعتقادية بدلائلها وبراهينها

تتألف الأجرام السماوية من طوائف ، لكل طائفة منها نظام كامل محكم ، ولا يبطل نظام بعضها نظام الآخر ، لأن للمجموع نظاما عاما واحدا يدل على أنه صادر عن إله واحد لا شريك له فى خلقه وتقديره وحكمته وتدبيره ، فهذا النظام آية على الرحمة الإلهية ، كما أنه آية على الوحدانية ، والأرض فى جرمها ومادتها وشكلها وعوالمها المختلفة من جماد ونبات وحيوان لكل منها نظام عجيب وسنن إلهية مطردة فى تكوينها وتوالد ما يتوالد من أحيائها وغير ذلك مما لا يدع شكا أنها ترجع فى ذلك إلى إبداع إله حكيم رءوف رحيم ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ . ذكر هذه الآية بعد خلق السموات والأرض لأن هذا الاختلاف هو أثر مقابلة الأرض للشمس وحركتها بأزائها . وفى المشاهد من اختلاف الليل والنهار والفصول وما للناس فى ذلك من المنافع والمصالح آيات بينة على وحدة مبدع هذا النظام المطرد ورحمته لعباده . ويسهل على كل أحد أن يفهمها وإن لم يعرف أسباب ذلك الاختلاف وتقديره ﴿ والفلك التى تجرى فى البحر ﴾ والنكتة فى ذكر هذه الآية عقيب آية الليل والنهار هى أن المسافرين فى البر والبحر هم الذين يمكنهم تحديد اختلاف الليل والنهار على الوجه الذى ينتفع به ، والمسافرون فى البحر أحوج لمعرفة الأوقات وتحديد الجهات ، لأن خطر الجهل عليهم أشد ، وفائدة المعرفة لهم أعظم ، ولذلك كان من ضروريات ربانى السفن معرفة علم النجوم (الهيأة الفلكية) وعلم الليل والنهار

من فروع هذا العلم - ولا بد لفهم كونها آية على وحدانيته من فهم طبيعة الماء ، وطبيعة قانون الثقل فى الأجسام ، وطبيعة الهواء والريح ، وزد على ذلك معرفة طبيعة البخار والكهرباء التى هى العمدة فى سير الفلك الكبرى فى زماننا ، فكل ذلك يجرى على سنن إلهية مطردة منتظمة تدل على أنها صادرة عن قوة واحدة هى مصدر الابداع وهى قوة الاله الواحد الرحيم ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ المراد بالسماء جهة العلو ، وقد ذكر المطر فى قوله تعالى ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ ، فحرارة الهواء هى التى تبخر المياه والرطوبات وتثيرها الرياح فى الجو حتى تتكاثف ببرودته وتكون كسفا من السحاب يتخلل منه الماء ويخرج من خلاله وينزل بثقله إلى الأرض

ثم وصف الله تعالى هذا الماء بأعظم آثاره فقال ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ ، فحياة الأحياء فى الأرض إنما هى بالماء ، سواء كانت بالإحياء الأول عند تكوين العوالم الحية وإيجاد أصول الأنواع ، أو الإحياء المتجدد فى أشخاص هذه الأنواع وجزئياتها التى تتولد وتنمو كل يوم - وهذه المياه التى يتغذى بها النبات والحيوان على سطح هذه اليابسة (الأرض) كلها من المطر - هذا هو الماء وفى كونه سببا للحياة فى كيفية وجوده وتكوينه فإنه يجرى فى ذلك على سنة إلهية حكيمة تدل على الوحدة والرحمة ، وقل مثل هذا فيما بث الله تعالى فى الأرض من دابة فإنها آيات على الوحدة ودلائل وجودية على عموم الرحمة ، وبث الدواب فى الأرض فرقها وإرسالها فى أرجائها وأنحائها . قال تعالى ﴿ وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ﴾ تصريف الرياح تدبيرها وتوجيهها على حسب الإرادة ووفق الحكمة والنظام . وذكر السحاب هنا بعد ذكر تصريف الرياح لأنها هى التى تثيره وتجمعه ، وهى تسوقه إلى حيث يمطر وتفرق شمله أحيانا فيمتنع المطر ، وأنه يتكون بنظام ويعترض بين السماء والأرض بنظام ، فهو آية ، ولذلك قال تعالى إن فى هذه الأشياء ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ . ألا إن لله كتابين : كتابا مخلوقا وهو الكون ، وكتابا منزلا وهو القرآن . وإنما يرشدنا هذا إلى طرق العلم

بذاك بما أوتينا من العقل ، فمن أطاع الله فهو من الفائزين ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

التفسير

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ﴾ المراد من النِّد من يطلب منه مالا يطلب إلا من الله عز وجل ، أو يؤخذ منه مالا يؤخذ إلا عن الله تعالى ، والمراد بالمحبة ما يجده المحب فى نفسه من الأنس بالمحبوب والثقة به والاعتماد عليه واللجأ اليه على اختلاف أطوار الإنسان فى وجدانه واعتقاده . والحب لا ينبغى أن يكون لغير الله تعالى إذ لا يلجأ إلى غيره فى كل شىء كما يلجأ اليه ، ولكن متخذى الأنداد قد أشركوا أندادهم معه فى الحب ، فحبهم إياهم من نوع حبهم إياه جل ثناؤه ، لا يخصونه بنوع من الحب إذ لا يرجون منه شيئا إلا وقد جعلوا الأنداد ضربا من التوسط الغيبي فيه ، فهم كفار مشركون بهذا الحب الذى لا يصدر من

مؤمن موحد ، ولذلك قال تعالى : بعد بيان شركهم هذا ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ فحبهم ثابت كامل لأن متعلقه هو الكمال المطلق الذى يستمد منه كل كمال ، وللمؤمن محبوب واحد يعتقد أن منه كل شىء وبيده ملكوت كل شىء وله القدرة والسلطان على جميع الأكوان ، فما ناله من خير كسبى فهو بتوفيقه وهدايته ، وما جاءه بغير حساب فهو بتسخيره وعنايته . وللمشرك أنداد متعددون ، وأرباب متفرقون ، فاذا حزبه امر أو نزل به ضر لجأ إلى بشر أو صخر أو توسل بحيوان أو قبر أو استشفع بزيد وعمرو ، لا يدرى أيهم يَسمع ويُسمع ويشفع فيشفع ، فهو دائما مبلبل البال لا يستقر من القلق على حال . ويجب علينا أن نعتقد بأن الحكم لله تعالى وحده لا يؤخذ عن غيره الدين ، كما يجب علينا أن نعتقد بأن لا فعل لغيره تعالى ، فلا نطلب شيئا إلا منه . وطلبنا منه يكون بالأخذ بالأسباب التى وضعها وهدانا اليها ، فان جهلنا أو عجزنا فإننا نلجأ إلى قدرته ، ونستمد عنايته وحده ، وبهذا نكون موحدين مخلصين له الدين كما أمرنا فى كتابه المبين ، ومن خرج عن هذا كان من متخذى الأنداد ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب ﴾ والظلم باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود ، يرون العذاب المعد لهم يوم القيامة وأن القوة لله جميعا ولا دخل لأحد فى شىء أصلا ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ﴾ تفصيل حال التابعين والمتبوعين ، وقد ورد بصيغة الماضى كأن الأمر قد وقع ، ورأى الرؤساء المبطلون الذين اتبعوا أن إغواءهم للناس الذين اتبعوا رأيهم وقلدوهم دينهم قد ضاعف عذابهم ، وحملهم مثل أوزار الذين أضلوهم فوق أوزارهم ، فتبرأوا منهم فتنصلوا من ضلالتهم ﴿ و ﴾ قد ﴿ رأوا العذاب ﴾ فأنى ينفعهم التبرؤ ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ فلم تبق من صلة بينهم وبين التابعين ، فلا منفعة للمتبرىء تركت فيحمد تركها ، ولا هداية للمبرأ منه ترجى فيحمد أثرها .

والأسباب جمع سبب ، وهو كل ما تسبب به الرجل الى الوصول الى حاجته وطلبته ، فيقال للوسيلة سبب للوصول بها الى الحاجة ، وكذلك كل ما كان به إدراك

الطلبة فهو سبب لادراكها ، وأصله فى اللغة الحبل الذى يشد به الشىء ويجذب به ثم جعل كل ما جرّ شيئا سببا . والمراد به الوصل التى كانوا يتواصلون بها فى الدنيا من الرحم وغيره ، وقيل هى الاعمال

﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ﴾ أى نتمنى لو أن لنا رجعة إلى الدنيا لنتبرأ من اتباع هؤلاء المضلين ونتنصل من رياستهم ، أو لنتبع سبيل الحق ونهتدى بكتاب الله وسنة رسوله ، ثم نعود إلى هنا - الآخرة - فنتبرأ من هؤلاء الضالين كما تبرءوا منا ، إذ نسعد بأعمالنا من حيث هم أشقياء بأعمالهم

﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أى أن الله تعالى يظهر لهم كيف أن أعمالهم قد كان لها أسوأ الأثر فى نفوسهم ، إذ جعلها مستذلة مستعبدة لغير الله تعالى ، فأورثها ذلك من الظلمة والصغار ما كان حسرة وشقاء عليها ، فالأعمال هى التى كونت هذه الحسرات فى النفس ، ولكن لم يظهر ذلك إلا فى الدار التى تسعد فيها كل نفس بارتقائها وتشقى بانحطاطها ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ إلى الدنيا فيشفوا غيظهم من رؤسائهم وأندادهم ، لأن علة دخولهم فيها هى ذواتهم بما طبعتها عليه أعمال الشرك وحب الأنداد .

وما بين الله تعالى ضروب الشرك وصفات الكافرين وأحوالهم إلا عبرة لمن يؤمن بكتابه حتى لا يقع فيما وقعوا فيه فيكون من الهالكين

يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ

كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)

التفسير

قال تعالى ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ﴾ الحلال هو غير الحرام الذى نص عليه فى قوله تعالى ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله ﴾ فما عدا هذا كله مباح بشرط أن يكون طيبا . وفسر الحلال بالحلال الطيب على أنه تأكيد أو بالمستلذ به . على أن هناك المحرم العارض فيتعين بيانه ، وهو ما يتعلق به حق الغير ويؤخذ بغير وجه صحيح كما يكون فى أكل الرؤساء من المرءوسين بلا مقابل إلا أنهم رؤساؤهم المسيطرون عليهم ، وكذلك أكل المرؤسين بجاه الرؤساء فإن كلا منهم يمد الآخر ليستمد منه فى غير الوجوه المشروعة التى يتساوى فيها جميع الناس . وبهذا التفسير يتحرر ما أباحه الدين وتلتئم الآية مع ما قبلها . وأتبع الأمر النهى فقال ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ أما خطواته فهى ما يبينه فى الآية التالية ، وأما كونه عدوا مبينا فهو لا يتوقف على معرفة ذاته ، وإنما يعرف الشيطان بهذا الأثر الذى ينسب اليه ، وهو وحى الشر وخواطر الباطل والسوء فى النفس . ثم بين ذلك بما يفيد تعليل النهى فقال : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ أما السوء فهو كل ما يسوءك وقوعه أو عاقبته . وأما الفحشاء فكل ما يقبح فى أعين الناس من المعاصى والآثام ، ولا يختص بنحو الزنا كما قال بعضهم ، والفحشاء فى الغالب أقبح وأشد من السوء ، وأسوأ السوء مبدأ وعاقبة ترك الأسباب الطبيعية التى قضت حكمة البارى بربط المسببات بها اعتمادا على أشخاص تعتقد فيهم السلطة الغيبية والتصرف فى الأكوان بدون اتخاذ الأسباب ﴿ وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾

وهذا أقبح ما يأمر به الشيطان ، فإنه الأصل فى إفساد العقائد وتحريف الشرائع واستبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فكل من يزيد فى الدين عقيدة أو حكما - من غير استناد إلى كلام الله أو كلام المعصوم - فهو من الذين يقولون على الله ما لا يعلمون ، مثل ذلك الزائرات للقبور وما يأتينه هناك من البدع والمنكرات باسم الدين وغير ذلك .

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ لم يخاطب هؤلاء ببطلان ما هم عليه وتشنيعه خطابا بل حكى عنهم حكاية ، وبين فساد مذهبهم فيها ، كأنه أنزلهم منزلة من لا يفهم الخطاب ولا يعقل الحجج والدلائل ، وهؤلاء لا يرغبون عن اتباع ما أنزل الله استئناسا بما ألفوه مما ألفوا آباءهم عليه ، وحسبك بهذا شناعة ، إذ العاقل لا يؤثر على ما أنزل الله تقليد أحد من الناس مهما كبر عقله وحسن سيره ، فقد يكون هذا معرضا للخطأ والزلل ، فلا ثقة فى الدين إلا بما أنزل الله ، ولا معصوم إلا من عصم الله . على أنه لو لم يكن مؤمنا بالوحى لوجب

أن ينفره عن التقليد قوله تعالى ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ فان هذا حجة عقلية لا تنقض ، أى أيتبعون ما ألفوا عليه آباءهم ولو كان آباؤهم لا يسلكون طريق العقل بالاستدلال على أن ما هم عليه من العقائد هو الحق . ولا يهتدون طريق الاعتدال المشروع فى أعمالهم وأحوالهم . وعقل الشىء معرفته بدلائله وفهمه بأسبابه ونتائجه ، وأبعد الناس عن معرفة الحق المقلدون الذين لا يبحثون ولا يستدلون ، لأنهم قطعوا على أنفسهم طريق العلم ، وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ ومعنى المثل أن قصة هؤلاء وشأنهم كشأن الناعق بالغنم ، ولا يقتضى هذا أن يكون كل جزء من المشبه كمقابله من المشبه به ، والكفر جحود الحق والاعراض عنه والكافر هو الذى يرى الحق ويعرض عنه ويصرف نفسه عن دلائله وآياته فلا ينظر فيها ، فهو كالحيوان يرضى بأن لا يكون له فهم ولا علم بل يقوده غيره ويصرفه كيف شاء ، فهو مع من قلدهم من الرؤساء كالغنم مع الراعى ، تقبل

بدعائه وتنزجر بندائه ، مسخرة لارادته وقضائه ، ولا تفهم لماذا دعا ولماذا زجر ، فدعوتها للرعى والذبح سواء . ولذلك وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بقوله ﴿ صم ﴾ لا يسمعون الحق سماع تدبر وفهم ﴿ بكم ﴾ لا ينطقون به عن اعتقاد وعلم ﴿ عمى ﴾ لا ينظرون فى آيات الله وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ كما يطلب من الانسان ، وإنما ينقادون لغيرهم كما هو شأن الحيوان

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

التفسير

﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ وهذا تنبيه بعد ما تقدم إلى

عدم الالتفات إلى أولئك الحمقى الذين أبيحت لهم خيرات الأرض بأعمالهم فطفقوا يحلون بعضها ويحرمون بعضا بوساوس رؤسائهم ، فهو يقول كلوا من الطيبات ولا تضيقوا على أنفسكم مثلهم ﴿ واشكروا لله ﴾ الذى خلقها لكم وسهل عليكم أسبابها ، بأن تتبعوا سنته الحكيمة فى طلب هذه الطيبات واستخراجها ، وفى استعمالها فيما خلقت لأجله ، ومن الشكر له تعالى استعمال القوى التى غذيت بتلك الطيبات فى نفع أنفسكم وأمتكم وجنسكم ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أى إن كنتم تخصونه بالعبادة والاعتقاد بالانفراد بالسلطة والتأثير ، ولا تجعلون له أندادا تطلبون منهم الرزق وترجعون اليهم بالتحليل والتحريم ، فان ذلك له وحده وإلا كنتم به كافرين كالذين من قبلكم الذين اتخذوا بينهم وبين الله وسطاء فى طلب الرزق ، ورؤساء يحلون ويحرمون .

وبعد ذكر إباحة الطيبات ذكر المحرمات فقال عز وجل ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ لما فى الطباع السليمة من استقذارها ، ولما يتوقع من ضررها ، فانها إما أن تكون ماتت بمرض سابق أو بعلة عارضة وكلاهما لا يؤمن ضرره . وفى معنى الميتة كل ما أتلف بغير قصد الذكاة كالمنخنقه والموقوذة الخ ما ذكر فى آية المائدة ﴿ والدم ﴾ أى المسفوح كما فى آية الأنعام فانه قذر لا طيب وضار كالميتة ﴿ ولحم الخنزير ﴾ فانه قذر لأن غذاء الخنزير من القاذورات والنجاسات وهو ضار فى جميع الأقاليم كما ثبت بالتجربة ، وأكل لحمه من أسباب الدودة الوحيدة القتالة ﴿ وما أهل لغير الله ﴾ وهو ما كان يذبح ويقدم للأصنام أو غيرها مما يعبد ، والمنع من هذا دينى محض لحماية التوحيد لأنه من أعمال الوثنية ، فكل من أهل لغير الله على ذبيحة فانه يتقرب إلى من أهل باسمه تقرب عبادة ، وذلك من الشرك والاعتماد على غير الله . وقد ذكر الفقهاء أن كل ما ذكر عليه اسم غير الله — ولو مع اسم الله — فهو محرم ﴿ فمن اضطر ﴾ إلى الأكل مما ذكر بأن لم يجد ما يسد به رمقه سواه ﴿ غير باغ ﴾ له أى غير طالب له راغب فيه لذاته ﴿ ولا عاد ﴾ يتجاوز قدر الضرورة ﴿ فلا إثم عليه ﴾ لا ذنب

عليه ، لأن الألقاء بنفسه الى التهلكة بالموت جوعا أشد ضررا من أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير ﴿ان الله غفور رحيم﴾ إذ حرم على عباده الضار ، وجعل الضرورات بقدرها لينتفى الحرج والعسر عنهم .

وقد فسر الجلال (باغ) بالخارج عن المسلمين (وعاد) بالمعتدى عليهم بقطع الطريق ويلحق بهم كل عاص بسفره كالآبق والمكاس وعليه الشافعى . ولا خلاف بين المسلمين فى أن العاصى كغيره يحرم عليه إلقاء نفسه فى التهلكة ، ويجب عليه توقى الضرر ، ويجب علينا دفعه عنه إن استطعنا ، فكيف لا تتناوله اباحة الرخص

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ﴾ هذه الآيات جارية على الرؤساء الذين يحرمون على الناس ما لم يحرم الله ويشرعون لهم ما لم يشرعه من حيث يكتمون ما شرعه بالتأويل أو الترك سواء كان ذلك فى أمر الأكل والتقشف والعقائد ، وفى حكمهم كل من يبدى بعض العلم ويكتم بعضه لمنفعته لا لإظهار الحق وتأييده . وهذا هو ما عبر عنه بقوله ﴿ يشترون به ثمنا قليلا ﴾ إذ اتخذوا الدين تجارة والثمن القليل منه ما قاله المفسر من استفادة الرؤساء من المرءوسين ومنه عكسه كما تقدم غير مرة . وقال المفسرون هذا الحكم يصدق على المسلمين كما يصدق على أهل الكتاب ، لأن الغرض تقرير الحكم وهو عام كما يدل لفظه وكما يليق بعدل الله تعالى رب العالمين . فكل ثمن يؤخذ عوضا عن الحق فهو قليل ان لم يكن قليلا فى ذاته فهو قليل فى جنب ما يفوت آخذه من سعادة الحق الثابتة بذاتها والدائمة بدوام المحافظة على الحق ولو دام للمبطل ما يتمتع به من ثمن الباطل الى نهاية الأجل ، وما هو إلا قصير ، فماذا يفعل وقد فاتته بذلك سعادة الروح ونعيم الآخرة باختياره الباطل على الحق ﴿وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل﴾ أولئك ﴿ ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ﴾ أى لا تملأ بطونهم إلا النار ، والمراد أنه لا يشبع جشعهم ولا يذهب بطمعهم الا النار التى يصيرون اليها ، وقيل ان المراد بالنار سببها ، أى أن ما يأكلون ثمنا لكتمان الحق سيوردهم النار لأنه سبب لعذاب الله .

﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ﴾ قالوا إن نفى الكلام كناية عن الإعراض عنهم والغضب عليهم ﴿ ولا يزكيهم ﴾ أى لا يطهرهم بالعفو والمغفرة ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ بمعنى مؤلم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ فأما الهدى فهو كتاب الله وشرعه ، وأما الضلالة فهى العماية التى لا يهتدى بها الانسان لمقصده وتكون باتباع آراء الناس فى الدين ، وليس لأحد أن يقول فى الدين برأيه ، وهذه الآراء لا ضابط لها ولا حد لها ، فأهلها فى خلاف وشقاق ، فان ذلك عين اتباع الهوى ، وشراء الضلالة بالهدى ، فان الله وحده هو الذى يبين حدود العبودية وحقوق الربوبية فلا هداية إلا بفهم ما جاء به رسله عنه ﴿ والعذاب بالمغفرة ﴾ وهذا أثر ما قبله ، فان متبع الهدى هو الذى يستحق المغفرة لما يفرط منه وما لم يلم به من السوء ، ومتبع الضلالة هو المستحق للعذاب ، ومن دعى إلى الحق يعرف ذلك فاذا هو اختار الضلالة بعد صحة الدعوة وقيام الحجة فقد اشترى العذاب بالمغفرة ، وكان هو الجانى على نفسه غرورا بالعاجل واستهانة بالآجل ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ قيل هذا على وجه الاستهانة بهم والاستخفاف بأمرهم ، كأنه قال اعجبوا من صبرهم على النار ومكثهم فيها ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ أى ذلك الحكم الذى تقرر فى شأنهم بأن الكتاب جاء بالحق ، والحق لا يغالب فمن غالبه غلب ومن خذله خذل . ثم قال ﴿ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ وهذا حكم آخر فى الكتاب غير حكم كتمانه فهو يفهمنا أن الخلاف فيه بعد عن الحق لكتمانه لأن الحق واحد وهو ما يدعو اليه الكتاب ، والمختلفون لا يدعون الى شىء واحد ولا يسلكون سبيلا واحدة ﴿ وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وهذا دليل على أنه لا يجوز لأهل الكتاب الإلهى أن يقيموا على خلاف فى الدين وأن يكونوا شيعا كل يذهب الى مذهب ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ﴾

ولما كان اختلاف الفهم ضروريا وجب عليهم أن يتحاكموا فى الخلاف الى كتاب الله وسنة رسوله حتى يزول ولا يقيموا عليه ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه

الى الله والرسول ﴾ فلا عذر للمسلمين فى الاختلاف فى دينهم بعد هذا البيان الذى جعل لكل مشكل مخرجا ، والشقاق الخلاف والتعادى ، وحقيقته أن يكون كل واحد فى شق أى فى جانب ، والمختلفون فى الدين ينأى كل بجانبه عن الآخر فيكون الشقاق بينهما بعيدا كما نرى

لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

التفسير

كثر الجدل حول تحويل القبلة ، فكان أهل الكتاب يرون أن الصلاة الى غير قبلتهم لا تقبل ، ولا يكون صاحبها على دين الأنبياء . والمسلمون يرون أن الصلاة الى المسجد الحرام هى كل شىء ، لانه قبلة ابراهيم ، وأول بيت وضع لعبادة الله تعالى . فاراد الله تعالى أن يبين للناس أن مجرد تولية الوجه قبلة مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين ، وتولية الوجه وسيلة للتذكير بتولية القلب إلى الله تعالى ، والاعراض عن كل ما سواه ، والاقبال على مناجاته ودعائه . ويبين لهم أصول البر ومقاصد الدين فقال :

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ والكلام هنا ظاهر

﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ والبر اسم جامع للخير . ابتدأ بذكر الايمان بالله واليوم الآخر لأنه أساس كل بر ومبدأ كل خير ، ولا يكون الايمان أصلا للبر إلا إذا كان متمكنا من النفس بالبرهان ، مصحوبا بالخضوع والاذعان ، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى المؤمن من كل شيء ويؤثر أمرهما على كل شيء . والايمان المطلوب معرفة تتمثل للمؤمن اذا عرضت له دواعى الشر وأسباب المعاصى فتحول دونها ، فاذا نسى فأصاب الذنب بادر إلى التوبة والأنابة . الايمان المطلوب اذا علم صاحبه بأن الايمان أصيب بمصيبة كانت مصيبته فى دينه أشد عليه من المصيبة فى نفسه وماله وولده ، وكان انبعاثه الى تلافيها أعظم من انبعاثه الى دفع الأذى عن حقيقته ، وجلب الرزق الى نفسه وعشيرته . وايمان المقلد لا غيرة معه على الدين ولا على الايمان ﴿واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين﴾

فالايمان بالله يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية أو السلطة الدنيوية وهى سلطة الملك ، فان العبودية لغير الله تعالى تهبط بالبشر الى دركة الحيوان المسخر ، أو الزرع المستنبت .

والايمان باليوم الآخر — وهو يوم الجزاء — وبالملائكة وهم من عالم الغيب يعلم الانسان أن له حياة فى عالم غيبي أعلى من هذا العالم ، فلا يرضى أن يكون سعيه وعمله لأجل خدمة هذا الجسد خاصة ، لأن ذلك يجعله لا يبالى إلا بالأمور البهيمية .

والايمان بالملائكة أصل للايمان بالوحى لأن ملك الوحى روح عاقل عالم يفيض العلم باذن الله على روح النبي بما هو موضوع الدين ، ولذلك قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتاب والنبيين ، فهم الذين يؤتون النبيين الكتاب .

والايمان بالكتاب يستلزم العمل به ، فان المؤمن الموقن بأن هذا الشيء قبيح ضار لا تتوجه إرادته الى إيتائه ، والمؤمن الموقن بأن هذا الشيء حسن نافع لا بد أن تتوجه اليه نفسه عند عدم المانع . فما بال مدعى الايمان بالكتاب قد أعرضوا عن

امتثال أمره ونهيه ، حتى صاروا يعدون حفظه وقراءته من موانع الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ، فكان من قوانينهم أن حافظ القرآن لا يطالب بتعلم فنون الحرب والجهاد لأنه حافظ . بخل القراء والمتفقهة بفضل الله تعالى ، فجازاهم الله تعالى على بخلهم ، ووفاهم ما يستحقون على سوء ظنهم بربهم ، حتى صاروا فى مكانة لا يغبطون عليها ، بل فى مكانة يرثون لها

والايمان بالنبيين يقتضى الاهتداء بهديهم ، والتخلق باخلاقهم ، والتأدب بآدابهم . ويتوقف هذا على معرفة سيرتهم والعلم بسنتهم . ثم ذكر تعالى - بعد بيان أصول الايمان - أصول الأعمال الصالحة التى هى ثمرته ، وبدأ بأقواها دلالة عليه فقال ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أى وأعطى المال لاجل حبه تعالى ، أو على حبه إياه أى المال . وهو لا يشترط فيه نصاب معين ، بل هو على حسب الاستطاعة ، وهو ركن من أركان البر ، وواجب كالزكاة ، وذلك حيث تعرض الحاجة الى البذل فى غير وقت أداء الزكاة ، بأن يرى الواحد مضطرا بعد أداء الزكاة أو قبل تمام الحول ، وأمر الله تعالى أن يعطى من غير الزكاة ﴿ ذوى القربى ﴾ وهم أحق الناس بالبر والصلة . فمن قطع الرحم ، ورضى بان ينعم وذوو قرباه بائسون فهو برىء من الفطرة والدين ، وبعيد من الخير والبر - ومن كان أقرب رحما كان حقه آكد ، وصلته أفضل . ﴿ واليتامى ﴾ فانهم — لموت كافلهم — تتعلق كفالتهم وكفايتهم بأهل الوجد واليسار من المسلمين ، كيلا تسوء حالهم ، وتفسد تربيتهم ، فيكونوا مصابا على أنفسهم وعلى الناس . ﴿ والمساكين ﴾ فانهم لما قعد بهم العجز عن كسب ما يكفيهم ، وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن مد كف الذليل ، وجبت مساعدتهم ومواساتهم ﴿ وابن السبيل ﴾ المنقطع فى السفر ، لا يتصل بأهل ولا قرابة ، حتى كأن السبيل أبوه وأمه وأهله . وفى الأمر بمواساته وإعانته فى سفره ترغيب من الشرع فى السياحة والضرب فى الأرض . ﴿ والسائلين ﴾ الذين تدفعهم الحاجة العارضة الى تكفف الناس . والسؤال محرم شرعا الا لضرورة يجب على السائل أن لا يتعداها . ﴿ وفى الرقاب ﴾ أى فى تحريرها وعتقها . وهو يشمل ابتياع الأرقاء وعتقهم وإعانة المكاتبين على أداء نجومهم (المكاتب هو الرقيق

يشترى نفسه من مولاه بثمن يجعله أقساطا ، وهى ما تسمى فى اللغـــة بالنجوم) . ومساعدة الأسرى على الافتداء . وفى جعل هذا النوع من البذل حقا واجبا فى أموال المسلمين دليل على رغبة الشريعة فى فك الرقاب واعتبارهـا أن الانسان خلق ليكون حـرا .

﴿ وأقام الصلاة ﴾ وهذا هو الركن الروحانى الركين للبر ، والبر والتقوى فى سر الصلاة وروحها الذى تصدر عنه آثارهـا ، من النهى عن الفحشاء والمنكر ، وقلب الطباع السقيمة والاستعاضة عنها بالغرائز المستقيمة ، فمن حافظ على الصلاة الحقيقية تطهرت نفسه من الهلع والجزع اذا مسه الشر ، ومن البخل والمنع اذا مسه الخير ، وكان شجاعا كريما قوى العزيمة شديد الشكيمة لا يرضى بالضيم ولا يخشى فى الحق العذل واللوم ، لأن الله تعالى يكون غالبا على أمره ، فلا يبالى ما لقى من الشدائد فى سبيله ، وما أنفق من فضله ابتغاء مرضاته ، فهذا هو البر

﴿ وآتى الزكاة ﴾ وتقرن الصلاة بالزكاة ـ فالصلاة مهذبة للروح . والمـــال كما يقولون قرين الروح فبذله فى سبيل الحق ركن عظيم من أركان البر ، وآية من أظهر آيات الايمان . ولذلك أجمع الصحابة عليهم الرضوان على محاربة مانعى الزكاة ، فمانع الزكاة يهدم فى الظاهر ركنا من أعظم أركان الاسلام ، وينقض فى الباطن من تحته أساس الايمان . وقد بينت السنة بالهدى والعمل كيفية الأخذ وقدر المأخوذ وسائر الاحكام . وليس فيها شىء يصح أن يكون شبهـة لإبطال الكتاب والهروب من الاهتداء به .

﴿ والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ﴾ العهد عبارة عما يلتزم به المرء لآخر ، وهو بعمومه يشمل ما عاهد المؤمنون عليه الله بايمانهم من السمع والطاعة والاذعان لكل ما جاء به دينه . ويذكر العهد فى القرآن والسنة كثيرا ويراد به فى الغـالب ما يعاهد به الناس بعضهم بعضا عليه . ويشترط فى وجوب الوفاء بالعهد أن لا يكون فى معصية . وفى معنى العهود العقود ، وقد أمرنا بالوفاء بها ، فيجب على المسلم أن يلتزم الوفاء بما يتعاقد عليه مع الناس ما لم يكن مخالفا لأمر الله ورسوله الثابت عنده ولقواعد الدين العامة . إن الايفـاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض التى فرضهـا الله تعـالى لنظام

المعيشة والعمران . والغدر والاخلاف من الذنوب الهادمة للنظام ، المفسدة للعمران المفنية للامم .

﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ﴾ قالوا إن البأساء اسم من البؤس ، وهو الشدة والفقر . والضراء ما يضر الانسان من نحو مرض أو قرح أو فقد محبوب من مال وأهل . وفسروا البأس باشتداد الحرب .

والصبر يحمد فى هذه المواقف كلها ويحمد فى غيرها . واما حالة اشتداد الحرب فهى على ما فيها من الشدة والتعرض للهلكة بخوض غمرات المنية يطلب فيها من الصبر مالا يطلب فى غيرها ، لأن الظفر مقرون بالصبر ، وبالظفر حفظ الحق الذى يناضل من يجاهد فى سبيل الله دونه ويدافع عنه ويحاول إظهاره ويبغى انتشاره ، وهذا هو المأمور من الله تعالى بالصبر حين البأس ، لا المحارب لطمع الدنيا وأهواء الملوك ، وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر ، وعبر عنه فى بعضها بالكفر ، فلا غرو ان يجعل الصبر فى البأس أصلا من أصول البر ، وقد كان المسلمون بارشاد هذه النصوص أعظم أمة حربية فى العالم ، فما زال استبداد الحكام يفسد من بأسهم ، وترك الاهتداء بالكتاب والسنة يفل من عزمهم حتى سبقتهم الأمم كلها فى ميادين الكفاح . وهذا البعد عن الدين لا يصل اليه أحد إلا بخذلان من الله

أنظر بعد هذا حكم الله تعالى على البررة الذين يقيمون ماتقدم ذكره من أركان البر ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ فى دعوى الإيمان ، دون الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ الذين تشهد لهم بالتقوى أعمالهم وأحوالهم . والتقوى أن تجعل بينك وبين سخط الله وقاية بأن تتحامى أسباب خذلانه فى الدنيا وعذابه فى الآخرة ، وذلك بأن تتبع أوامره وتنتهى عما نهى عنه

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى : الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ

بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم (١٧٨) ولكم فى القصاص حيوة ياأولى الألباب لعلكم تتقون (١٧٩) كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين (١٨٠) فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم (١٨١) فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم (١٨٢)

التفسير

﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ﴾ القصاص فى أصل اللغة يفيد المساواة فمعنى القصاص هنا أن يقتل القاتل ، لأنه فى نظر الشريعة مساو للمقتول فيؤخذ به ، فالغرض من الآية مشروعية القصاص بالعدل والمساواة وإبطال ذلك الامتياز الذى كان للاقوياء على الضعفاء فى زمن الجاهلية . أنزلت هذه الآية فى حيين من العرب لأحدهما طول على الآخر ، وكانوا يتزوجون نساء بغير مهور ، وأقسموا لنقتلن بالعبد منا الحر منهم ، وبالمرأة منا الرجل منهم ، وبالرجل منا الرجلين منهم ، وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراح أولئك ، حتى جاء الاسلام فأنزل هذه الآية ولذلك قال ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ أى أن هذا القصاص لاهوادة فيه ولا جور ، فاذا قتل حر حراً يقتل هو به لاغيره من سادات القبيلة ولا أكثر من واحد ، وإذا قتل عبد عبداً يقتل هو به لاسيده ولا أحد من الأحرار من من قبيلته ، وكذلك المرأة إذا قتلت تقتل هى ولا يقتل واحد فداء عنها خلافا لما كانت عليه الجاهلية فى ذلك القصاص على القاتل نفسه أيا كان لا على أحد من قبيلته . وقد جرى العمل من زمن الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الآن على قتل الرجل

بالمرأة ، واختلفوا فى قتل الحر بالعبد فذهب أبو حنيفة وابن أبى ليلى وداود إلى أنه يقتل به إذا لم يكن سيده ، وذهب الجمهور إلى أنه لايقتل به مطلقا . والقرآن فوق كل خلاف ، فمنطوق الآية لامجال للخلاف فيه ، وهو أن الحر يقتل بالحر الخ ، وأما كون الحر يقتل بالعبد والرجل بالمرأة فهذا يؤخذ من لفظ القصاص ولا يعارضه مفهوم التفصيل ، وقال البيضاوى « ان المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم » . ويدخل فى عموم الآية الكافر ، وبه قال بعضهم ، وقال الجمهور لايقتل به المسلم . واستثنى من عمومها السيد يقتل بعبده ، قالوا لايقتل ولكن يعزر . وللحاكم ان يقرر هذا التعزير بشدة ، وقد يكون التعزير بالقتل فللإمام ان يقتل السيد ببعده تعزيراً لاحداً إذا رأى المصلحة العامة فى ذلك ﴿ فمن عفى له من أخيه شىء ﴾ وإنما يعفو من له حق طلب القصاص . وقد جعل الله هذا الحق لأولياء المقتول وهم عصبته الذين يعتزون بوجوده ويهانون بفقده ، وفى حالة عفوهم عن القاتل يوجب الله تعالى حجب الدم ، وليس للحكومة أن تمتنع من العفو إذا رضوا به ، ولا تستقل بالعفو إذا طلبوا القصاص . ولما كان العفو عن القصاص يتضمن أخذ الدية قال تعالى ﴿ فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ﴾ أى فاتباع العفو بالمعروف واجب على العافى وغيره فعليه ان لايرهق القاتل من أمره عسرا ، بل يطلب منه الدية بالرفق والمعروف ﴿ وأداء اليه باحسان ﴾ خطاب للقاتل أى أن الأداء بالإحسان واجب عليه بأن لايمطل ولا ينقص ولا يسىء فى كيفية الأداء . ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ﴾ وأى تخفيف ورخصة أفضل من حجب الدم بتجويز العفو وقبول الدية ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ اى بعد العفو والرضى بالدية بأن انتقم من القاتل ﴿ فله عذاب اليم ﴾ قيل معناه انه يتحتم قتل الولى العافى او غيره إذا قتل القاتل بعد العفو ، ولا يجوز العفو عنه بل يقتله الحاكم وإن عفا عنه ولى المقتول ، وبه قال جماعة من المفسرين ، والمراد بالعذاب الأليم عذاب الآخرة

﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ هذه الآية الحكيمة قررت ان الحياة هى المطلوبة بالذات ، وان القصاص وسيلة من وسائلها ، لأن من علم انه إذا قتل نفسا يقتل بها

يرتدع عن القتل فيحفظ الحياة على من أراد قتله وعلى نفسه ﴿ ياأولى الألباب ﴾ خص بالنداء اصحاب العقول الكاملة كأنه يقول إن ذا اللب هو الذى يفقه سر هذا الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة ، فعلى كل مكلف أن يستعمل عقله فى فهم دقائق الأحكام وما فيها من المنفعة للأنام ﴿ لعلكم تتقون ﴾ الاعتداء ، وتكفون عن سفك الدماء ، والمعنى : ثبتت لكم الحياة فى القصاص ، لتعدكم وتهيئكم للتقوى والاحتراس من سفك الدماء وسائر ضروب الاعتداء ، إذ العاقل حريص على الحياة ولوع بالأخذ بوسائلها والاحتراس من غوائلها

﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴾ لما ذكر لولى الدم أن يقتص فهذا الذى أشرف على أن يقتص منه وهو سبب الموت ، فكأنما حضره الموت ، فهذا أوان الوصية . فالآية مرتبطة بما قبلها ومتصلة بها . والخطاب موجه الى الناس كلهم بأن يوصوا بشىء من الخير ، لاسيما حال حضور الموت ، لتكون خاتمة أعمالهم خيرا . وفسروا الخير بالمال وقيده الأكثرون بالكثير . والآية غير منسوخة بآية المواريث لأنها لاتناقضها بل تؤيدها ، ولا دليل على أنها بعدها ، ولا بالحديث لأنه لايصلح لنسخ الكتاب ، وإن حكمها باق ، ولك أن تجعله خاصا بمن لايرث من الوالدين والأقربين كما روى عن بعض الصحابة ، وأن تجعله على إطلاقه ، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون بدعوى النسخ فتنبذ ما كتبه الله عليك بغير عذر ، لاسيما بعدما أكده بقوله : ﴿ حقا على المتقين ﴾ وبقوله ﴿ فمن بدله ﴾ أى ماأوصى به الموصى ﴿ بعد ما سمعه ﴾ وعلم به ﴿ فانما إثمه على الذين يبدلونه ﴾ من ولى ووصى وشاهد ، وقد برئت منه ذمة الموصى ﴿ ان الله سميع ﴾ لما يقوله المبدلون فى ذلك ﴿ عليم ﴾ بأعمالهم ، فيجازيهم عليه . وقوله سميع عليم يتضمن تأكيد الوعيد

﴿ فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه ﴾ الجنف الخطأ والإثم ، يراد به تعمد الإجحاف والظلم ، والمعنى أن من يتوقع النزاع للجنف أو الاثم فله أن يتصدى للاصلاح وإن لم يكن موقنا بذلك وقت الخوف . وللتعبير عن

مثل هذا العلم بالخوف شواهد فى كلام العرب ، والمصلح مثاب مأجور ، ونفى الاثم عن تبديل الوصية المحرم تبديلها يشعر بذلك ، إذ لو لم يكن التبديل للاصلاح مطلوباً لم ينف الاثم عنه والمراد أن من خاف من موص فى حال مرضه الذى يريد أن يوصى فيه جنفا وهو أن يعطى بعضا ويضر ببعض فلا إثم عليه أن يشير عليه بالحق ويرده إلى الصواب ويصلح بين الموصى والورثة والموصى له ، حتى يكون الكل راضين ، ولا يحصل جنف ولا إثم ، ويكون قوله ﴿فاصلح بينهم﴾ أى فيما يخاف من حدوث خلاف بينهم فيما بعد . وختم الكلام بقوله ﴿ان الله غفور رحيم﴾ للاشعار بما فى هذا الكلام من المصلحة والمنفعة وبأن من خالف لأجل المصلحة فهو مغفور له .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

التفسير

﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ كتب : فرض . والصيام فى اللغة : الامساك والكف عن الشىء . وفى الشرع : الامساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء من الفجر الى المغرب احتساباً لله واعداداً للنفس وتهيئة لها لتقوى الله بالمراقبة وتربية الارادة . وقد كتب على أهل الملل السابقة فكان ركناً من كل دين ، لأنه من أقوى العبادات وذرائع التهذيب . وفى إعلام الله تعالى لنا بأنه فرضه علينا كما فرضه على الذين من قبلنا إشعار بوحدة الدين فى أصوله ومقصده ، وتأكيد لأمر هذه الفرضية وترغيب فيها ﴿ لعلكم تتقون ﴾ جاء الإسلام يعلمنا أن الصوم ونحوه إنما فرض لأنه يعدنا للسعادة بالتقوى ، وهى العمل بأمره والانتهاء عما نهى عنه اتقاء غضبه . وأن الله غنى عنا وعن عملنا ، وما كتب علينا الصيام إلا لمنفعتنا

والصيام أعظم مرب للارادة ، وكابح لجماح الأهواء ، فأجدر بالصائم أن يكون حراً يعمل مايعتقد أنه خير ، لاعبداً للشهوات . والصوم لا يتوقف أداؤه على ترك الشهوات الحسية ، وإنما يتبع ذلك ترك المعاصى والآثام كما جاء فى الحديث « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه »

﴿ أياماً معدودات ﴾ أى معينات بالعدد أو قليلات ، وهى أيام رمضان . ولما كان فرض الصيام بما ذكر يفيد العموم استثنى منه من يشق عليهم أداؤه ومن هم عرضة للمشقة فقال ﴿ فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ أى فالواجب عليه القضاء بعدد الأيام التى لم يصمها - وكل من المريض والمسافر عرضة لاحتمال المشقة بالصيام - وإطلاق كلمة مريض يدل على أن الرخصة لا تتقيد بالمرض الشديد الذى يعسر معه الصوم - وكذلك السفر مطلق يشمل الطويل والقصير ، وقد جاء فى السنة مايؤيد هذا الاطلاق فى السفر القصير ، ثم قال تعالى ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ وهو من لايستطيع الصوم إلا بمشقة شديدة : والاطاقة أدنى درجات المكنة والقدرة على الشىء ، فلا تقول العرب أطاق الشىء إلا إذا كانت قدرته عليه فى نهاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة ، قال ﷺ « إن الله عز

وجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة وعن الحبلى والمرضع الصوم ، وروى عن ابن عباس أنه قال : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم ولا قضاء عليه . وهذا ظاهر فى معنى الآية ، وهو مذهب الشافعية فى الشيوخ والعجائز ومن فى حكمهم .

وجملة القول أن المؤمنين على أقسام فى الصوم :

الأول : المقيم الصحيح القـــادر على الصوم بلا ضرر يلحقه ولا مشقة ترهقه ، والصوم واجب عليه حتما

الثانى : المريض والمسافر يباح لهما الافطار مع وجوب القضاء ، لأن من شأن المرض والسفر التعرض للمشقة العارضة ، فان تعرضا للضرر بالفعل بأن علما أو ظنا ظناً قوياً بأن الصوم يضرهما وجب الأفطار

الثالث : من يشق عليه الصوم لسبب لا يرجى زواله كالهرم والمرض المزمن الذى لا يرجى برؤه ، وكذلك الحامل والمرضع ، وهؤلاء لهم أن يفطروا ويطعموا بدلا عن كل يوم مسكينا مدا من الطعام على الأقل .

ثم قال تعالى بعد بيان الواجب الحتم والرخص فيه ﴿ فمن تطوع خيرا ﴾ بأن زاد على تلك الأيام المعدودات ، وقيل من تطوع خـــيراً بالزيادة على القدر المذكور فى الفدية ﴿ فهو خير له ﴾ لأن فائدته وثوابه له ، ﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾ أى والصيام خير لكم لما فيه من رياضة الجسد والنفس وتربيـة الارادة وتغذية الايمان وتقويته بمراقبة الله تعالى ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ وجه الخير فيـه . قال تعالى ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ الخ فبين أن تلك الأيام المعدودات هى أيام شهر رمضان ، وأن الحكمة فى تخصيص هـذا الشهر بهذه العبادة هى أنه الشهر الذى نزل فيه القرآن ، وأفيضت على البشر فيه هداية الرحمن ، فحق أن يعبد الله تعالى فيه مالا يعبد فى غيره تذكراً لانعامه بهذه الهداية وشكراً عليها . والقرآن يمتاز على سائر الكتب السماوية بأنه آيات بينات من الهدى الذى توصف به كلها ، وبينات من الأمر الالهى الفارق بين الحق والباطل ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ إن الله ما أوجب الصيام فى رمضـــان إلا على من شهد الشهر وحضره ،

والذين ليس لهم شهر مثله يسهل عليهم أن يقدروا قدره كالبلاد التى فى شمال الكرة الأرضية أو جنوبها . وقد ذكر الفقهاء مسألة التقدير بعد ما عرفوا بعض البلاد التى يطول نهارها ويقصر ليلها . واختلفوا فى التقدير على أى البلاد يكون فقيل على البلاد المعتدلة التى وقع فيها التشريع كمكة والمدينة ، وقيل على أقرب بلاد معتدلة اليهم . ثم أعاد ذكر الرخصة فقال تعالى ﴿ فمن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ إن تأكيد الصوم بمثل ما أكده الله تعالى به يقتضى تأكيداً أمر الرخصة ولولا ذلك ماأتاها متق ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ فيما شرعه ويشرعه لكم من الأحكام ، والله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه ، ومنه أخذوا قاعدة « المشقة تجلب التيسير »

﴿ ولتكملوا العدة ﴾ والمعنى رخص لكم لأنه يريد بكم اليسر وأن تكملوا العدة فمن لم يكملها أداء لعذر أكملها قضاء ﴿ ولتكبروا الله على ماهداكم ﴾ اليه من الأحكام النافعة لكم ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم بالقيام بها على وجهها فتكونوا من الكاملين

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب ﴾ لما أمر الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم ، سميع لأقوالهم ، مجيب لدعائهم ، مجاز على أعمالهم تأييدا له وحثا عليه ﴿ أجيب دعوة الداعى ﴾ منهم بنفسى من غير واسطة ﴿ إذا ﴾ هو ﴿ دعان ﴾ وتوجه إلى وحدى فى طلب حاجته . أى يجب أن يدعى وحده بدون واسطة . والدعاء المجاب كما قال بعض السلف الصالح هو الدعاء بلسان الاستعداد . وقد استعاذ النبى عليه الصلاة والسلام من الطمع فى غير مطمع ، فمن يترك السعى والكسب ويقول : يارب ألف جنيه ؟ فهو غير داع ، وإنما هو جاهل يشبه أن يكون ساخرا ومستهزئا . ومثل ذلك المريض لايراعى الحمية ولا يتخذ الدواء ويقول : رب اشفنى وعافنى . كأنه يقول اللهم أبطل سنتك التى قلت إنها لاتبدل ولا تحول . ﴿ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى ﴾ أى فليجيبوا دعوتى إلى الإيمان والأعمال النافعة لهم - كالصيام وغيره

مما أدعوهم اليه - كما أجيب دعوتهم بقبول عبادتهم وتولى إعانتهم ، ثم قال ﴿ لعلهم يرشدون ﴾ فعلمنا أن الأعمال إذا لم تكن صادرة بروح الإيمان لايرجى أن يكون صاحبها راشدا مهديا ، فمن يصوم اتباعا للعادة وموافقة للهوى فان الصيام لايعده للتقوى ولا للرشاد ، وربما زاده فساداً فى الأخلاق وانغماسا فى الشهوات

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

التفسير

﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ ليلة الصيام هى الليلة التى يصبح منها المرء صائما ﴿ الرفث ﴾ تعطى معنى مالا يصح التصريح به فى شأن الرجل مع المرأة وليست هى من الألفاظ الصريحة فى ذلك . فالمعنى أحل لكم ذلك الأمر الذى لاينبغى التصريح به . قال الزجاج : الرفث كلمة لكل مايريد الرجل من امرأته . وكذلك قال الأزهرى ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ قول مستأنف سيق لبيان الحكم أى إذا كان بينكم وبينهن هذه الملابسة والمخالطة فان اجتنابهن عسر عليكم فلهذا رخص لكم فى مباشرتهن ليلة الصيام . ولفظ لباس هنا مصدر لابسه بمعنى خالطه وعرف

دخائله ، لا بمعنى اللباس والازار على المرأة إذ لا معنى لهذا هنا . ثم قال ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ﴾ أى تنتقصونها بعض ما أحل الله لها من اللذات توهما أن من قبلكم كان كذلك ، أو معناه تخونون أنفسكم إذ تعتقدون شيئا ثم لا تلتزمون العمل به ، فهو مبالغة من الخيانة التى هى مخالفة مقتضى الأمانة ﴿ فتاب عليكم وعفا عنكم ﴾ وتفسر التوبة بالرجوع عليهم ببيان الرخصة بعد ذكر فرض الصيام مجملا والتشبيه فيه مبهما ، ويكون العفو عن الخطأ فى الاجتهاد الذى أدى إلى التضييق على النفس وإيقاعها فى الحرج ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ أى أذن لكم الآن بأن تباشروا النساء بالنية الصالحة المحدودة فى نظام الفطرة من جعل المباشرة سببا للنسل بقصد إحياء سنة الله فى الخليقة لا لمحض شهوة النفس واللذة ، وقيل إن العبارة تتضمن النهى عن المباشرة المحرمة ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ أى يباح لكم الأكل والشرب كالمباشرة عامة الليل حتى يتبين لكم الفجر ، فمتى تبين وجب الصيام ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ وابتداء الليل بغروب الشمس . فالصيام يكون من مطلع الفجر إلى غروب الشمس ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ والاعتكاف الملازمة ولما كان المعتكف ملازما للعمل بطاعة الله مدة اعتكافه لزمه هذا الاسم ، ونهى عن المباشرة حال كونه معتكفا فى المساجد ﴿ تلك حدود الله ﴾ الاشارة إلى الأحكام التى تقدمت وسميت حدوداً لأنها حددت الأعمال وبينت أطرافها وغاياتها ، حتى إذا تجاوزها العامل خرج عن حد الصحة وكان عمله باطلا ، والحد طرف الشىء وما يفصل بين شيئين . وقوله ﴿ فلا تقربوها ﴾ لأنه يرشد إلى الاحتياط فمن قرب من الحد أوشك أن يعتديه . وأصل الحد المنع ، وسميت الأوامر والنواهى حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها وأن يخرج عنها ما هو منها . ومعنى النهى عن قربانها النهى عن تعديها بالمخالفة لها . وقيل ان حدود الله هى محارمه فقط ومنها المباشرة من المعتكف

﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ أى على هذا النحو من البيان يبين

لهم آياته ليعيدهم للتقوى والتباعد عن الوهم والهوى ، أى لكى يتقوا معاصيه وتعدى حدوده فيما أمرهم به ونهاهم عنه وأباحه لهم ، وفى هذا دلالة على أن الله تعالى أراد التقوى من جميع الناس

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢)

التفسير

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أى بالغصب والظلم والوجوه التى لا تحل ، لأن ذلك جناية على نفس الآكل من حيث هو جناية على الأمة التى هو أحد أعضائها فلا بد أن يصيبه سهم من كل جناية تقع عليها ، فهو باستحلاله مال غيره يجرىء غيره على استحلال أكل ماله عند الاستطاعة ، فما أبلغ هذا الايجاز ، ويدخل فى هذا الباب التعدى على الناس بغصب المنفعة بأن يسخر بعضهم بعضاً فى عمل لا يعطيه عليه أجراً أو ينقصه من الأجر المسمى أو أجر المثل ، ويدخل فيه سائر ضروب التعدى والغش والاحتيال من السماسرة

والمخادعين وباعة التمائم ، وكذا العزائم وختمات القرآن والعدد المعلوم من سورة (يس) . ان كل أجر يؤخذ على عبادة فهو أكل لأموال الناس بالباطل ، وقد مضى الصدر الأول ولم يكن أخذ الأجر على عبادة ما معروفا ولا يوجد فى كلام أهل القرن الأول والثانى كلمة تشعر بذلك . والحاصل أن مالم يبح الشرع أخذه من مالكه فهو مأكول بالباطل وإن طابت به نفس مالكه : كمهر البغى وحلوان الكاهن وثمن الخمر . والباطل فى اللغة : الذاهب الزائل ﴿ وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ إبطالا لهذا الاعتقاد ليعلم أن الحق لا يتغير بحكم الحاكم ، بل هو ثابت فى نفسه ، وليس على الحاكم إلا بيانه وإيصاله إلى مستحقه بالعدل . وقد نفت الآية الاشتباه وبينت أن الاستعانة بالحكام على أكل المال بالباطل محرم ، لأن الحكم لا يغير الحق فى نفسه ولا يحله للمحكوم له به . وفى الآية عبرة لوكلاء الدعاوى الذين يدعون بالمحامين . فلا يجوز لمن يؤمن منهم بالله واليوم الآخر أن يقبل الوكالة فى دعوى يعتقد أن صاحبها مبطل ، ولا أن يستمر فى محاولة إثباتها إذا ظهر بطلانها فى أثناء التقاضى

ومن مباحث اللفظ فى الآية أن الإدلاء بمعنى الإلقاء وقالوا انه فى الأصل إلقاء الدلو ، واختير هذا التعبير لأنه يشعر بعدم الروية . وإلقاء المال إلى الحكام يراد به الحكم للملقى . والاثم فسره بعضهم بشهادة الزور ، وبعضهم باليمين الفاجرة وهو أعم من ذلك . ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال ، وقد روى عن أبى حنيفة ما يخالف ذلك ، وهو مردود لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ كما فى حديث أم سلمة قال رسول الله ﷺ « انكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه بشى فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » وهو فى الصحيحين وغيرهما . وقال مجاهد : معنى الآية لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم

﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ الأهلة : جمع هلال ، وهو القمر فى ليلتين أو ثلاث من أول الشهر على الأشهر ، فهى مواقيت لهم فى صيامهم وحجهم من العبادات ، وفى نحو عدة النساء وآجال العقود من المعاملات .

فأن التوقيت بها يسهل على العالم بالحساب والجاهل به وعلى أهل البدو والحضر ، فهى مواقيت لجميع الناس . والمواقيت جمع الميقات وهو الوقت ، وقد سألوا عن اجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها ، فأجيبوا بالحكمة التى كانت تلك الزيادة والنقصان لأجلها ، لكون ذلك أولى بقصد السائل وأحق أن يتطلع لعلمه ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ فان فيه تعريضا بأن من يسأل النبى عما لم يبعث النبى لبيانه ولا يتوقف عرفانه على الوحى فهو فى طلبه الشىء من غير مطلبه كمن يطلب دخول البيت من ظهره دون بابه

وأما الحكم الذى أفادته الآية فهو إبطال ما كانوا يفعلونه فى الجاهليه إذا هم أحرموا من إتيان البيت من ظهره وتحريم دخوله من بابه . والبيوت جمع بيت ، وقد بين الله تعالى لهم البر الحقيقى فقال ﴿ ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أى أن البر هو تقوى الله تعالى بالتخلى عن المعاصى والرذائل ، وعمل الخير والتحلى بالفضائل ، واتباع الحق واجتناب الباطل ، فأتوا البيوت من أبوابها ، وليكن باطنكم عنوانا لظاهركم لطلب الأمور كلها من مواضعها ﴿ واتقوا الله ﴾ رجاء أن تفلحوا فى أعمالكم وتبلغوا غاية آمالكم

﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ خاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام ، فنزلت هذه الآية ، أى يحل لكم القتال إن قاتلكم الكفار ، فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج واتيان البيوت من ظهورها ، فكان عليه السلام يقاتل من قاتله على أنه دفاع فى سبيل الله للتمكن من عبادته فى بيته ﴿ ولا تعتدوا ﴾ بالقتال فتبدءوهم ، ولا فى القتل فتقتلوا من لا يقاتل كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى والرهبان ومن القى إليكم السلم وكف عن حربكم ، ولا بغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتخريب وقطع الأشجار ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾ أى أن الاعتداء من السيئات المكروهة عند الله تعالى لذاتها ، فكيف إذا كان فى حالة الاحرام وفى أرض الحرم والشهر الحرام ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ أى إذا نشب القتال فاقتلوهم أينما أدركتموهم وصادفتموهم ، قال فى الكشاف : الثقف وجود على

وجه الأخذ والغلبة ، ومنه رجل ثقف : سريع الأخذ لأقرانه ﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ قال ابن جرير : الخطاب للمهاجرين والضمير لكفار قريش : أى أخرجوهم من مكة فقد كان المشركون أخرجوا النبى وأصحابه المهاجرين منها بما كانوا يفتنونهم فى دينهم ، ثم صدهم عن دخولها لأجل العبادة وقد امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه فأخرج من مكة من لم يسلم عند ما فتحها الله عليه . ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ أي فتنتهم إياكم فى الحرم عن دينكم بالإيذاء والتعذيب والإخراج من الوطن والمصادرة فى المال أشد قبحا من القتل فيه ، إذ لا بلاء على الانسان أشد من إيذائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده الذى تمكن من عقله ونفسه ورآه سعادة له فى عاقبة أمره . والفتنة معناها الاختبار . ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴾ أى من دخل المسجد الحرام يكون آمنا إلا أن يقاتل فيه وينتهك حرمته فلا أمان له حينئذ ﴿ فان قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ ولا تستسلموا لهم . فالبادىء هو الظالم ، والمدافع غير آثم ﴿ كذلك جزاء الكافرين ﴾ أى أن من سنة الله تعالى أن يجازى الكافرين مثل هذا الجزاء ، فيعذبهم فى مقابلة تعرضهم للعذاب بتعدى حدوده ، فيكونوا هم الظالمين لأنفسهم .

﴿ فان انتهوا ﴾ . عن القتال فكفوا عنهم ، أو عن الكفر فان الله يقبل منهم ﴿ فان الله غفور رحيم ﴾ يمحو عن العبد ماسلف إذا هو تاب عما اقترف ، ويرحمه فيما بقى إذا هو أحسن واتقى

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩٣) ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

التفسير

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ أى حتى لا تكون لهم قوة يفتنونكم بها ويؤذنكم لأجل الدين ويمنعونكم من إظهاره أو الدعوة اليه ﴿ ويكون الدين لله ﴾ أى يكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه فلا يفتن عنه ولا يؤذى فيه ﴿ فان انتهوا ﴾ فى هذه المرة عما كانوا عليه ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ أى فلا عدوان عليهم لأن العدوان إنما يكون على الظالمين تأديبا لهم ليرجعوا عن ظلمهم سواء كان ذلك فى الفرد أو الجماعة ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴾ الحرمات أى ما يجب احترامه والمحافظة عليه يجب أن يجرى فيه القصاص والمساواة. قال مجاهد: نحرت قريش بردها رسول الله ﷺ يوم الحديبية محرما فى ذى القعدة عن البلد الحرام، فأدخله الله مكة فى العام المقبل من ذى القعدة، فقضى عمرته وأقصه بما حيل بينه وبينها يوم الحديبية، والحرمات جمع حرمة، وإنما قال جل ثناؤه الحرمات قصاص فجمع لأنه أراد الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الاحرام فقال تعالى لرسوله والمؤمنين معه دخولكم باحرامكم هذا فى شهركم هذا الحرام قصاص

مما منعتم من مثله عامكم الماضى وتلك هى الحرمات جعلها الله قصاصا . ذكر هذه القاعدة لوجوب مقاصة المشركين على انتهاك الشهر الحرام بمقابلتهم بالمثل ليكون شهرا بشهر جزاء وفاقا ، وقال تفريعا على القاعدة وتأييدا للحكم ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ أى معنى الكلام فمن عدا عليكم ووثب بظلم فاعدوا عليه أى فشدوا عليه وثبوا نحوه قصاصا لما فعل بكم لاظلما وإنما يتحقق هذا فيما تتأتى فيه المماثلة ، وسمى الجزاء اعتداء للمشاكلة ، ومعنى هذا أن الجزاء يكون من جنس العمل ، وقد استدل الإمام الشافعى بالآية على وجوب قتل القاتل بمثل ماقتل به بأن يذبح إذا ذبح ويخنق إذا خنق ويغرق إذا غرق وهكذ ، وقال مثل ذلك فى الغصب والإتلاف ، والقصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيف ولا ظلم ﴿ وأتقوا الله ﴾ فلا تعتدوا على أحد ولا تبغوا ولا تظلموا فى القصاص بأن تزيدوا فى القصاص ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ بالمعونة والتأييد ، فان المتقى هو صاحب الحق ، وبقاؤه هو الأصلح ، والعاقبة له فى كل ماينازعه به الباطل ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ﴾ عطف على قاتلوا رابط لاحكام القتال والحج بحكم الأموال السابق . فهناك ذكر مايحرم من أكل المال مجملا وهنا ذكر مايجب من انفاقه كذلك : وسبيل الله هو طريق الخير والبر والدفاع عن الحق . ثم ذكر علة هذا الأمر وحكمته على ماهى سنته فى ضمن حكم آخر فقال ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ بالإمساك عن الانفاق فى الاستعداد للقتال فان ذلك يضعفكم ويمكن الأعداء من نواصيكم فتهلكون . ويدخل فى النهى التطوح فى الحرب بغير علم بالطرق الحربية التى يعرفها العدو ، كما يدخل فيها كل مخاطرة غير مشروعة بأن تكون لاتباع الهوى لالنصرة الحق وتأييد حزبه . وفسر الجلال سبيل الله بطاعته - الجهاد وغيره والتهلكة بالامساك عن النفقة وترك الجهاد ، وقال لأنه يقوى العدو عليكم - والمعنى إذا لم تبذلوا فى سبيل الله وتأييد دينه كل ماتستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم وضاعت حريتكم واستقلالكم واستعبدكم العدو فأهدر كرامتكم وعزتكم ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ الأمر بالاحسان على عمومه أى احسنوا كل أعمالكم وأتقنوها فلا تهملوا اتقان كل شىء منها ، ويدخل فيه التطوع بالانفاق .

وجملة القول فى القتال أنه شرع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها ، فعلى من يدعى من الملوك والأمراء أنه يحارب للدين أن يحمى الدعوة الإسلامية ويعد لها عدتها من العلم والحجة بحسب حال العصر وعلومه ، ويقرن ذلك بالاستعداد لحمايتها من العدوان ، وذلك بأن يعرف حال الدعوة إلى الدين عند الأمم الحية وطرق الاستعداد لحمايتها وما يجب فى ذلك وما ينبغى

﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ المراد باتمام الحج والعمرة الإتيان بهما تامين : ظاهراً بأداء المناسك على وجهها ، وباطنا بالإخلاص لله تعالى وحده دون قصد الكسب والتجارة أو الرياء أو السمعة . ولا ينافى الاخلاص البيع والشراء فى أثناء الحج إذا لم تكن التجارة هى المقصودة فى الأصل . إن الأمر باتمام الحج والعمرة خطاب لمن شرع فيهما وإن كانت العمرة سنة والحج فرض لقوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ﴾ وأركان الحج الاحرام من الميقات ، وهو أول أرض الحرم والوقوف بعرفة والطواف بالكعبة . والسعى بين الصفا والمروة . والحلق والتقصير للشعر ، فمن أدى هذه الأعمال فقد أدى الفريضة التى هى ركن من أركان الاسلام . وله أعمال أخرى واجبة من قصر فى شىء منها كان عليه فدية . وأركان العمرة هى ماعدا الوقوف بعرفة من أركان الحج . وفرضية الحج مجمع عليها معلومة من الدين بالضرورة من أنكرها كان مرتدا . أمر بالاتمام ثم ذكر ماعساه يحول دونه فقال ﴿ فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ﴾ الإحصار هو المنع بسبب الناس والحصر بسبب المرض . وقوله تعالى بعد ﴿ فاذا أمنتم ﴾ يرجح أن المراد بالإحصار منع العدو أى ان منعتم من إتمام النسك فعليكم ماتيسر من الهدى ، وهو مايهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النعم ليذبح ويفرق على فقرائه . والمتبادر من الآية أن على كل أحد مااستيسر له من بدنة أو بقرة أو شاة ، وما عظم فهو أفضل . واتفق الجمهور على أن يذبحه حيث أحصر - ولو فى الحل - ويتحلل . ﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله ﴾ الدخول فى الحج أو العمرة يكون بالإحرام وهو نية النسك عند الابتداء به بالتلبية ولبس غير المخيط والخروج منهما - ويعبر عنه بالاحلال . والتحلل يكون بحلق الرأس أو تقصير شعره ، فالنهى هنا عبارة عن

النهى عن الاحلال قبل بلوغ الهدى إلى المكان الذى يحل ذبحه فيه وهو فى حال الاحصار حيث يحصر الحاج ، وإلا فالكعبة بقوله تعالى ﴿ هديا بالغ الكعبة ﴾ وإن الأصل فى الهدى أن يبلغ الكعبة لأنه مهدى اليها ، وحال الاحصار حال ضرورة . ثم ذكر من يؤذيه عدم الحلق فقال ﴿ فمن كان منكم مريضا ﴾ مرضا ينفعه فيه الحلق ويضره عدمه ﴿ أو به أذى من رأسه ﴾ كقمل أو جرح ﴿ ففدية من صيام او صدقة أو نسك ﴾ أى فعليه ان حلق فدية من هذه الاجناس الثلاث على التخيير . والحديث يبين أن الصيام ثلاثة أيام والصدقة بفرق (مكيال يسع ستة عشر رطلا) يوزع على ستة مساكين والنسك ذبح شاة ﴿ فاذا أمنتم ﴾ الاحصار وذهب خوف العدو . وقال بعض الفقهاء ومثله المرض ﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ﴾ أى فمن تمتع بمحظورات الاحرام بسبب العمرة أى أدائها بأن أتمها وتحلل وبقى متمتعا إلى زمن الحج ليحج من مكة فعليه ما استيسر من الهدى ، أى فعليه دم جبر لأنه أحرم بالحج من غير الميقات يذبحه يوم النحر أو قبله جوازا عند بعضهم ، أو المعنى فمن قام بأعمال العمرة قبل الحج منتهيا اليه فعليه ذلك ﴿ فمن لم يجد ﴾ الهدى - لعدمه أو عدم المال - ﴿ فصيام ثلاثة أيام فى الحج ﴾ أى فى أيام الاحرام بالحج وتمتد إلى يوم النحر ﴿ وسبعة إذا رجعتم ﴾ من الحج إلى بلادكم ، ويصدق بالشروع فى الرجوع . وقال عليه الصلاة والسلام : فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع الى أهله ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ إشارة الى الثلاثة والسبعة مبين لجملة العدد الواجب كما بين تفصيله ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ﴾ وذلك أن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون الى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده ثم السفر الى العمرة وحدها ﴿ واتقوا الله ﴾ بالمحافظة على امتثال هذه الأوامر والنواهى وغيرها من ضروب الهداية التى فيها سعادتكم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ بما جعل عاقبة التفريط والاضاعة شديدة على المفرطين فى الدنيا والآخرة

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٢١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ، فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

التفسير

﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ والمراد بقوله تعالى معلومات أنها هى أشهر الحج المعروفة للعرب قبل الاسلام ، ولا خلاف فى أنها ثلاثة أشهر وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة ، فالآية ظاهرة فى أن الحج لا يكون إلا فى هذه الأشهر ، ولما كان أعظم أركان الحج هو الوقوف بعرفة يكون التاسع من الشهر الثالث وهو ذو الحجة هو آخر أيام الحج ، فمن أحرم بالحج بعد هذا اليوم فلا حج له ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾

أى أوجبه وألزم نفسه بالشروع فيه ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ﴾ فأما الرفث فهو كما قيل الجماع ومقدماته . وأما الفسوق فهو الخروج عما يجب على المحرم إلى الأشياء التى كانت مباحة فى الحل كالصيد والطيب والزينة باللباس المخيط . والجدال هو ما كان يجرى بين القبائل من التنازع والتفاخر فى الموسم ، فبهذا يكون التناسب بين الكلمات ، وإلا حملت كلها على مدلولها اللغوى فجعل الرفث قول الفحش ، والفسوق التنابز بالألقاب ، والجدال المراء والخصام . والمراد أن يلتزم المرء فى أوقات العبادة الخضوع مع الله تعالى على أكمل الآداب وأفضل الأحوال ، وناهيك بالحضور فى البيت الذى نسبه الله سبحانه وتعالى اليه. ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ والمعنى أن اتركوا هذه الأمور الممنوعة فى الحج لتخلية نفوسكم وتصفيتها ، وحلوها بعد ذلك بفعل الخير لتتم لكم تزكيتها حتى تستعد للاتصاف بالخير والله لا يضيع عليكم أقل شىء منه ، لأنه عالم به ، وأنكم وافقتم فيه سنته وشريعته ﴿ وتزودوا فان خير الزاد التقوى ﴾ المراد بالزاد هنا هو زاد الأعمال الصالحة ، وما تدخر من الخير والبركة ، كما يرشد إليه التعليل فى قوله « فان خير الزاد التقوى » . والمعنى من التقوى معروف وهو ما به يتقى سخط الله ، وليس ذلك إلا بالبر والتنزه عن المنكر ، ولا يعلل بأن التقوى خير زاد إلا وهو يريد التزود منها ، وقيل كان أهل اليمن لا يتزودون ويقولون نحن متوكلون ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا ، فيكونون كلا على الناس ، فنزلت فيهم ، ومعناه وتزودوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقيل عليهم فان خير الزاد التقوى . وقيل المعنى فان خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهلكة والحاجة إلى السؤال والتكفف . ﴿ واتقون ﴾ وخافوا عقابى ﴿ ياأولى الألباب ﴾ ياذوى العقول فان قضية اللب خشية الله تعالى وتقواهم وحثهم على التقوى ثم أمرهم أن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شىء سواه ، وهو مقتضى العقل العرى عن شوائب الهوى ، فلذلك خص أولى الألباب بهذا الخطاب . ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ أى ليس عليكم إثم أن تطلبوا رزقا بالتجارة فى الحج . نزلت ردعا لناس من العرب كانوا يتأثمون أن يتجروا أيام الحج ويسمون من يخرج بالتجارة « الداج » ويقولون : هؤلاء الداج ، وليسوا بالحاج . والمراد من الآية

أن الكسب مباح فى أيام الحج إذا لم يكن هو المقصود بالذات ، وأنه مع حسن النية وملاحظة أنه فضل من الرب تعالى يكون فيه نوع عبادة . وقال بعض العلماء إن نفى الجناح يقتضى أن هذه الاباحة رخصة ، وأن الأولى تركها فى أيام الحج ، وأن التفرغ للمناسك فى أيام أدائها أفضل ، والتنزه عن جميع حظوظ الدنيا فى تلك البقاع الطاهرة

أكمل ﴿ فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ الافاضة معناها الدفع . عرفات أعرف من أن تعرف ، وهو جبل فى حدود مكة يتعرف فيه إلى الله بالعبادة ، أو انه يشعر بتعارف الناس فيه . وعرفة اسم لليوم الذى يقف فيه الحجاج بعرفات وهو تاسع ذى الحجة . والوقوف بعرفات أعظم أركان الحج ، وكلها موقف . والمشعر الحرام جبل بالمزدلفة يقف عليه الإمام ويسمى (قزح) ، وسمى مشعراً لأنه معلم للعبادة ، ووصف بالحرام لحرمته . والمعنى أنه يطلب من الحاج إذا نزل من عرفات الى المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام بالدعاء والتكبير والتهليل والتلبية

﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ لمعالم بيته ومناسك حجه وقيل اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم

الهداية الحسنة التى نزل بها قرآنه الكريم وبينها رسوله العظيم ﴿ وان كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ أى وإنكم كنتم من قبل الهدى ضالين عن الحق فى عقائدكم وأعمالكم ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ والمعنى : بعد ماتبين لكم ماتقدم كله من أعمال الحج ، وليس فيها امتياز أحد على أحد ولا قبيل على قبيل ، وعلمتم ان المساواة وترك التفاخر من مقاصد هذه العبادة ، بقى شىء واحد هو أن تلك العبادة المميزة ـ وهو ماكان يفعله بعض القبائل فى الجاهلية ـ لاوجود لها ، فعليكم ان تفيضوا مع الناس من مكان واحد . وقد كانت قريش ومن كان على دينها وهم الحمس يقفون بالمزدلفة يقولون نحن أهل الله وقطان حرمه فلا نخرج منه ، وكان من سواهم يقفون

بعرفة ، فأنزل الله ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ ثم قال ﴿ واستغفروا الله ﴾ والمراد الاستغفار مما أحدثوا بعد ابراهيم من تغيير المناسك وإدخال الشرك وأعماله فيها ، وإلا فهو استغفار من الضلال الذى ذكرهم به فى الآية قبلها ومن عامة الذنوب

فى الحج وغيره (ان الله غفور رحيم) يغفر ذنوب المستغفر وينعم عليه (فاذا قضيتم

مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) كان أهل الجاهلية يقفون فى

الموسم يقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله هـذه الآية . والمعنى إذا فرغتم من مناسك الحج اذكروا الله أشد من ذكركم آباءكم ، أى كونوا أشد ذكرا لله ، ثم بين تعالى أن الذين يذكرونه فيدعونه على قسمين ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيـا وما له فى الآخرة من خلاق ﴾ الخلاق النصيب والحظ ، هذا الفريق يطلب حظ الدنيا لينعم بشهواته وملذاته ، يطلب الدنيا من كل باب ويسلك اليها كل طريق ، فاستيلاء حب الدنيا عليه صرفه عن العمل لآخرته ، فحرمان هذا الفريق من خلاق الآخرة هو أثر كسبه وسوء اختياره وتفضيله حظوظ الدنيـا الفانية على سعادة الآخرة الباقية

﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ﴾ أى ومنهم من يطلب خير الدنيا والآخرة . والحسنة وصف لمحذوف أى حياة حسنة واختلفوا فى حسن الآخرة فقيل الجنة وقيـل الرؤية . واختلفوا فى عذاب النـار ، ورد عن على كرم الله وجهه أنه المرأة السوء . ان الطلب من الله تعالى انما يكون باتباع سنته فى الأسباب والمسببات والتوجه اليه تعالى واستمداد المعونة والتوفيق منه للهداية الى ما يعجز العبد عنه ، وعلى هذا يتخرج تفسير الحسن لقوله تعالى (وقنا عذاب النـار) بقوله : أى احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية اليها . فطلب الحيـاة الحسنة فى الدنيا يكون بالأخذ بأسبابها ، وأعظمها وأنفعها الثقة بالله والاخلاص له وقصد الخير فى الأعمال كلها وتوقى الشرور كلها . وطلب الحيـاة الحسنة فى الآخرة يكون بالإيمان الخالص والعمل الصالح بقدر الاستطاعة . وطلب الوقاية من النار يكون بترك المعاصى والشهوات المحرمة مع القيام بالفرائض المحتمة

﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ الإشارة بأولئك إلى الذين يطلبون سعادة الدارين والحسنة فى المنزلتين . والمعنى أنهم لما كانوا يطلبون الدنيا بأسـبابها ويسعون للآخرة سعيهـا كان لهم حظ من كسبهم هـذا فى الدارين على قدره ﴿ والله سريع الحساب ﴾ يوفى كل كاسب أجره عقب عمله بحسبه ، لأن سنته مضت بأن تكون الرغائب آثار الأعمال فهو يوفى كل عامل عمـله بلا إبطاء ، وكما يكون

الجزاء سريعا فى الدنيا كذلك يكون فى الآخرة ، فان أثر الأعمال الصالحة يظهر للمرء عقب الموت ، وهو أول قدم يضعها فى باب عالم الآخرة .

واختلفوا فى كيفية الحساب على أقوال : أقربها إلى التصور أن سرعة الحساب عبارة عن اطلاع كل عامل على عمله ، أو إعلامه بما له مما كسب ، وما عليه مما اكتسب . وذلك يتم فى لحظة واحدة . وقد قيل ان الله تعالى يحاسب الخلائق كلهم فى مقدار نصف يوم من أيام الدنيا . وورد بمقدار لمحة البصر .

﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ الأيام المعدودات هى أيام منى ، وهى أيام التشريق الثلاثة من حادى عشر ذى الحجة إلى ثالث عشره . وبينت السنة أيضا أن ذكر الله تعالى فى هذه الأيام هو التلبية والتكبير أدبار الصلوات ، وعند ذبح القرابين ، ورمى الجمار ، وغير ذلك من الأعمال ﴿ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه لمن اتقى ﴾ أى من استعجل فى تأدية الذكر عند الأعمال المعلومة فى يومين من تلك الأيام المعدودات فلا حرج عليه ، ومن أتمها كذلك ، إذا اتقى كل منهما الله تعالى ووقف عند حدوده فان التقوى هى الغرض من الحج ومن كل عبادة ، والوسيلة الكبرى إليها كثرة ذكر الله تعالى ، وإنما تلك الأعمال مذكرات للناسين . ثم أمر بالتقوى بعد الاعلام بمكانتها فقال ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ أى اتقوه فى حال أداء المناسك وفى جميع أحوالكم وكونوا على علم يقين بأنكم تجمعون وتساقون إليه يوم القيامة فيريكم جزاء أعمالكم والعاقبة للمتقين ، كل ذلك يدلنا على أن المهم فى العبادة ذكر الله تعالى الذى يصلح النفوس وينير الأرواح ، حتى تتوجه إلى الخير وتتقى الشرور والمعاصى ، فيكون صاحبها من المتقين .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

التفسير

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ﴾ معناه يعجبك قوله وأنت فى هذه الحياة ، لأنك تأخذ بالظواهر ، وهو منافق اللسان : يظهر خلاف ما يضمر ، ويقول ما لا يفعل ، فهو يعتمد على خلابة لسانه فى غش معاشريه وأقرانه ﴿ ويشهد الله على ما فى قلبه ﴾ أى يحلف بالله على أن ما فى قلبه موافق لما يقول ويدعى . وفى معنى الحلف أن يقول الإنسان : الله يعلم — أو يشهد — بأننى أحب كذا وأريد كذا . وعن بعض الفقهاء أن من قاله كاذبا يكون مرتداً لأنه نسب الجهل إلى الله تعالى . وإن أقل ما يدل عليه عدم المبالاة بالدين ، ولو لم يقصد صاحبه نسبة الجهل إلى الله عز وجل ، فهو قول لا يصدر إلا عن المنافقين ﴿ وهو ألدُّ الخصام ﴾ أى وهو فى نفسه أشد الناس مخاصمة وعداوة لمن يتودد اليهم ، أو هو أشد خصمائهم . وفيه وجه آخر قاله بعضهم ، وهو أن الخصام بمعنى الجدال أى وهو قوى العارضة فى الجدل ، لا يعجزه أن يختلب الناس ويغشهم بما يظهر من الميل اليهم وإسعادهم فى شؤونهم ومصالحهم ﴿ واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ﴾ إن صاحب دعوة الصلاح والإصلاح وحب الخير اذا أعرض عن مخاطبه وذهب إلى شأنه سعى فى الأرض بالفساد ، ذلك أنه لا هم له إلا فى الشهوات واللذات والحظوظ الخسيسة ، فهو يعادى أهل الفضيلة ويؤذيهم ، لأنه ألد خصم لهم ، للتناقض والتضاد فى الغرائز والسجايا ، ويعادى أيضا المزاحمين له فيها من أمثاله المفسدين ، وهو يفسد باعتدائه على الأموال والاعراض ﴿ ويهلك الحرث والنسل ﴾ بما يكون من أثر إفساده فى اعتدائه ، وهو ذهاب ثمرات الحرث — وهو الزرع — والنسل - وهو ما تناسل من الحيوان -

وكأنه إشارة إلى مكاسب أهل الحضارة والبادية . وذكر بعضهم ان المراد بالحرث هنا النساء كما فى قوله ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ وبالنسل الأولاد — والمعنى أن المفسد يؤذى مسترسلا فى إفساده ولو أدى الى إهلاك الحرث والنسل ، وكذلك شأن المفسدين يؤذون ارضاء لشهواتهم ولو خرب الملك بارضائها .

وهناك قول آخر أن المراد بتولى : صار واليـاً له حكم ينفذ وعمل يستبد به ، وافساده حينئذ يكون بالظلم بخرب العمران وآفة البلاد والعباد ، واهلاكه الحرث والنسل يكون اما بسفك الدماء والمصادرة فى الأموال ، واما بقطع آمال العاملين من ثمرات أعمالهم وفوائد مكاسبهم ، ومن انقطع أمله انقطع عمله ، الا الضرورى الذى به حفظ الذماء ، ولا حرث ولا نسل الا بالعمل ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أى لا يحب المعاصى وقطع السبيل واضاقة الطريق . أى أن إفساد هذا المختلب بقوله ظاهر فى الوجود ، والظاهر عنوان الباطن ، فلو كان قلبه صالحاً لكان عمله صالحاً ، ولكن إفساده فى عمله دليل على فساد قلبه ، والله لا يحب المفسدين لأنه لا يحب الفساد ، والله لا ينظر إلى الصور والأقوال وإنما ينظر إلى القلوب والاعمال ﴿ وإذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم ﴾ أى أنه اذا أمر بمعروف أو نُهى عن المنكر يسرع اليه الغضب ويعظم عليه الأمر ، فتأخذه الكبرياء والأنفة وتحفظه الحمية وطيش السفه ، فيكون كالمأخوذ بالسحر لا يستقيم له فكر ، لأنه مصر على إفساده لا يبغى عنه حولا . وعبر عن الكبرياء والحمية بالعزة للاشعار بوجه الشبهة للنفس الأمارة بالسوء ، وهو تخيلها النصح والإرشاد ذلة تنافى العزة المطلوبة ، وهذا الوصف ظاهر جدا فى تفسير التولى بالولاية والسلطة فان الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة أو يحذَّر من مفسدة ﴿ فحسبه جهنم ﴾ أى هى مصيره ، وكفاه عذابها جزاء على كبريائه وحميته الجاهلية . ثم وصف جهنم وهى دار العذاب فى الآخرة بقوله ﴿ ولبئس المهاد ﴾ المهاد الفراش ، فالله تعالى يقسم تأكيداً للوعيد بأن الذى يرى عزته مانعة عن الإذعان للأمر بتقوى الله سيكون مهاده ومأواه النار وهى بئس المهاد وشره ، لا راحة فيها ولا اطمئنان لأهلها .

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ ومن الناس من يشرى أى يبيع نفسه لله ، لا يبغى ثمنا لها غير مرضاته ، لا يتحرى إلا العمل الصالح وقول الحق والاخلاص فى القلب ، فلا يتكلم بلسانين ، ولا يقابل الناس بوجهين . وإن هذا البيع لا يتحقق إلا إذا كان المؤمن يجود بنفسه وبماله فى سبيل الله اذا مست الحاجة لذلك ، وسبيل الله هى الطريق التى يحفظ بها دينه ويصلح بها حال عباده . ومعنى هذا أنه لا يكتفى من المؤمن أن يكتسب الحلال ويتمتع بالحلال وينفع نفسه ولا يضر غيره وأن يصلى ويصوم ، لأن كل هذا يعمله لنفسه خاصة ، بل يجب أن يكون وجوده أوسع ، وعمله أشمل وأنفع ، فيساعد على نفع الناس ودرء الضرر عنهم بحفظ الشريعة وتعزيز الأمة بالمال والأعمال والدعوة الى الخير ومقاومة الشر ولو أفضى ذلك الى بذل روحه ، فأن قصر فى واجب يتعلق بحفظ الملة وعزة الأمة من غير عذر شرعى فقد آثر هوى نفسه على مرضاة الله تعالى وخرج من زمرة المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى ، وكان إكبر إجراما ممن يقصر فى واجب لا يضر تقصيره فيه الا بنفسه ﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ اذ يرفع همم بعضهم ويعلى نفوسهم حتى يبذلوها فى سبيله لدفع الشر والفساد عن عباده ، وتقرير الحق والعدل والخير فيهم ، ولولا ذلك لغلب شر أولئك المفسدين فى الارض حتى لا يبقى فيها صلاح . وان أمة يتصف جميع أفرادها أو أكثرهم بهذا الوصف لجديرة بأن تسود العالمين ، وإن أمة تحرم من هذا الصنف لخليقة بأن تكون مستعبدة لجميع المتغلبين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠) سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)

التفسير

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾ السلم المسالمة والتسليم والانقياد، فيطلق على الصلح والسلام، وعلى دين الاسلام. وقد فسره بعض المفسرين بالصلح وبعضهم بالاسلام. وقيل فى تفسير «كافة» أنها حال من السلم، أى فى جميع شرائعه. وهذه قاعدة عظيمة لو بنى جميع علماء الدين مذاهبهم عليها لما تفاقم أمر الخلاف فى الأمة، ذلك أنها تفيد وجوب أخذ الاسلام بجملته بأن ننظر فى جميع ما جاء به الشارع فى كل مسألة من نص قولى وسنة متبعة ونفهم المراد من ذلك كله، لا أن يأخذ كل واحد بكلمة أو سنة ويجعلها حجة وإن أدت الى ترك كثير من النصوص والسنن، والى حملها على النسخ أو المسخ بالتأويل أو تحكيم الاحتمال بلا حجة ولا دليل. اذ اتفاق كلمة علماء الأمة واجتماعها على ان الحق كذا بدليل كذا ملزم للحاكم باتباعهم فيه، لأن الخواص اذا اتحدوا تبعهم العوام. وهذه هى الوسيلة الفردة لابطال استبداد الحكام، لوجوب اخذ القرآن والدين بجملته، وفهم هدايته من مجموع ما ثبت عمن جاء به، امر مقرر فى ذاته سواء فسرت به الآية ام لا

﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾ الخطوات جمع خطوة وهى ما بين قدمى من يخطو، اى لا تسيروا سيره، ولا تتبعوا سبله فى التفرق فى الدين، او الخلاف والتنازع مطلقا. وسبل الشيطان وخطواته هي كل امر يخالف سبيل الحق والخير والمصلحة

طريق الحق هو الوحدة والاسلام، وطرق الشيطان هى مثارات التفرق والخصام، وهى معروفة فى كل الأمم، ولكن الشيطان يزين طرقه، ويسول للناس المنافع والمصالح فى التفرق والخلاف. ومن خطوات الشيطان طرق الفواحش والمنكرات كلها، ولذلك قال تعالى ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ أما أن الشيطان عدو مبين — أى ظاهر العداوة — فذاك أن جميع ما يدعو اليه ظاهر البطلان بين الضرر لمن تأمل وعقل. فمن لم يدرك ذلك فى مبدأ الخطوات أدركه فى غايتها عندما يذوق مرارة مغبتها ﴿ فان زللتم من بعد ما جاءتكم

البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ أى فان زللتم وحدتم عن صراط الله - وهو السلم - الى خطوات الشيطان — وهى طرق الخلاف والافتراق والباطل — من بعد أن بين الله تعالى لكم أن سبيله واحدة وهى السلم وأن الشيطان لكم عدو مبين ، فاعلموا انه يحل بكم العقاب ، لأنه عزيز لا يغلب على امره ، حكيم لا يهمل امر خلقه . ثم بين تعالى غاية الوعيد المشار اليه فى الآيتين الكريمتين فقال ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ الاستفهام فى الآية للانكار ، وينظرون بمعنى ينتظرون ، وهى كثيرة الاستعمال بهذا المعنى فى الكتاب العزيز . وحسبنا أن نقول على رأى من فسر إتيان الله هنا بأتيان أمره ، وما وعد به من العذاب ، أو إتيانه بما وعد به ، أن نفوض اليه تعالى كيفية ذلك ، وبذلك نكون على طريقة السلف فى التفويض ، مع العلم بأن الله تعالى ينذر الذين زلوا عن صراطه وفرقوا دينه بأمر معروف فى الجملة لا بشىء مجهول مطلق . وأما ظلل الغمام فهى قطع السحاب ، وان الحكمة فى نزول العذاب فى الغمام انزاله فجأة من غير تمهيد ينذر به ، وذلك أبلغ فى هوله . وهناك وجه آخر اذا كان يوم القيامة وكشف الحجاب عرفوا الله ربهم الحق وتبين لهم ما كانوا عليه من الباطل . فذلك اتيان الله لهم ، أى يأتيهم من معرفته ما كانوا غائبين عنه محرومين منه فى الدنيا . ﴿ وقضى الأمر ﴾ أى كيف ينتظرون غير ذلك وهو أمر قضاه الله وأبرمه فلا مفر منه ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ فيضع كل شىء موضعه الذى قضاه ، فهو الأول ومنه بدأت الأشياء واليه ترجع وتصير ، وهو بكل شىء محيط فيجازى أهل الاحسان بالاحسان وأهل الاساءة بما رأى .

﴿ سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ﴾ الخطاب للرسول أو لكل أحد : هذا بيان لحقيقة حال بنى اسرائيل ، وأن الآيات والنذر لا ترجعهم عن ضلالهم ، فكم جاء أنبياؤهم بالآيات والبينات ، وكم بلاهم الله بالحسنات والسيئات ، فلم يغن ذلك عنهم ولا صدهم عن خلافهم وشقاقهم ﴿ ومن يبدل نعمة الله ﴾ عليه بالآية الدالة على الحق والوحدة الدالة على الشكر ﴿ من بعد ما جاءته ﴾ بالبيان والبرهان ﴿ فان الله شديد العقاب ﴾ لمن تنكب سنته وخالف شرعته . وهذا المبدل منهم

فالعقاب الشديد نازل به لا محالة . وهناك وجه آخر فى المخاطبين بالدخول فى السلم ، فهو أن الآية هادية الى الاعتبار بسنة الله تعالى فى الأمم الماضية ، كأنه يقول : يا أيها المؤمنون بمحمد ﷺ ، عليكم بالدخول فى السلم ، والاتفاق والاعتصام بالاسلام فى جملته ، لا تفرقوه وتتفرقوا فيه وتكونوا شيعا ، كيلا يصيبكم ما أصاب أولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، وهؤلاء بنو اسرائيل بين أيديكم وحالهم لا تخفى عليكم ، فقد أوتوا نحو ما أوتيتم من البينات ، وأمروا كما أمرتم بالاتحاد والاجتماع ، فتفرقوا الى مذاهب وشيع ، وزلوا عن صراط الله فتفرقت بهم السبل ، فأخذهم الله بعزته ، ونفذ فيهم حكم سنته : زال سلطانهم ، ولفظتهم اوطانهم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ومزقوا فى الأرض كل ممزق . والآية عبرة للمخاطبين بالقرآن من المؤمنين به ، لا حكاية تاريخية عن بنى اسرائيل

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وٰحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰبَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرٰطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتٰمَىٰ

وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

التفسير

﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم ، حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها والمراد بالذين كفروا من لا يؤمنون بالحقوق المشروعة لله وللناس إيمان إذعان وانقياد بل يؤثرون الحياة الدنيا وزينتها على ما عند الله تعالى من النعيم المقيم ، لا المشركون أو الكافرون فى عرف بعض الناس كالذين لا يسمون مسلمين ، كما أن القرآن لا يعنى بالمؤمنين الناجين طائفة يسمون أنفسهم أو يصفونها بالايمان أو الاسلام ، وانما يعنى بهم أولئك الموقنين بما عند الله ، الذين يؤثرون الحق على كل ما يعارضه من شهواتهم ولذاتهم ، واذا عثر أحدهم فعمل السوء بجهالة يتوب من قريب . وانظر سائر ما عرّف الله تعالى به المؤمنين والكافرين من النعوت والأوصاف يظهر لك هذا . وأظهر أوصاف الكافر أن تكون زينة الدنيا أكبر همه ، يؤثرها على كل شىء ، حتى أن أوامر الدين لا تزحزحه عن شىء يقدر عليه من هذه الزينة ومتاعها بلا معارض ، لأنه لا يقين له فى الآخرة ، فان كان منتسبا الى دين فما دينه الا تقاليد على أعين الناس وخواطر تتنازعها الشبهات وتتجاذبها الشكوك والتأويلات ﴿ ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ ايمانا حقيقيا يحمل على العمل ، الذين يرون الكياسة فى الاستعداد لما بعد الموت ، بترقية النفس بالاعتقاد الصحيح المؤيد بالبينات ، والتحلى بالفضائل وأحاسن الأخلاق ويعدون الفضل فى القيام بحقوق الناس وخدمة الأمة والافاضة من المال على العاجزين والبائسين . وكلما أنفقوا فى سبيل الله درهما عده أولئك المستهزئون مغرما ، قال تعالى رداً على هؤلاء الساخرين الذين يرون أن زينتهم ولذاتهم خير من أهل اليقين فى نزاهتهم وتقاتهم ﴿ والذين

اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ فإذا استعلى بعضهم على بعض المؤمنين طائفة من الزمن فى هـــذه الحياة القصيرة الفانية ـــ بما يكون لهم من الأتباع والانصار والمال والسلطان ـــ فان المؤمنين المتقين يكونون أعلى منهم مقاما يوم القيامة فى تلك الحياة العلية الابدية . فالله يرشدنا أنه لا اعتداد بالإيمان فى الآخرة الا اذا صحبته التقوى وكانت أثراً له فى النفس والعمل الصالح ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ الحساب التقديرى أى من غير تقدير له على حسب الايمان والتقوى والكفر والفجور . وفيه وجه آخر وهو كناية عن السعة وعدم التقتير ، أى ينفق كثيرا ، والمعنى أنه بذل العطاء فى الدنيا لكل أحد ، بخلق الارزاق وإقدار الناس على الكسب . وقيل ان المعنى بغير حساب عليه من أحد ولا مراجعته .

﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ والمعنى أن الله تعالى قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضها ببعض ولا يمكنهم فى هذه الوحدة ومع تلك الوصلة اللازمة بمقتضى الضرورة أن يتفقوا على تجديد النظام اللازم لهم مع اختلاف الفطرة وتفاوت العقول . ولا سبيل لعقولهم وحدها الى الوصول الى ما يلزم لهم فى توفير مصالحهم ورفع المضار عنهم ، فبعث الله النبيين مبشرين من آمن وأطاع بعز الدنيا وخير الآخرة ، ومنذرين من كفر وعصى بخزى الدنيا وعذاب الآخرة ، وأيد المؤمنين بالدلائل القاطعة على صدقهم .

﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ أنزل الله الكتاب لبيان ما يريد حمل الناس عليه بما هو صالح لهم على حسب استعدادهم ، والجملة الاولى تفيد أن الله أنزل مع كل نبى كتابا بما هو صالح لا مفسدة فيه ، ليقع الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، والحاكم هو المتولى للفصل بين الناس فى الخصومات بالنسبة إلى الاعمال ، والمرشد الى صحيح العقائد . وفيه قول آخر ، فالحكم مسند الى الكتاب نفسه ، فالكتاب هو الذى يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه . وفيه نداء على الحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه ، وأن لا يعدلوا عنه ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ .

إن الاختلاف الذى وقع من الرؤساء والأحبار والعلماء ومن أوتوه لم يكن مصدره إلا البغى بينهم ، وتعدى الحدود التى أقامها الدين حواجز بين الناس ، وذلك رغبة فى رياسة ، أو إرضاء لشهوة خفية ، أو منفعة . فبغى علماء الدين فى التأويل وكثرة القيل والقال ليس بعيب فى الكتاب ، وإنما العيب فى مرض نفوسهم التى استرقتها الشهوات ، وأضلتها الأهواء ، فعصفت بريحهم ، وقضت على وحدتهم ، وضلوا بعد هدى ، وذلوا بعد عز ، واسترقوا بعد حرية واستقلال ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾

أى أن المؤمنين هم الذين يهتدون لما اختلف الناس فيه من الحق ، ويصلون إلى ما يرضى ربهم ، فالايمان الصحيح يهدى صاحبه الى صور من الحق تنزل منه منزلة العبارة من معناها ، فهو إذا اعتقد فانما يعتقد ما هو مطابق للواقع ، واذا تخيل فانما يتخيل صوراً تمثل ذلك الواقع وتحليه فى أقوى مظاهره ، لهذا يكون تيسير الله له الهداية الى الحق الذى يختلف فيه الناس ، فهو مطمئن ساكن القلب وهم فى اضطراب وحرب ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ كأنه يقول : قد خلت — مضت — من قبلكم أمم أوتوا الكتاب ودعوا للحق فآذاهم الناس فى ذلك ، فصبروا وثبتوا . أفتصبرون مثلهم على المكاره وتثبتون ثباتهم على الشدائد ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتنالوا رضوان الله تعالى من غير أن تفتنوا فى سبيل الحق فتصبروا على ألم الفتنة ، وتؤذوا فى الله فتصبروا على الايذاء كما هى سنة الله تعالى فى أنصار الحق وأهل الهداية فى كل زمن ﴿ مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ البأساء الشدة تصيب الانسان فى غير نفسه وبدنه كأخذ المال والاخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة ، وفسرت بالفقر وهو من أثره . وأما الزلزال فهو الاضطراب فى الامر يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه عنه . وزلزله : هزه ودعته ليزله عما هو عليه ، أى أنهم وصلوا الى درجة حدوث الاضطراب والاشراف على الزلل فى مجموعهم كما قال تعالى فى المؤمنين يوم الاحزاب ﴿ وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ ، والآية التى نفسرها تصرح بأن بعض السابقين كانوا أشد زلزالا ؛ ولعل الغاية التى وصلوا اليها ولم يصل اليها سلفنا هى قوله

تعالى ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ أى حتى وصلوا إلى غاية من الشدائد والاهوال لم يروا فيها منفذاً لسبب من أسباب النصر والفوز ، لان قوة اعداء الحق أحاطت بهم من كل جانب فاعتقدوا أن وقت العناية الالهية والنصر الذى وعد الله به من ينصر الحق قد حان وقته أو أبطأ فاستعجلوه متى نصر الله ، فأجابهم تعالى ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ بأن نصرهم وكف عنهم شر أهل البغى وأيد دعوتهم وجعل كلمتهم هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى وكان الله قوياً عزيزاً .

﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ بذل المال كبذل النفس وكلاهما من آيات الايمان فكان لما تقدم تتوجه نفسه الى البذل فيسأل عن طريقه ، فجاء بعده السؤال مقرونا بالجواب ﴿ قل ما أنفقتم من خير ﴾ وإن التعبير عن المال بالخير يتضمن كونه حلالا ، فكأنه قال : إن الانفاق والتصدق يكون من فضل المال الكثير الحلال الطيب، أما بيان المصرف فهو قوله ﴿ فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ قدم الوالدين لمكانتهما ، وفسروا الاقربين بالاولاد أولادهم ، وما اختير لفظ الأقربين هنا الا لبيان أن العلة فى التقديم القرابة ، فمن كان أقرب كان أحق بالتقديم . فالآية عامة فى النفقة وأحق الناس بها ، لأنه لا يجب على فرد معين من المكلفين الانفاق على يتيم أو مسكين معين منهم من حيث أنه يتيم أو مسكين ، ولكنهم أحق بالصدقة المفروضة والمندوبة بعد الأقربين ، ثم قال تعالى ﴿ وما تفعلوا من خير ﴾ كالانفاق فى موضوعه بتقديم الأحق فالأحق به ممن ذكر — وهو ما يوجه فى كل زمان ومكان — وممن لم يذكر فى هذه الآية وذكر فى غيرها ، وبغير الانفاق من أعمال الخير ﴿ فان الله به عليم ﴾ لا يغيب عنه فينسى الجزاء والتوبة عليه

﴿ كتب عليكم القتال ﴾ — انعقد الاجماع على أن الجهاد فرض ، وهو أنه من فروض الكفاية إلا أن يدخل العدو بلاد المسلمين فاتحاً فيكون فرض عين ، ﴿ وهو كره لكم ﴾ معناه أن من الأشياء المكروهة طبعا ما تأتونه وأنتم ترجون نفعه وخيره

كشرب الدواء البشع المر ومن الأشياء المستلذة طبعا ما يتوقع فاعلها الضرر والأذى فى نفسه ومن جهة منازعة الناس له فيه ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون ﴾ بين سبحانه أن القتال كتب على هذه الأمة فلا مفر منه وان كرهه المؤمنون خشية أن يضيع الحق بهلاك أهله ، أو كما أودع القرآن قلوبهم من الرحمة والرجاء يجذب الناس الى الايمان بجاذب الدليل والحجة وهو الأرجح ، ولكن يوجد فريق من الأمة أعمته الشهوات وأضله الهوى حتى لم يبق لروح الحق منفذ الى عقله ولا لحب الخير طريق الى قلبه فلا تنفع فيه الدعوة ولا ترجى له الهداية ، ومثل هذا الفريق فى الأمة كمثل الدم الفاسد فى الجسم اذا لم يخرج منه فأنه يفسده ، ولم يأمر الله بقتالهم الا رحمة بمجموع الأمة أن تفسد بهم ، والله هو الذى يعلم ما يصلحكم وما هو خير لكم وأنتم تعلمون ذلك فبادروا الى ما يأمركم به وامتثلوا أمره .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

التفسير

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ والمعنى يسألك الكفار عن الشهر الحرام جائز القتال فيه ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ أى أن القتال فيه أمر مستنكر . وقال بعضهم ذنب كبير . وهـذا تقرير لحرمة القتال فى الشهر الحرام ، والشهر الحرام : المراد به الجنس . وقد كانت العرب لا تسفك فيه دماً ولا تغير على عدو . والأشهر الحرم : هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، ثلاثة سرد وواحد فرد . أى أنه لا يحل للناس الغزو فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا على سبيل الدفع — واذا كان القتال فى نفسه أمراً كبيراً وجرما عظيما فانما يرتكب لازالة ما هو أعظم منه وذلك قوله تعالى ﴿ وصد عن سبيل الله ﴾ الطريق الموصل اليه وهو الاسلام ، وكان المشركون يمنعون الناس منه ، يقتلون من يسلم أو يؤذونه فى نفسه وأهله وماله ويمنعونه من الهجرة الى النبى ﷺ ﴿ وكفر به ﴾ أى بالله تعالى ﴿ والمسجد الحرام ﴾ أى وصد عن المسجد الحرام ، وهو منع المؤمنين من الحج والاعتمار ﴿ واخراج أهله منه ﴾ وهم النبى ﷺ والمهاجرون — كل واحد من هـذه الجرائم التى عليها المشركون ﴿ أكبر عند الله ﴾ من القتال فى الشهر الحرام فكيف بها وقد اجتمعت .

ومعنى الآية الذى ذهب اليه الجمهور : انكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال فى الشهر الحرام وإن ما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الاسلام ، ومن الكفر بالله ، ومن الصد عن المسجد الحرام ، ومن إخراج أهل الحرم منه أكبر جرما عند الله . ثم صرح بالعلة العامة لمشروعية القتال وهى فتنة الناس عن دينهم فقال ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ وكان المشركون يفتنون المؤمنين عن دينهم بالقاء الشبهات وبما علم من الايذاء والتعذيب ، فكان أمية بن خلف يعذب بلالا ليفتنه فكان يجيعه ويعطشه ليلة ويوما ثم يطرحه على ظهره فى الرمضاء ، أى يضعه على الرمل المحمى بحرارة الشمس الذى ينضج اللحم ويضع على ظهره صخرة عظيمة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ﷺ وتعبد اللات والعزى ، فيأبى ذلك ، وهانت عليه نفسه فى الله عز وجل وهو يقول :

أحد ، أحد . وهذا نموذج من فتنة المشركين لضعفاء المسلمين ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ عاد الى خطاب المؤمنين الذين كانوا يكرهون القتال لما تقدم ، فأعلمهم أن أولئك المشركين لاهمّ لهم إلا منع الاسلام من الأرض ، فترك قتالهم هو الذى يبيد الحق وأهله ، وانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة طمع فى غير مطمع والقتال فى الشهر الحرام أهون من الفتنة عن الاسلام والكفر به والصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه والاعتداء بالقتال والاستمرار عليه . ولما ذكر الردة التى يبغونها بقتالهم بين حكمها فقال ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ﴾ حبطت أى بطلت وفسدت ، والمعنى أن الرجوع عن الايمان إلى الكفر يشبه الآفة التى تصيب المخ والقلب فتذهب بالحياة ، فان لم يمت المصاب بعقله وقلبه فهو فى حكم الميت لا ينتفع بشىء ، وكذلك الذى يقع فى ظلمات الكفر بعد أن هدى الى نور الايمان تفسد روحه ويظلم قلبه فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية ولا يعطى شيئا من أحكام المسلمين الظاهرة فيخسر الدنيا والآخرة . ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ يعنى الذين ارتدوا عن دينهم فماتوا على كفرهم هم أهل النار المخلدون فيها فلا يخرجون منها فهم سكانها المقيمون فيها .

ولما ذكر حال المشركين وحكم المرتدين ناسب أن يذكر جزاء المؤمنين المهاجرين والمجاهدين ولذلك قال ﴿ ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ المهاجرة مفارقة الأهل والاوطان وهى من الهجر ضد الوصل . والمجاهدة من الجهد وهو المشقة ، وليس خاصا بالقتال . والرجاء هو توقع المنفعة من أسبابها ، فالمؤمنون الذين هاجروا مع الرسول أو هاجروا اليه للقيام بنصرة الحق والذين بذلوا جهدهم فى مقاومة الكفار هم الذين يرجون رحمة الله تعالى وإحسانه رجاء حقيقيا ، وهم أجدر بأن يعطوا ما يرجون ﴿ والله غفور رحيم ﴾ يغفر لهم ماعساه يفرط منهم ويتغمدهم برحمته ورضوانه

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

التفسير

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ لفظ الخمر منقول عن مصدر خمر الشيء بمعنى ستره وغطاه . والوجه فى النقل أن هذا الشراب يستر العقل ويغطيه ، أو بمعنى التغير يقال خمر الشيء إذا تغير عما كان عليه ، والعصير يتغير فيكون خمرا . ويقال سميت الخمر خمراً لأنها تركت حتى اختمرت ، واختمارها تغير رائحتها . وجميع هذه المعانى ظاهرة فى هذه الأشربة المسكرة كلها ، فيصبح إطلاق اسم الخمر لغة على كل مسكر ، وهذا ما ذهب اليه أشهر علماء اللغة ، وإن الصحابة وهم صميم العرب فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غيره ، والاحاديث الصحيحة صريحة فى ذلك « كل مسكر خمر » وروى بزيادة « وكل خمر حرام » . وكان النبى ﷺ والخلفاء يجلدون كل من سكر ويعبرون عن ذلك بحد الخمر وعقوبته ، وهذا البيان قطعى متواتر ، لأن العمل عليه . وفى حديث صحيح آخر « ما أسكر كثيره فقليله حرام » .

وأما الميسر فهو القمار واشتقاقه من يسر اذا وجب أو من اليسر بمعنى السهولة لأنه كسب بلا مشقة ولا كد ، أو من اليسار وهو الغنى لأنه سببه للرابح ، أو من اليَسر بمعنى التجزئة والاقتسام . وقد اختلفوا : هل الميسر ذلك النوع من القمار الذى كان يلعبه العرب بالقداح ومن خرج له قدح من ذوات الأنصباء لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزء كله ، أم يطلق على كل مقامرة . ولكن لا خلاف فى أن كل قمار محرم قطعا إلا ما أباح الشرع من الرهان فى السباق والرماية ترغيبا فيهما .

﴿ قل فيهما اثم كبير ﴾ وانما كان إثم الخمر كبيرا لأن مضرتها كبيرة ولا إثم الا ما كان ضارا والضرر يكون فى البدن والنفس والعقل والمال ، ويكون فى التعامل وارتباط الناس بعضهم ببعض ، ولا يوجد إثم من الآثام يدخل ضرره فى كل شىء كالخمر . وأما كون إثم الميسر كبيرا أو كثيرا فقد جاء فيه ما جاء فى الخمر من كونه يورث العداوة والبغضاء ، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ثم إنه طريق لأكل أموال الناس بالباطل — أى بغير عوض حقيقى من عين أو منفعة — وهذا محرم بنص القرآن كما تقدم فى محله ، وافساد التربية بتعويدات النفس بترك الأعمال المفيدة فى طرق الكسب الطبيعية ، وإهمال الياسرين « المقامرين » للزراعة والصناعة والتجارة التى هى من أركان العمران . ومنها وهو أشهرها تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر فى ساعة واحدة .

﴿ ومنافع للناس ﴾ أما المنافع فى الخمر فاهمها التجارة ، فقد كانت ولا تزال موردا كبيرا للثروة ومادة عظيمة للتجارة ، ومنها أن تكون علاجا لبعض الأمراض ، ولكن الدواء يؤخذ بمقدار ، فالتداوى بالخمر لا يتفق مع شربها للنشوة واللذة ، ومنها أنها تسلى الحزين ، على أن ما يكون بعدها من رد الفعل يزيد فى الحزن والكآبة . ومن منافع الميسر سرور الرابح واريحيته ، ومنها أن يصير الفقير غنيا من غير تعب .

﴿ واثمهما أكبر من نفعهما ﴾ ، وهذا القول إرشاد للمؤمنين الى طريق الاستدلال ، فكان عليهم أن يهتدوا منه الى القاعدتين اللتين تقررتا بعد فى الاسلام : قاعدة « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » وقاعدة « ارتكاب أخف الضررين » إذا كان ترك أى منفعة ضررا . وأطباء الأفرنج وعلماؤهم مجمعون على أن ضرر الخمر — وكذلك

الميسر بالاولى — أكبر من نفعهما ، وقد ألفت جمعيات فى أوربا وأمريكا للسعى فى ابطال المسكرات ومحاربة الميسر . فمنفعة القمار وهمية ومضراته حقيقية فان المقامر يبذل ماله المملوك له حقيقة على وجه اليقين لأجل ربح موهوم ليس عنده وجه ذرة لترجيحه على خطر الخسران والضياع ، والمسترسل فى إضاعة المحقق طالبا للمتوهم يفسد فكره ويضعف عقله ، ولذلك ينتهى الأمر بكثير من المقامرين الى بخع أنفسهم (قتلها غما) أو الرضى بعيشة الذل والمهانة .

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ العفو : هو الفضل والزيادة عن الحاجة ، وعليه الأكثر . وقال بعضهم إن العفو نقيض الجهد ، أى ينفقون ما سهل عليهم وتيسر لهم مما يكون فاضلا عن حاجتهم وحاجة من يعولون . والمراد بهذا الانفاق ماوراء الزكاة المفروضة المحدودة كصدقة التطوع على الافراد وعلى المصالح العامة ، وإن كان لفظ العفو يصدق على الزكاة ، لأنها لا تكون إلا من الزائد على الحاجة الذى لا جهد ولا مشقة فيه . وقد ورد فى الحديث الصحيح « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وابدأ بمن تعول » .

وقال أيضاً اذا كان عند أحدكم فضل فليبدأ بنفسه ، ثم بأهله ، ثم بولده ، ثم يسلك حينئذ فى الفضل مسالكه التى ترضى الله ويحبها وذلك هو القوام بين الاسراف والاقتار الذى ذكره الله عز وجل فى كتابه . لا تنهض أمة ولا ملة إلا بالتعاون ، وهو مساعدة الغنى للفقير ، واعانة القوى للضعيف ، وبذل المال والعناية فى حفظ المصلحة العامة . بهذا ظهر القليل على الكثير ، وكانت لهم السيادة ، وبترك هذا انحلت الأمم الكبيرة وفقدت الملك والسعادة ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ معناه : مثل هذا النحو وعلى هذه الطريقة من البيان قد قضت حكمة الله بأن يبين لكم آياته من الأحكام المتعلقة بمصالحكم ومنافعكم ، وذلك بأن يلفت عقولكم الى ما فى الاشياء من المضار والمنافع ﴿ لعلكم تتفكرون ﴾ بأن هداكم الى استعمال عقولكم لترتقوا بها الى النافع وتعملوا له ، والى الضار فتجتنبوه ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ أى تتفكرون فى أمورهما معا ، فتجتمع لكم مصالح الجسد والروح ، فتكونون أمة وسطا وأناسى كاملين ، لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فالله تعالى يبين فى مثل هذه الآيات أن الاسلام

هاد ومرشد الى توسيع دائرة الفكر واستعمال العقل فى مصالح الدارين ، وقدم الدنيا لأنها مقدمة وجودا وطبعا ، وكل ما أمرنا الله تعالى به وهدانا اليه فهو من ديننا ، ولذلك قال علماؤنا : إن جميع الفنون والصناعات التى يحتاج اليها الناس فى معايشهم من الفروض الدينية ، اذا اهملت الأمة شيئا منها — فلم يقم به من أفرادها من يكفيها ضرر الحاجة — كانت كلها عاصية لله تعالى مخالفة لدينه ، إلا من كان عاجزا عن دفع ضرر الحاجة ، وعن الامر به للقادر عليه ، فأولئك هم المعذورون بالتقصير .

ثم قال تعالى ﴿ ويسألونك عن اليتامى ﴾ لما نزلت آية ﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا﴾ اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم والاهتمام بأمرهم ، فشق ذلك عليهم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الوحى فى ازالة الحيرة وكشف الغمة فقال لنبيه ﴿ قل ﴾ لهؤلاء السائلين عن القيام على اليتامى وكفالتهم وعن المصلحة فى عزلهم أو مخالطتهم ﴿ اصلاح لهم ﴾ ومعنى ذلك أن القيام عليهم لاصلاح نفوسهم بالتهذيب والتربيـــة ، وإصلاح أموالهم بالتثمير والتنمية ، هو خير من إهمال شأنهم وتركهم لأنفسهم تفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم ﴿ خير ﴾ لهم لما فيه من صلاحهم ، وخير للقوام والكافلين لما فيه درء مفسدة إهمالهم ، وللمصلحة العامة فى صلاح حالهم ، ولما فى ذلك من حسن القدوة فى الدنيا وحسن المثوبة فى الآخرة ﴿ وإن تخالطوهم فأخوانكم ﴾ فكأنه يقول إن تخالطوهم فعليكم أن تعاملوهم معاملة الاخوة فى ذلك فيكون اليتيم فى البيت كالأخ الصغير تراعى مصلحته بقدر الامكان ، ويتحرى أن يكون فى كفة الرجحان . وقيل إن المراد بالمخالطة المصاهرة وأخوّة الاسلام علة لحلها ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ والله يعلم ما تسر القلوب من قصد الاصلاح لهم أو الافساد ، فعليكم أن تراقبوه فى أعمالكم ونياتكم . والمصلح هو من يأتى بالاصلاح عملا والمفسد هو من يأتى بالافساد فعلا ، وحال كل منهما ظاهر للعيان ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ أى أوقعكم فى العنت وهو المشقة بان يكلفكم القيام بشئون اليتامى وتربيتهم وحفظ أموالهم ولا يأذن لكم بمخالطتهم ﴿ ان الله عزيز حكيم ﴾ فلو شاء إعناتكم لعز على غيره منعه ، حكيم بأن

منعكم ما يضيركم من ذلك وكلفكم ما فيه مصلحتكم وأن هداكم الى وجه منفعة النافع ومضرة الضار .

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ إن هؤلاء الذين أشركوا — وهم الذين بينكم وبينهم غاية الخلاف والتباين فى الاعتقاد — لا يجوز لكم أن تتصلوا بهم برابطة المصاهرة ، لا بتزويجهم ولا بالتزوج منهم . وأما الكتابيات فقد جاء فى سورة المائدة أنهن حل لنا ، وسكت هناك عن تزويج الكتابى بالمسلمة . وقالوا إنه على أصل المنع ، وأيدوه بالسنة والاجماع . والتعبير بتنكحوا يشعر بأن الرجال هم الذين يزوجون أنفسهم ويزوجون النساء اللواتى يتولون أمرهن ، وأن المرأة لا تزوج نفسها بالاستقلال بل لا بد من الولى ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحو المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ وقد فسر بعضهم الأمة والعبد بالرقيق أى أن الأمة المملوكة المؤمنة خير من الحرة المشركة ولو أعجبكم جمالها ، وكذلك الفتى المؤمن خير من الحر المشرك وان كان جميلا . وقال آخرون ان المراد أمة الله وعبد الله ، أى أن المؤمنة والمؤمن كل منهما عبد الله ويطيعه ويخشاه ، ولذلك كان خيرا ممن يشرك به فكان فى التعبير بالأمة والعبد اشعار بعلة الخيرية . وليس المراد بالزوجة قضاء الشهوة الحسية ، وانما المراد بها تعاقد الزوجين على المشاركة فى شئون الحياة والاتحاد فى كل شىء ، وانما يكون ذلك بكون المرأة محل ثقة الرجل يأمنها على نفسه وولده ومتاعه عالما أن حرصها على ذلك كحرصه لأن حظها منه كحظه . وما كان الجمال الذى يروق النظر ليحقق فى المرأة هذا الوصف ، ولكن قد يمنعه التباين فى الاعتقاد الذى يتعذر معه الركون والاتحاد ، والمشركة — اذ ليس لها دين يحرم الخيانة ويوجب عليها الأمانة — فهى موكولة الى طبيعتها وما تربت عليه فى عشيرتها ، وهو خرافات الوثنية وأوهامها ، فسهل عليها أن تخون زوجها وتفسد عقيدة ولدها ، فان ظل الرجل على اعجابه بجمالها كان ذلك عونا لها على التوغل فى ضلالها واضلالها .

وأما الكتابية فليس بينها وبين المؤمن كبير مباينة ، فانها تؤمن بالله وتعبده ، وتؤمن بالانبياء وبالحياة الأخرى وما فيها من الجزاء ، وتدين بوجوب عمل الخير

وتحريم الشر ، والفرق العظيم الجوهرى بينهما هو الايمان بنبوة النبى ﷺ ويوشك أن يظهر للمرأة حقيقة دينه وحسن شريعته والوقوف على سيرة من جاء بها فيكمل إيمانها ويصح إسلامها ، ومثل هذه الحكمة لا تظهر فى تزويج الكتابى بالمؤمنة بما يغلب عليها من الجهل والضعف فى بيان ما تعلم ، لا يسهل عليها أن تقنعه بحقيقة ما هى عليه ، بل يخشى أن يزيغها عن عقيدتها ويفسد منها دون أن تصلح منه . وهذا المعنى يفهم من تعليل النهى عن مناكحة المشركين فى قوله عز وجل ﴿ أولئك يدعون الى النار ﴾ أى من شأنهم الدعوة الى أسباب دخول النار بأقوالهم وأفعالهم ، وصلة الزواج أقوى مساعد على تأثير الدعوة ، لأن من شأنها أن يتسامح معها فى شئون كثيرة . وقد يسرى شىء من عقائد الشرك للمؤمن والمؤمنة بضروب الشبه والتضليل التى جرى عليها المشركون بقولهم فيمن يتخذونهم وسطاء بينهم وبين الخالق ﴿ ١٠ : ١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ، ﴿ وما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ﴾ ومعاشرة المشركين مع الكراهة والنفور قد أفسدت جميع الأديان السماوية الأولى ، فما بالك بتأثير اتخاذهم أزواجا ، وهو يدعو إلى كمال السكون اليهم والمودة لهم والرحمة بهم ، ألا يكون ذلك دعوة الى النار وسببا للشقاء والبوار . هذه دعوة الزوج المشرك بطبيعة دينه ﴿ والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ﴾ وهو أن دعوة الله التى عليها المؤمنون هى الموصلة الى الجنة والمغفرة بأذن الله وهدايته وتوفيقه ، وهى مناقضة لدعوة المشركين وهى على ما هم عليه من الشرك الموصل الى النار بسوء اختيار أصحابه له ﴿ ويبين آياته للناس ﴾ أى يوضح الدلائل على أحكام شريعته للناس ، فلا يذكر لهم حكما إلا ويبين لهم حكمته وفائدته ليستدلوا بذلك على المصلحة والسعادة فيما شرعه لهم ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ فيواظبون على التزام احكام الله . ومن هنا قال الفقهاء : إن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما ، وإن ما يشارك المنصوص فى العلة يعطى حكمه .

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

التفسير

﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ أى عن حكمه وهو الحيض المعروف ﴿ قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ والمعنى أنه يجب على الرجال ترك غشيان نسائهم زمن المحيض لأن غشيانهن سبب للأذى والضرر ، وإذا سلم الرجل من هذا الأذى فلا تكاد تسلم منه المرأة ، لأن الغشيان يزعج أعضاء النسل فيها إلى ما ليست مستعدة له ولا قادرة عليه ، لاشتغالها بوظيفة طبيعية أخرى وهى إفراز الدم المعروف ، وقد كان يظن بعض الناس أن الاعتزال وترك القرب حقيقة لا كناية ، وأنه يجب الابتعاد عن النساء فى المحيض وعدم القرب منهن بالمرة ، ولكن النبى ﷺ بين لهم أن المحرم إنما هو الوقاع ، وهذا خلاف لما كانت عليه اليهود : كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها فى البيوت ، فسأل أصحاب النبى ﷺ عن ذلك ، فأنزل الله عز وجل ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ الى آخر الآية ، فقال رسول الله ﷺ « اصنعوا كل شىء إلا الجماع » ﴿ فاذا تطهرن فأتوهن من حيث

أمركم الله ﴾ الطهر معناه انقطاع الدم عن الحيض ، وهو مالا يكون بفعل النساء ، وأما التطهر فهو من عملهن ، وهو يكون عقب الطهر . واختلفوا فى المراد منه ، والجمهور على أن المراد به الاغتسال بالماء إن وجد ، وإلا فالتيمم ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ أى فأتوهن من المأتى الذى كوّن الله تعالى الفطرة على الميل اليه ، ومضت سنته بحفظ النوع به ، وهو موضع النسل ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ الذين إذا خالفوا سنة الفطرة بغلبة سلطان الشهوة فاتوا نساءهم فى المحيض أو فى غير المأتى الذى أمر الله به يرجعون اليه ولا يصرون على فعلهم السىء ﴿ ويحب المتطهرين ﴾ من الأحداث والأقذار ومن إتيان المنكر . ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ وهذا بيان حكمة الغشيان التى شرع الزواج من أجلها ، وكان من مقتضى الفطرة وهى الاستنتاج والاستيلاد ، لأن الحرث هو الأرض التى تستنبت ، والاستيلاد كالاستنبات ، وهو تصريح بما فهم من قوله عز وجل ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ وما جعل الزواج من أمر الدين وأسباب المثوبة إلا لأجل حفظ النوع البشرى بالاستيلاد ، كما يحفظ النبات بالحرث والزرع ، فلا تجعلوا الاستلذاذ المباشر مقصودا لذاته فتأتوا النساء فى المحيض حيث لااستعداد لقبول زراعة الولد ، وعلى ما فى ذلك من الأذى ، وهذا يتضمن النهى عن إتيانهن فى غير المأتى الذى يتحقق به معنى الحرث ، وقوله تعالى ﴿ أنى شئتم ﴾ معناه كيف شئتم و «أنى» تستعمل غالبا بمعنى كيف ، وتستعمل بمعنى أين ، فكأنه يقول : لا حرج عليكم فى إتيان النساء بأى كيفية شئتم مادمتم تقصدون بها الحرث ﴿ وقدموا لأنفسكم واتقوا الله ﴾ فهذه أوامر تدل على أن هناك شيئا يرغب فيه وشيئا يرغب عنه ويحذر منه .

فالأمر بالتقديم للنفس يتضمن الاختيار باختيار المرأة الودود الولود التى تعين الرجل على تربية ولده بحسن خلقها وعملها ، كما تختار للزراعة الأرض الصالحة التى يرجى نمو النبات فيها وإيتاؤه الغلة الجيده . ويتضمن الأمر بحسن تربية الولد وتهذيبه وفى الحديث «الولد الصالح من عمل المرء الذى ينفعه بعد موته» وأما ما يحذر منه ويتقى الله فيه فهو إخراج النساء عن كونهن حرثا باضاعة مادة النسل فى المحيض ،

أو بوضعها فى غير موضع الحرث ، وكذلك اختيار المرأة الفاسدة التربية وإهمال تربية الولد ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ إنذار للذين يخالفون عن أمره بأنهم يلاقون جزاء مخالفتهم فى الآخرة كما يلاقونها فى الدنيا بفقد منافع الطاعة والامتثال ، وتجرع عاقبة المخالفة والعصيان ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين ينفقون عند حدود الله ويتبعون هدى الله تعالى فى أمر النساء والاولاد . وقد حذف ما به البشارة ليفيد أنه عام يشمل منافع الدنيا ونعيم الآخرة ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ العرضة لها معان أظهرها هنا اثنان : أحدهما أن تكون بمعنى المانع المعترض دون الشىء ، أى لاتجعلوا الله تعالى مانعا بينكم وبين عمل الخير بأن تحلفوا به على تركه فتتركوه تعظيما لاسمه ، قال عليه السلام « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى فيه خير وليكفر عن يمينه » والله تعالى لايرضى بأن يكون اسمه حجابا دون الخير أو محضا للشر ، فنهى عن ذلك . والمعنى الثانى للعرضة ما يعرض للشىء أى ما ينصب ليعرض له الشىء ، يقال فلان عرضة للناس إذا كادوا يقعون فيه . والمعنى على هذا الوجه لا تكثروا الحلف بالله تعالى ، فالذى يجعل الله عرضة لأيمانه هو كالحلاف فى قوله تعالى ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ فكثير الحلف كثير المهانة وقرينها ، ولايكون الحلاف إلا كذابا ، فهو على إهانته لاسم الله تعالى يفوته مايريد من قبول قوله وتصديقه . وهذا الوجه أظهر من الذى سبقه فالآية الكريمة ترشدنا الى ترك الحلف بالله تعالى إلا عند الحاجة الى ذلك ﴿ أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ والمعنى اذا حلف أحدكم على ترك البر أو التقوى أو الإصلاح بين الناس فليكفر عن يمينه وليفعل البر والتقوى والإصلاح ، فلا عذر لأحد فى ترك ذلك ، ولا يرضى الله تعالى أن يكون اسمه مانعا منه . وهناك وجه آخر لتعليل النهى ، أى لاتجعلوه تعالى معرضا لأيمانكم لأجل البر والتقوى والإصلاح ، فان كثير الحلف لايكون أهلا لذلك من كونه يكون مهينا غير معظم لله تعالى وعرضة للكذب والحنث وغير موثوق بقوله ، فانى يرضاه الناس مصلحا بينهم ، والمصلح مرب ومؤدب وحاكم مطاع بالاختيار ﴿ والله سميع عليم ﴾ أى سميع لما تلفظون به من الحلف وغيره ، عليم بما يترتب على كثرة الحلف وبغيره من أعمالكم فعليكم أن تراقبوه

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ فاللغو أن يقع الكلام حشوا غير مقصود به معناه فهو يقول ان هذه الألفاظ التى تسبق الى اللسان عادة ولا يقصد بها عقد اليمين لغو من القول لا تعد أيمانا حقيقية ، فلا يؤاخذكم الله تعالى بها بفرض الكفارة عليها ولا بالعقاب كقول القائل لا والله وبلى والله وكلا والله . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لغو اليمين كقول الانسان لا والله ، بلى والله . وبهذا قال الشافعى . وقال قوم هو أن يحلف على شىء يرى أنه صادق ثم يتبين أنه خلاف ذلك ، وبه قال أبو حنيفة رضى الله عنه . وقيل هو دعاء الرجل على نفسه كقول الانسان أعمى الله بصرى اذا لم أفعل هكذا ، فهذا هو مالا يؤاخذ الله به . قال تعالى ﴿ ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير ﴾ . ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ بجعل اسمه الكريم عرضة للابتذال أو مانعا لصالح الأعمال ، فان الله لا ينظر الى صوركم وأقوالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ﴿ والله غفور حليم ﴾ يغفر لعبده مايلم به مما لا يفسد أخلاقه وأعماله ، حليم لم يتعجل بالعقوبة على هذا اللمم الذى يضعف العبد عن التوقى منه ، وقيل حليم حيث لم يعجل المؤاخذة بيمين الجد تربصا للتوبة

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

التفسير

﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ﴾ الإيلاء من المرأة أن يحلف

الرجل أنه لايقربها ، وهو ما يكون من الرجال عند المغاضبة والغيظ ، وفيه امتهان للمرأة وهضم لحقها واظهار لعدم المبالاة بها ، فترك المقاربة الخاصة المعلومة ضرار ومعصية ، والحلف عليه حلف على مالا يرضى الله تعالى ، لما فيه من ترك التراحم والتواد بين الزوجين ، وما يترتب على ذلك من المفاسد فى أنفسهما وفى عيالهما وأقاربهما . والظاهر أن حكم هذا الايلاء (الحلف) يدخل فى معنى الآية على الوجه الأول من الوجهين اللذين أوردناهما ، وهو أنه يجب على المؤلى أن يحنث ويكفر عن يمينه، ولكنه إذا لم يفعل هذا الواجب لم يكن آثما فى نفسه فقط فيقال حسبه مايلقى من جزاء إثمه ، بل يكون بأثمه هاضما لحق امرأته ، ولا يبيح له العدل هذا الهضم والظلم ، ولذلك أنزل الله فيه هذا الحكم وهو التربص مدة أربعة أشهر - وقيل إن هذه هى المدة التى لايشق على المرأة البعد فيها عن الرجل ، وهى كافية لتروّى الرجل فى أمره ورجوعه إلى رشده ﴿ فان فاءوا ﴾ أى رجعوا إلى نسائهم بأن حنثوا فى اليمين وقاربوهن فى أثناء هذه المدة أو أواخرها ﴿ فان الله غفور رحيم ﴾ يغفر لهم ماسلف برحمته الواسعة ، لأن الفيئة توبة فى حقهم ﴿ وان عزموا الطلاق ﴾ أى صمموا قصده وعزموا على أن لايعودوا إلى ملامسة نسائهم ﴿ فان الله سميع عليم ﴾ فليراقبوا الله تعالى عالمين أنه سميع لأيلائهم وطلاقهم ، عليم بنيتهم ، مجازيهم بأعمالهم . والمعنى أن من حلف على ترك غشيان امرأته فلايجوز له أن يتربص أكثر من أربعة أشهر ، فأن تاب وعاد قبل انقضائها لم يكن عليه إثم ، وإن أثمها تعين عليه أحد أمرين : الفيئة والرجوع إلى المعاشرة الزوجية أو الطلاق ، وعليه أن يراقب الله تعالى فيما يختاره منهما ، فإن لم يطلق هو بالقول كان مطلقا بالفعل ، أى أنها تطلق منه بعد انتهاء المدة رغم أنفه منعا للضرار ، وقيل ترفع أمرها إلى الحاكم فيطلق عليه ، والمسألة خلافية فى هذا ، ولكن لاخلاف فى عدم جواز بقائها على عصمته وعدم إباحة مضارتها .

﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ المراد بالمطلقات الأزواج اللواتى تحقق فيهن معنى الزوجية وعهدن أن يكن مطلقات وأن يتزوجن بعد الطلاق ، وهن الحرائر ذوات الحيض بقرينة السياق ، ومعنى التربص مدة ثلاثة قروء هو أن لاتتزوج المطلقة حتى يمر عليها ثلاثة قروء ، وهى جمع «قرء» ويطلق فى اللغة على حيض المرأة

وعلى طهرها منه ، والأصل فيه الانتقال من الطهر إلى الحيض ، والمقصود من هذا التربص العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق ، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاثة أطهار ، ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل ، فكل من القولين موافق لحكمة الشرع فى المسألة ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن ﴾ أمر تعالى بأن تعتد المرأة بعد فراق زوجها ليظهر أنها بريئه من الحمل ، ونهى أن تكتم الحمل إذا علمت به، واختار كثير من المفسرين أن خلق الله فى أرحامهن يشمل الولد والحيض ، وهو المروى عن ابن عمر ، فقد تكتم المرأة حيضها لتطيل أجل عدتها وذلك محرم ﴿ إن كنّ يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ وهذا وعيد شديد ، كأنه يقول إذا كن يعرفن من أنفسهن الإيمان بالله الذى أنزل الحلال والحرام لمصلحة الناس ، وباليوم الآخر الذى يكون فيه الجزاء بالقسطاس ، فلا يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن ، وإلا كن غير مؤمنات بما أنزل الله تعالى من هذه الأحكام ، وجعل فى اتباعها المثوبة والرضوان وفى تركها الشقاء والخسران

﴿ وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا ﴾ أى يكون بعل المراة أى زوجها أحق بها فى مدة العدة إذا قصد إصلاح ذات البين وحسن المعاشرة ، أما إذا قصد مضارتها ومنعها من التزوج بعد العدة حتى تكون كالمعلقة - لا يعاشرها معاشرة الأزواج بالحسنى ، ولا يمكنها من التزوج - فهو آثم بينه وبين الله تعالى . والطلاق الذى تحل فيه الرجعة قبل انقضاء العدة يسمى طلاقا رجعيا ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ﴾ وهذه الآية قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق إلا أمرا واحد عبر عنه بقوله ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ ، وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة ، وأنهما أكفاء ، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها - إن لم يكن مثله فى شخصه فهو مثله فى جنسه - فهما متماثلان فى الحقوق والأعمال ، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل ، أى ان كلا منهما بشر تام له عقل يتفكر فى مصالحه وقلب يحب ما يلائمه ويسر به ويكره ما لا يلائمه وينفر منه ، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبدا يستذله ويستخدمه

فى مصالحه ، لاسيما بعد عقد الزوجية والدخول فى الحيـــاة المشتركة التى لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه .

وخاطب الله تعالى النساء بالايمان والمعرفة والأعمـــال الصالحة فى العبادات والمعاملات كما خاطب الرجال ، وجعل لهن عليهم مثل ما جعله لهم عليهن ، وقرن أسماءهن بأسمائهم فى آيات كثيرة ، وبايع النبى ﷺ المؤمنات كما بايع المؤمنين ، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهم ، وأجمعت الأمة على ما مضى به الكتاب والسنة من أنهن مجزيات على أعمالهن فى الدنيا والآخرة .

والآية تدل على اعتبار العرف فى حقوق كل من الزوجين على الآخر ما لم يحلّ العرف حراما أو يحرم حلالا مما عرف بالنص ، والعرف يختلف باختلاف الناس والأزمنة .

﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ فهو يوجب على المرأة شيئا وعلى الرجل أشياء . ذلك أن هـــذه الدرجة هى درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ فالحياة الزوجية حياة اجتماعية ، ولا بد لكل اجتماع من رئيس يرجع إلى رأيه فى الخلاف ، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ، ومن ثم كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها ، وكانت هى مطالبة بطاعته فى المعروف ، فان نشزت عن طاعته كان له تأديبها بالوعظ والهجر والضرب غير المبرح إن تعين تأديبا ، ويجوز ذلك لرئيس البيت لأجل مصلحة العشيرة وحسن العشرة كما يجوز مثله لرئيس الأمة أو الخليفة أو السلطان لأجل مصلحة الجماعة ، وأما الاعتداء على النساء لأجل التحكم والتشفى أو شفاء الغيظ فهو من الظلم الذى لا يجوز بحال .

﴿ والله عزيز حكيم ﴾ فكأن من لا يرضى بهذه الاحكام الحكيمة يكون منازعا لله تعالى فى عزة سلطانه ، ومنكرا لحكمته فى أحكامه ، فهى تتضمن الوعيد على المخالفة

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا

مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون (٢٢٩) فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (٢٣٠) وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه، ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم (٢٣١)

التفسير

﴿ الطلاق مرتان ﴾ الطلاق هو عبارة عن مفارقة المرأة المدخول بها، ويحل الرجل عقدة الزوجية التى تربطه بها، وحدُّ الله الذى حدده للطلاق ولم يخرج به العصمة من أيدى الرجال هو مرتان - أى طلقتان - وعبر بالمرتين ليفيد أن الطلقتين تكون كل منهما مرة تحل بها العصمة ثم تبرم، لا أنهما يكونان بلفظ واحد - إن شاء الطلاق ثلاثا بالقول ليس فى قدرة الرجل إيقاعه مرة واحدة - ذلك أن الأمور العملية لا تتكرر بتكرار القول المعبر عنها، بل ولا القولية، فمن فسخ العقد مرة وعبر عنها بقوله «ثلاثا» فهو كاذب - ولو صح ذلك لصح أن يقال الواحد ثلاثة والثلاثة واحد - ومن سفه نفسه وجاء بهذا فقد خرج عن السنة واستحق التأديب، فقد ورد فى الحديث

الصحيح : أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ » حتى قام رجل فقال يارسول الله أقتله ؟ ولم يكن طلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر إلا واحدة فلما كان عهد عمر تتابع الناس فى الطلاق فأجازه عليهم وكان تأديبا لهم على مخالفة ماشرعه الله فى الطلاق من كونه يوقع المرة بعد المرة ليرجعوا إلى السنة ، وإن المصلحة الآن تقضى بالرجوع إلى الكتاب وما قضت به السنة فى عهد النبى ﷺ والخليفة الأول فرارا من مفاسد التحليل التى هى من أكبر العار على المسلمين على أنها مخالفة لدينهم

﴿ فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ فيه وجهان : أحدهما معناه فالواجب عليكم إما امساك للمرأة مع المعاشرة بالمعروف وإما تسريحها بامضاء الطلاق مع الاحسان إليها واتقاء إهانتها والاساءة إليها . والوجه الثانى أنه ليس لكم بعد المرتين إلا أحد الأمرين : الامساك بالمعروف ، أو التسريح - أى الطلاق - بالاحسان . ويؤيده حديث أبى رزين الأسدى عند أبى داود وغيره أنه سأل النبى ﷺ سمعت الله يقول ﴿ الطلاق مرتان ﴾ فأين الثالثة ؟ فقال ﷺ « أو تسريح باحسان » . وعلى هذا يكون قوله ﴿ فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ﴾ فى الآية الآتية بمعنى فان اختار الأمر الثانى وهو التسريح فطلقها بانت منه ولا تحل له الخ ماسيأتى مع حكمته ، لا أنه دليل على طلقة رابعة .

﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ﴾ ويدخل فى ذلك المهر وغيره مما يعطيه الرجل امرأته على سبيل التمليك ، بل يجب أن يمتعها بشىء من ماله ﴿ فمتعوهن وسرحوهن ﴾ ومحل هذا الحكم اذا كان الزوج هو الذى اختار فراق المرأة ورغب عنها ، وأما إذا كانت هى الراغبة عنه المطالبة لفراقه وخيف أن تتوسل اليه بالنشوز وسوء العشرة - لكراهتها إياه ولسوء خلقها لا لمضارته لها - فلا جناح عليهما حينئذ فيما يأخذه منها لاطلاق سراحها إذ لا يكلف خسارة امرأته وماله بغير ذنب ، ولذلك

قال الله تعالى ﴿ إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله ﴾ التى حددها للزوجين من حسن المعاشرة والمماثلة فى الحقوق مع ولاية الرجل والتعاون على القيام بأمر المنزل وتربية

الأولاد وعدم المضارة ﴿ فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ لاجناح عليها - أى لاحرج عليها - فيما تعطيه إياه ليخلعها ، لأن طلبها الطلاق

إنما يحظر لغير هذا العذر ، ولا جناح عليه فيما يأخذ لأجل ذلك لأنه برضـاها واختيارهـا فى غير ماإكراه منه ولا مضارة . ويتجلى هذا بعرض حالات الزوجين الثلاث على العقل والعدل ، فهما إن أقاما حدود الله تعالى بحسن المعاشرة وأداء كل منهما حق الآخر - إلا ما كان من شذوذ يتسامح فيه عادة فلا خوف ولا فراق ، وإن عرض لها مايمنع إقامتها فلا بد أن يكون العارض المانع من قبل أحدهما أو كليهما ، فان كان من قبل الرجل بأن أبغض المرأة أوفتن بغيرها وأحب فراقها بغير ذنب منها أوجب ذلك وخاف أن لايعاملها بما يجب من المعروف وأن تقابله بمثل ذلك فله أن يسرحها باحسان ، لأن عقدة الزوجية بيده وليس له أن يأخذ مما كان أعطاهـا شيئا بالنص ، وإن كان طلب الطلاق من قبلها كأن أبغضته بغضا لاتستطيع الصبر عليه والقيـام معه بحقوق الزوجية وخافت أن تقع فى النشوز ويسرف هو فى العقوبة فمن العدل أن تعطيه ماكانت أخذت منه باسم الزوجية ليحل عقدتها فلا يخسر ماله وزوجته عملا بالرخصة فى الآية

﴿ تلك حـدود الله فلا تقربوها ﴾ أى هذه الأوامر والنواهى هى حدود الله للمعاملة الزوجية فلا تتجاوزوها بالمخالفة ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ الذين صار الظلم وصفـا لهم متمكنا من أنفسهم ، والظلم آفة العمران ومهلك الأمم ، والظالم هو الذى فعل ماليس له فعله ووضع الشىء فى غير موضعه

﴿ فان طلقهـــا فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ﴾ أى فان طلقها بعد المرتين طلقة ثالثة فلا يملك مراجعتهـا بعد ذلك إلا إذا تزوجت بآخر زواجا صحيحاً مقصودا حصل به ما يراد بالزواج من الغشيان . وقال المفسرون والفقهـاء فى حكمة ذلك أنه إذا علم الرجل أن المرأة لاتحل له بعد أن يطلقها ثلاث مرات إلا إذا نكحت زوجا غيره فانه يرتدع لأنه مما تأباه غيرة الرجال وشهامتهم ، لاسيما إذا كان الزوج الآخر عدوا مناظرا للاول ﴿ فان طلقها ﴾ الزوج الثانى ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ أى لاإثم على الزوج الثانى والمرأة ﴿ أن يتراجعا ﴾ وحكمته بعد قوله تعالى ﴿ وبعولتهن أحق بردهن ﴾ وهى إزالة وهم من يتوهم أن الزوج الأول يكون أحق بها ، وعلى كلا القولين لابد فى التراجع من مراعاة شرطه وهو قوله تعالى ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود

الله ﴾ فلا بد من حسن القصد وسلامة النية من كل من الزوجين لأن الله ما وضع هذه الحدود للزوجين إلا ليصلح حالهما ويستقيم عملهما ، فان كانت هناك نية سوء فان هذا التراجع لاقيمة له عند الله تعالى : وإن صح عند القاضى أو المفتى عملا بالظاهر ﴿ وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾ أى يبينها فى كتابه لأهل العلم بفائدتها ومافيها من المصلحة ومن علم المصلحة فى شىء كان مندفعا بطبعه الى العمل به واقامته على الوجه الذى يتحقق به الفائدة منه ، ومن تزوج بامرأة مطلقة ثلاثا بقصد إحلالها للأول كان زواجه غير صحيح ، بل هو معصية لعن الشارع فاعلها ، وهو لا يلعن من فعل فعلا مشروعا ، ولا تحل به المرأة للأول فان عادت اليه كانت حراما ، ومثال ذلك من طهر الدم بالبول وهو رجس على رجس ، وقد جاء فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ قال «ألا أخبركم بالتيس المستعار» قالوا : بلى يا رسول الله ، قال «هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له» وسئل عليه الصلاة والسلام عن المحلل فقال «لا ، إلا نكاح رغبة ، لا دلسة ولا استهزاء بكتاب الله عز وجل ، ثم تذوق العسيلة» وجاء فى الأثر عن عمر رضى الله عنه أنه قال : لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما ، فسئل ابنه عن ذلك فقال : كلاهما زان

﴿ وإن طلقتم النساء فبلغن أجلهن ﴾ هو زمن العدة ، ومعنى «بلغن أجلهن» قاربن تمام العدة وهو مبنى على قاعدة ما قارب الشىء يعطى حكمه تجوزا ، يقول المسافر : بلغنا البلد ، أو وصلنا ، إذا دنا منه وشارفه . وقوله ﴿ فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ معناه فاعزموا أحد الأمرين : امساك المرأة بالمراجعة ، أو اطلاق سبيلها . ولكن ما تختارونه من أحد الأمرين بالمعروف الذى شرع لكم فى آية الطلاق مرتان ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ أى ولا تراجعوهن إرادة مضارتهن وإيذائهن للاعتداء عليهن بتعمد ذلك . والضرار بمعنى الضرر ﴿ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ فى الدنيا بسلوك طريق الشر والاعتداء التى لا راحة لضمير صاحبها ، ويجعل المرأة وعصبتها أعداء له يناصبونه ويناوئونه ، والعدو القريب أقدر على الايذاء من العدو البعيد ، ويتغير الناس منه حتى يوشك أن لا يصاهره أحد

وظلمها فى الآخرى أيضا بما خالف أمر الله وتعرض لسخطه وعقابه ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾ والمعنى لا تتهاونوا بحدود الله تعالى التى شرعها لكم فى آيه جريا على سنن الجاهلية ، فان هذا التهاون والاعتداء للحدود - بعد هذا البيان والتأكيد من الله تعالى - يعد استهزاءاً بآياته

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ ان جمهور المفسرين فسروا نعمة الله هنا بالدين أو الرسالة ، وجعلوا قوله : ﴿ وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴾ تفصيلا للنعمة المجملة . ذكرنا سبحانه أولا بنعمته علينا فى أنفسنا بتمكين صلة الزوجية واحترامها وتوثيقها للمحافظة عليها ، وثانيا بهذا الدين القويم الذى هدانا إلى ذلك وحدد لنا كتابه الحدود ووضع الأحكام ، مبينا حكمها وأسرارها ، كى نجعله إماما وواعظا لنا فى تقويم الفطرة على ما مضت به السنة وعززته الحكمة . وذهب بعضهم إلى ان النعمة هنا عامة تشتمل نعم الدنيا والدين .

ثم ختم الآية بقوله ﴿ واتقوا الله ﴾ بامتثال امره ونهيه زيادة فى العناية بأمر النساء وصلة الزوجية ، ﴿ واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ ، لايخفى عليه شىء مما يسره العبد أو يعلنه ، فلا يرضيه إلا التزام حدوده والعمل باحكامه ، على الاخلاص وحسن النية ، حتى يكون ظاهره كباطنه فى الخير ، فالله عالم ومطلع عليه ، ولا يرضى منه إلا بتطهير قلبه وإخلاص نيته فى معاملة زوجه وسائر المعاملات . وان منشأ فساد البيوت وشقاء المعيشة هو الإعراض عن هدى كتاب الله المبين ، ولا سبيل الى السعادة إلا بالرجوع اليه .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ

أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)

التفسير

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ﴾ المراد ببلوغ الأجل انقضاء العدة لا قربه كما فى الآية التى قبلها . وقال المفسرون إن الرجال المطلقين كانوا يفعلون ذلك يتحكم الرجل بمطلقته فيمنعها أن تتزوج غيره أنفة وكبراً أن يرى امرأته تحت غيره ، فكان يصد عنها الأزواج بضروب من الصد والمنع ، كما كان يراجعها فى آخر العدة لأجل العضل ، وقد أثبت الاسلام الولاية للأقربين ، وحرم العضل وهو المنع من الزواج وأن يزوج الولى المرأة بدون إذنها فجمع بين المصلحتين .

﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ العضل الحبس ، وقيل هو مأخوذ من المنع وقيل هو مأخوذ من الضيق والشدة . وعضل المرأة يعضلها عضلا اذا منعها من التزويج ظلما ، كأنه يقول : يا أيها الذين آمنوا إذا وقع منكم تطليق للنساء وانقضت عدتهن وأراد أزواجهن أو غيرهم أن ينكحوهن وأردن هن ذلك فلا تعضلوهن أن

ينكحن ، أى لا تمنعوهن من الزواج . وعلى هذا الوجه يأخذ كل واحد حظه من الخطاب للمجموع ﴿ إذا تراضوا بينهم بالمعروف ﴾ بأن رضى كل من الرجل والمرأة بالآخر زوجاً بالمعروف ، أى بما لا يكون مستنكراً فى عادة ولا خلق ولا عقل . وقوله « بينهم » يشعر بأن لا نكر فى أن يخطب الرجل المرأة إلى نفسها ويتفق معها على التزوج بها ، ويحرم حينئذ عضلها أى امتناع الولى أن يزوجها منه إذا كان ذلك التراضى فى الخطبة بالمعروف شرعا وعادة ، بأن لا يكون هناك محرم ولا شىء يخل بالمروءة ويلحق العار بالمرأة وأهلها . وقد استدل الفقهاء بهذا على أن العضل من غير الكفء غير محرم ، كأن تريد الشريفة فى قومها أن تتزوج برجل خسيس يلحقها منه الغضاضة ويمس ما لقومها من الشرف والكرامة فينبغى أن تصرف عنه بالوعظ والنصيحة ﴿ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أى ذلك الذى تقدم من الأحكام والحدود المقرونة بالحكم والترغيب والترهيب يوعظ به أهل الإيمان بالله والجزاء على الأعمال فى الآخرة ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ الزكاء النماء والبركة فى الشىء ، واتباع ما جاء به القرآن فى منع عضل النساء ، وفى معاملتهن بالمعروف فى كل حال مزيد فى نماء متبعيه وصلاح حالهم وأطهر لأعراضهم وأنسابهم وأحفظ لشرفهم وأحسابهم ، لأن عضل النساء والتضييق عليهن مدعاة لفسوقهن ، ومفسدة لأخلاقهن ، وسبب لفساد البيوت ، وشقاء الذرارى ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ والله يعلم ما فيه النفع والصلاح وأنتم لا تعلمون لقصور علمكم .

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ أى على جميع الوالدات مطلقات كن أو غير مطلقات أن يرضعن أولادهن مدة حولين كاملين لا زيادة عليهما ، وقد تنقص المدة إذا رأى الوالدات أن فى ذلك مصلحة ، والأمر موكول إلى اجتهادهما ، ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أى وعلى الوالد كفاية المرضع من طعام وكسوة لتقوم بخدمته كما يجب وترعاه حق الرعاية بالمعروف ، يفسره ما يعقبه وهو قوله تعالى ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها ﴾ والمعنى أن المطلوب التوسع فى النفقة من السعة أى بحيث لا ينتهى إلى ضيق كما قال

تعالى ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾ . ﴿ لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ﴾ وهذا أمر يمنع الضرار باعطاء كل ذى حق حقه بالمعروف وهو يتناول تحريم كل ما يأتى من أحد الوالدين بالإضرار بالآخر ، كأن تقصر الأم فى تربية الولد البدنية أو النفسية لتغيظ الرجل ، وكأن يمنعه هو من أمه ولو بعد مدة الرضاع أو الحضانة ، والعبارة نهى عام عن المضارة بسبب الولد ، لا تقييد ولا تخصيص بوقت دون وقت أو حال دون حال أو شخص دون شخص ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ أى على وارث الصبى وهو قريبه الذى لا يجوز له أن يتزوجه على تقدير أن يكون أحدهما ذكرا والثانى أنثى مثل ما وجب على الأب من الرزق أو الكسوة وأجرة الرضاع . وقيل المراد بالوارث وارث الصبى من الوالدين ، أى إذا مات أحد الوالدين فيجب على الآخر ما كان يجب عليه من إرضاعه والنفقة عليه ﴿ فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ أى للوالدين صاحبى الحق المشترك فى الولد والغيرة الصحيحة عليه أن يفطماه قبل هذه المدة أو بعدها إذا اتفق رأيهما على ذلك بعد التشاور فيه بحيث يكونان راضيين غير مضارين فيه ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ أى وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم المراضع الأجنبيات فلا ضير فى ذلك إذا أعطيتم لهن الأجور المتعارفة لأمثالهن ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ فى المحافظة على ما شرع لكم فى أجر الأطفال والمراضع فهو يحصى لكم عملكم ويجازيكم عليه

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ يتوفون أى يتوفاهم الله تعالى بأن يقبض أرواحهم ويميتهم ، ويذرون أى يتركون . والمعنى أن عدة النساء اللاتى يموت أزواجهن أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا يتعرضن فيها للزواج بزينة ولا خروج من المنزل إلا للأعذار المبيحة لذلك ، ولا يواعدن الرجال بالزواج اهتماما بحقوق الزوجية وتعظيما لشأنها . وقد حرمت السنة الحداد على غير الزوج أكثر من ثلاثة أيام ، وهذا خاص بغير الحوامل فان الحامل التى يموت

زوجها تنقضى عدتها بوضع الحمل ولو بعد الموت بساعة كما قال تعالى ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن ﴿ فاذا بلغن أجلهن ﴾ أى أتممن عدتهن ﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ﴾ عما كان محظورا عليهن فى العدة من التزين والتعرض للخطاب والخروج من المنزل ، وقيد ذلك بالمعروف أى شرعا وادبا عرفيا ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه شىء من اعمالكم .

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا . وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)

التفسير

﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم ﴾ أى لا إثم ولا حرج على الرجل أن يعرض للمرأة ويلوح لها فى أثناء عدة الزواج أو عدة الطلاق البائن بأمر الزواج . وللناس فى كل عصر كنايات يستعملونها فى مثل هذا . كذلك لا حرج عليه فيما يكتمه فى نفسه ويعزم عليه من الزواج بها بعد انتهاء أجل العدة ، لأن مثل هذا مما يتعسر الاحتراز منه . ومن ثم ذكره الله تعالى على

وجه الترخيص بقوله ﴿ علم الله أنكم ستذكرونهن ﴾ فى أنفسكم ويشق عليكم أن تكتموا رغبتكم وتصرون على أن تبوحوا لهن بما انطوت عليه جوانحكم ومن ثم رخص لكم فى التعريض دون التصريح ﴿ ولكن لا تواعدوهن سرا ﴾ أى ولكن لا تواعدوهن على الزواج فى السر لأن هذا مدعاة للفتنة ومظنة للقيل والقال. وذهب جمهور العلماء إلى أن السر هنا يراد به النكاح ، أى لا تتعدوا معهن وعدا صريحا على التزوج بهن ﴿ إلا أن تقولوا قولا معروفا ﴾ أى وواعدوهن بقول معروف لا يستحيا منه فى الجهر كذكر حسن العشرة وسعة الصدر للزوجات ونحو ذلك . والخلاصة أن التزوج بالمرأة فى العدة محرم قطعا ، بل الخطبة فيها محرمة والعقد فيها باطل باجماع المسلمين ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ أى أن الله يعلم ما تضمرونه فى قلوبكم على العزم بما لا يجوز فاحذروا أن تعزموا على ما حظر عليكم من قول أو فعل ﴿ واعلموا أن الله غفور حليم ﴾ بين تعالى أن للانسان مخرجا بالتوبة اذا هو تعدى شيئا من الحدود وأراد الرجوع الى الله تعالى فانه غفور حليم لا يعجل بعقوبته بل يمهله ليصلح بأعماله ما أفسده .

﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ﴾ المراد بالجناح هنا التبعة من المهر ونحوه ، أى لا يلزمكم شىء من المهر وغيره عند طلاقكم للنساء قبل الدخول بهن إلا إذا سميتم لهن مهرا ، فان حصل المساس فعليه تمام المسمى فى حال التسمية . أو مهر مثلها إن لم يسم لها مهرا ، وفى حال الطلاق قبل المسيس مع الفرض عليه نصف ما فرض وسمى .

﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ أى وأعطوا المطلقات شيئا من مالكم يتمتعن به على حسب حالكم فى الثروة والغنى ، إلا أن الشارع حسب بسط الكف والسخاء للمطلقة تطييبا لنفسها وعوضا عما لحقها من الضرر ﴿ متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ﴾ أى وجعل هذه المتعة حقا واجبا على من يريد الاحسان فى معاملة المرأة بما يتعارفه الناس بينهم .

هذه المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول ولم يسم لها مهر وهى المذكورة فى الآية ومستحبة لسائر المطلقات

كأن المعنى إن كنتم مؤمنين بالله محسنين فى طاعته فعليكم أن تجعلوا هذا المتاع لائقا مؤديا إلى الغرض ، لأن فى الطلاق غضاضة وإيهاما بأن الزوج ما طلقها إلا وقد رابه شىء فيها ، وإذا متعها متاعا حسنا تزول هذه الغضاضة ويكون هذا المتاع الحسن بمنزلة الشهادة بنزاهتها والاعتراف بأن الطلاق كان من فعله أى لعذر يختص به ، والله أمرنا أن نحافظ على الأعراض بقدر الطاقة .

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

التفسير

﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾

أى وإن حصل الطلاق قبل المسيس وقد سمى لهن مهر فلهن نصف المسمى المفروض ويرجع الى الزوج النصف الثانى ﴿ إلا أن يعفون ﴾ أى النساء المطلقات ﴿ أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ﴾ وهو الولى مطلقا وعليه جماعة من المفسرين ، وقال كثير منهم : إن الذى بيده عقدة النكاح الزوج الذى بيده حلها ، ويستحب له العفو والسماح بكل ما كان قد اعطى وإن كان الواجب المحتم فيه نصفه ، فذلك تمهيد لقوله ﴿ وان تعفوا اقرب للتقوى ﴾ والخطاب على هذا خاص بالرجال ، وفيه وجه آخر أنه عام للنساء والرجال ، أى من عفا فهو المتقى ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ فسروا الفضل بالتفضل والاحسان ، وجعلوه للترغيب فى العفو . وقيل المراد به المودة والصلة ، أى ينبغى لمن تزوج من بيت ثم طلق أن لا ينسى مودة أهل ذلك البيت وصلتهم ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ يرى عملكم فلا يخفى عليه شىء من أمركم فيجزيكم به الجزاء الأوفى على احسانكم أو قصوركم

﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ أى اجتهدوا فى حفظها والمداومة عليها وحفظ الصلاة المرة بعد المرة على الاستمرار عبارة عن الإتيان بها كل مرة كاملة الشرائط والأركان العملية كاملة الآداب والمعانى القلبية . فالشىء الذى يتعاهد بالحفظ دائما هو الذى لا يلحقه النقص ، وإلا لم يكن محفوظا دائما

والصلاة الوسطى هى احدى الخمس ، وقد اختلفوا فى أى الصلوات أفضل ، وأيتها المتوسطة ، وأصحها رواية ماذهب اليه الجمهور من كونها صلاة العصر

﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ أى قوموا ملتزمين الخشية لله تعالى واستشعار هيبته وعظمته ، وهذا يتوقف على التفرغ من كل فكر وعمل يشغل عن حضور القلب فى الصلاة وخشوعه ، لما فيها من ذكر الله بقدر الطاقة . والمحافظة على الصلاة آية الايمان الكبرى ، والشرط فى صحة الإسلام والاخوة فى الدين وحفظ الحقوق . وقد ورد فى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ يقول «العهد بيننا وبينكم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر» وكان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة . وأثر الصلاة فى النفس اجتناب الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والامتثال

لأوامر الله تعالى ، فلا يرى الانسان حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره ﴿ فان خفتم فرجالا او ركبانا ﴾ أى إن خفتم أى ضُر من قيامكم قانتين لله فصلوا كيفما تيسر لكم راجلين أو راكبين ، فاذا تعذر بعض الأعمال البدنية فلا تسقط العبادة القلبية ، وهى الإقبال على الله مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر المستطاع ، ويكون ذلك حين قتال العدو أو الفرار من أسد أو سيل أو نحو ذلك ، فيصلى المكلف راجلا أو راكباً ان حان وقت الصلاة ، لا يمنعه من ذلك الكر والفر والطعن والضرب ، ويأتى من أقوال الصلاة وأفعالها بما يستطاع ، ويومىء بالركوع والسجود ولا يلتزم التوجه للقبلة ﴿ فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أى فان زال خوفكم واطمأننتم فاذكروا الله لأنه علمكم كيف تعبدونه وتصلون له حين الأمن وحين الخوف ، وذلك مالم تكونوا عالمين به من قبل

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً الى الحول غير إخراج ﴾ أى والذين يتوفون منكم ويتركون زوجات بعدهم فليوصوا لهن بوصية ، وليمتعوهن متاعاً إلى آخر الحول ، غير مخرجات من بيوتهن ، فلا يمنعن السكنى فيها والمراد أن على الأزواج أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم بشىء من المال ينفقنه مدة الحول ، ولا يخرجن من البيوت سنة كاملة تمر فيها الفصول الأربعة التى يتذكرن أزواجهن فيها . وهذا أمر ندب واستحسان لا أمر وجوب وإلزام تهاون فيه الناس كما تهاونوا فى كثير من المندوبات ﴿ فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف ﴾ أى فان خرجن من تلقاء أنفسهن فلا إثم عليكم أيها المخاطبون بالوصية فيما فعلن فى أنفسهن من المعروف شرعا وعادة ، كالتعرض للخطاب بعد العدة أو التزوج ، إذ لا ولاية لكم عليهن ، فهن حرائر لا يمنعن إلا من المنكر الذى يمنع منه المكلف ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ أى والله عزيز غالب على أمره يعاقب من خالفه ، حكيم يراعى فى أحكامه مصالح عباده ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ﴾ أى وشرعت المتعة لكل مطلقة على سبيل الوجوب اذا كانت غير مدخول بها ، وعلى سبيل الاستحسان لغيرها ، والذى يفعل ذلك من أشرب قلبه تقوى الله والخوف

من عقابه ، فهو الذى يجود بالمال تطييباً للقلوب وإزالة للضغائن ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ أى مضت سنته تعالى بأن يبين لكم آياته فى أحكام دينه مثل هذا النحو من البيان ، وهو أن يذكر الحكم وفائدته ويقرنه بذكر الله والموعظة الحسنة التى تعين على العمل به ليعدكم بذلك لكمال العقل بتحرى الاستفادة من كل عمل فعليكم أن تعقلوا ماتخاطبون به لتكونوا على بصيرة من دينكم ، عارفين بانطباق أحكامه على مصالحكم بما فيها من تزكية نفوسكم والتأليف بين قلوبكم ، فتكونوا حقيقين باقامتها والمحافظة عليها

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

التفسير

﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ المعنى : ألم ينته علمك إلى حال هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم ، لا من قلتهم ، فقد كانوا ألوفا أى كثيرين ، وإنما هو الحذر من الموت الذى يولده الجبن فى أنفس الجبناء فيريهم أن الفرار من القتال هو الواقى من الموت ، وما هو إلا سبب الموت بما يمكن من رقاب أهله . ولما خرجوا فارّين ﴿ قال لهم الله موتوا ﴾ أى أماتهم بامكان العدو منهم ، فالأمر أمر التكوين لا أمر التشريع ، أى قضت سنته فى خلقه بأن يموتوا

بما أتوه من سبب الموت ، وهو تمكين العدو المحارب من أقفائهم بالفرار ، ففتك بهم ، وقتل أكثرهم ، ولم يصرح بأنهم ماتوا لأن أمر التكوين عبارة عن مشيئته سبحانه فلا يمكن تخلفه وللاستغناء عن التصريح بقوله بعد ذلك ﴿ ثم أحياهم ﴾ وإنما يكون الاحياء بعد الموت . والكلام فى القوم لافى أفراد لهم خصوصية ، لأن المراد بيان سنته تعالى فى الأمم التى تجبن فلا تدافع العادين عليها ، فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لاتعد أمة ، بأن تفرق شملها وذهبت جامعتها ، فكان من بقى من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم مدغمين فى غمارهم لاوجود لهم فى أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم . ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم ، ذلك أن من رحمة الله تعالى فى البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديباً لهم ومطهراً لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة . أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها ، فجمعوا كلمتهم ووثقوا رابطتهم حتى عادت لهم وحدتهم قوية ، فاعتزوا وكثروا ، إلى أن خرجوا من ذل العبودية التى كانوا فيها إلى عز الاستقلال ، فهذا معنى حياة الأمم وموتها : يموت قوم منهم باحتمال الظلم ويذل الآخرون حتى كأنهم أموات ، إذ لا تصدر عنهم أعمال الأمم الحية من حفظ سياج الوحدة وحماية البيضة بتكافل أفراد الأمة ومنعتهم ، فيعتبر الباقون فينهضون إلى تدارك مافات والاستعداد لما هو آت ، ويتعلمون من فعل عدوهم بهم كيف يدفعون عنهم . قال على كرم الله وجهه إن بقية السيف هى الباقية التى يحيا بها الميتون ، فالموت والاحياء واقعان على القوم فى مجموعهم على ما عهدنا فى أسلوب القرآن ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ والمراد بالفضل هنا الفضل العام وهو أنه تعالى جعل إماتة الناس بما يسلط على الأمة من الأعداء ينكلون بها بمثابة هدم البناء القديم المتداعى والضرورة قاضية ببناء ، فلا جرم تنبعث الهمة إلى هذا البناء الجديد فتكون حياة جديدة للأمة . تفسد الأخلاق فى الأمم فتسوء الأعمال فيسلط الله على فاسدى الأخلاق النكبات ليتأدب الباقى منهم فيجتهدوا فى إزالة الفساد وادالة الصلاح ، ويكون ماهلك من الأمة بمثابة العضو الفاسد المصاب بالغنغرينا يبتره الطبيب ليسلم الجسد كله ومن لايقبل هذا التأديب الإلهى فان عدل الله فى الأرض يمحقه منها ﴿ وماللظالمين من أنصار ﴾ فهذه سنة من سنن الاجتماع بينها القرآن وكان الناس فى

غفلة عنها ولهذا قال ﴿ ولكن أكثر الناس لايشكرون ﴾ أى لايقومون بحقوق هذه النعمة ولايستفيدون من بيان هذه السنة ، أى هذا شأن أكثر الناس فى غفلتهم وجهلهم بحكمة ربهم ، فلا تكونوا كذلك أيها المؤمنون . بل اعتبروا بما نزل عليكم وتأدبوا به لتستفيدوا من كل حوادث الكون حتى مما ينزل بكم من البلاء إذا وقع منكم تفريط فى بعض الشئون ، واعلموا أن الجبن عن مدافعة الأعداء أو تسليم الدار بالهزيمة والفرار هو الموت المحفوف بالخزى والعار ، وأن الحياة العزيزة الطيبة هى الحيـــاة الملية المحفوظة من عدوان المعتدين ، فلا تقصروا فى حماية جامعتكم فى الملة والدين والوطن

﴿ وقاتلو فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ والقتال فى سبيل الله هو القتـــال لاعلاء كلمته وتأمين دينه ونشر دعوته والدفاع عن حزبه كى لا يغلبوا على حقهم ولايصدوا عن إظهار أمرهم ، فهو أعم من القتال لأجل الدين لأنه يشتمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته الدفاع عن الحوزة (الوطن) إذا همّ الطامع باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا وأراد العدو الباغى إذلالنـا والعدوان على استقلالنا ، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا فى ديننـــا ، فهذا الأمر مطلق كأنه أمر لنا بأن نتحلى بحلية الشجاعة ونتسربل بسرابيل القوة والعزة لتكون حقوقنـا محفوظة وحرمتنـا مصونة لانؤخذ من جانب ديننا ولا نغتال من جهة دنيانا ، بل نبقى أعزاء الجانبين جديرين بسعادة الدارين . ألم تر أن من ساق الله لنا العبرة بحالهم وذكرنا بسنته فى موتهم لم يذكر أنهم قوتلوا أو قتلوا لأجل الدين ، فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق كله جهاد فى سبيل الله .

« ذكرنا الله تعالى بعد هذا الأمر بأنه سميع عليم لينبهنـا على مراقبته فيما عسى أن نعتذر به عن أنفسنا فى تقصيرها عن امتثال هذا الأمر فى وقته ، وأخذ الأهبة له قبل الاضطرار إليه . أمرنا أن نعلم أنه سميع لأقوال الجبناء فى اعتذارهم عن أنفسهم : ماذا نعمل ، مافى اليد حيلة ، ليس لها من دون الله كاشفه ، ليس لنا من الأمر شىء ، لو كان لنا من الأمر شىء ما قعدنا ههنا ! فهذه الألفاظ فى هـذا المقام منفاخ الجبن وعلل الخوف والحزن ، فهى عند أهلها تعلات واعذار ، وعند الله ذنوب وأوزار . وما كان منها حقا فى نفسه فهو من الحق الذى أريد به الباطل ، وأنه عليم بما يأتيه مرضى القلوب وضعفاء الايمان من الحيل والمراوغة والفرار من الاستعداد والمدافعة ، فاذا علمنا

هذا وحاسبنا به أنفسنا عرفنا أن كلا من المعتذر بلسانه والمتعلل بفعاله مخادع لربه ولنفسه ولقومه » .

« وكثير من الناس يهزأ بنفسه وهو لايدرى إذ يصدق مايعتاده من التوهم ، وهذه شنشنة المخذولين الذين ضربت عليهم الذلة وخيم عليهم الشقاء ، تعمل فيهم هذه الوساوس مالا تعمل الحقائق ، وقد أنذرنا الله تعالى أن نكون مثلهم بتذكيرنا بأنه سميع عليم ، لايخادع ولا يخفى عليه شيء »

« ان هذا التذكير كان بالأمر بالعلم لا بمجرد القول أو التسليم ، فمن علم علما صحيحا أن الله سميع لما يقول عليم بما يفعل حاسب نفسه وناقشها ، ومن حاسب نفسه وناقشها تجلى له كل آن من تقصيرها ما يحمله على التشمير لتدارك مافات ، والاستعداد لماهو آت فمن تراه مشمراً فاعلم أنه عالم ، ومن تراه مقصرا فاعلم أنه مغرور آثم » (١)

﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ إن الحث على الانفاق فى هذه الآية يراد به الانفاق فى المصلحة العامة ، وهو ينطبق على سائرها ، فان القتال لحماية الدين وتأمين دعوته والدفاع عن الأنفس والبلاد هو من سنن الله تعالى فى الاجتماع البشرى ، فالانفاق يصح فيه أن يسمى إقراضا لله تعالى باعتبار إقامة سننه على وجه الحق الذى يرضيه جل شأنه ، أما كون القرض ﴿حسنا﴾ فالمراد به ماحل محله ووافق المصلحة، لاما وضع موضع الفخفخة وقصد به الرياء والسمعة . نعم إن ماأنفق فى المصالح العامة وإن أريد به الشهرة ولكنه لايكون دالا على إيمان المنفق وثقته بربه وابتغاء مرضاته ، ولا على حب الخير لذاته لارتقاء نفسه وعلو همته بما استفاد من فضائل الدين وحسن التهذيب ، ويكون كل جزائه السمعة الحسنة ، فهجرته إلى ماهاجر اليه ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ فهى تكون فى الدنيا والآخرة ، وذلك أن المنفق لاعلاء كلمة الله ولتعزيز الأمة وللمدافعة عن الحق والحقيقة يكون مدافعا عن نفسه ومعززا لها وحافظا لحقوقها ، لأن اعتداء المعتدين على الأمة إنما يكون بالاعتداء على أفرادها ، فضعف الأمة وإذلالها وضياع حقوقها لايتحقق إلا بما يقع على أفرادها وهو منهم

(١) تفسير المنار الجزء الثانى

والبلاء يكون عاما ، ثم الأمة التى يبذل أغنياؤها المال وتقوم بفريضة التعاون على الأعمال فيكفل غنيها فقيرها ويحمى قويها ضعيفها تتسع دائرة مصالحها ومنافعها ، وتكثر مرافقها وتتوفر سعادتها وتدوم على أفرادها النعمة ما استقاموا على البذل والتعاون فى المصالح العامة ، ثم انهم يكونون بذلك مستحقين لسعادة الآخرة ومضاعفة الثواب فيها . ومن التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب قوله : «القرض الحسن المجاهدة والانفاق فى سبيل الله» وهو إجمال لما تقدم تفصيله ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ أى يقبض الرزق عن بعض الناس فيجهلون طرقه التى هى سنن الله تعالى فيه ويضعفون فى سلوكها ، ويبسط لمن يشاء بما يهديهم إلى تلك السنن ويفتح لهم الابواب ويسهل لهم الأسباب ﴿ وإليه ترجعون ﴾ الرجوع إلى الله تعالى رجوع فى هذا العالم إلى سننه الحكيمة ونظام خليقته الثابت ، بأن يعرف الناس أن الغنى بعمل العامل وتوفيق الله وتسخيره ، وأن البذل من فضل الله يأتى بالمنافع الخاصة للباذل وبالمنافع العامة لقومه الذين يعتز بهم ويسعد بسعادتهم ، وأن تركه للنفقة مفاسد ومضار عامة وحاجته للأمم والأفراد ، وأن الانسان لا يستقل بعمله مهما أوتى من رجاحة عقل ، بل له حاجة الى معونة الله وتوفيقه وتسخيره ورجوع فى الآخرة حين تظهر للمرء نتائج أعماله وآثار أفعاله .

مقدمة فى المعنى العام

هذه القصه المفصلة فيها بيان لما فى تلك القصة المجملة . فر أولئك من ديارهم فماتوا بذهاب استقلالهم واستيلاء العدو على ديارهم فالآية هناك صريحه فى موتهم هذا المسبب عن خروجهم فارين بجبنهم ، ولم تصرح لسبب إحيائهم الذى تراخت مدته ، ولكن ماجاء بعدها من الأمر بالقتال وبذل المال الذى يضاعفه الله تعالى أضعافا كثيرة قد هدانا إلى سننه فى حياة الأمم ، وجاءت هذه القصه الاسرائيلية تمثل العبرة فيه ، وتفصيل كيفية احتياج الناس إليه ، إذ بينت أن هؤلاء الناس احتاجوا إلى مدافعة العادين عليهم ، واسترجاع ديارهم وأبنائهم من أيديهم ، واشتد الشعور بالحاجة حتى طلبوا من نبيهم الزعيم الذى يقودهم فى ميدان الجلاد ، وقاموا بما قاموا به من الاستعداد ، ولكن الضعف كان قد بلغ من نفوسهم مبلغا لم تنفع معه تلك العدة فتولوا وأعرضوا للأسباب التى أشير إليها ، وألهم القليل منهم رشدهم واعتبروا فانتصروا .

قال تعالى ﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى﴾ ألم ينته إلى علمك قصة الملأ (القوم يجتمعون للتشاور ، وسموا بذلك لأنهم يملئون العيون رواء والقلوب هيبة) وقال غيرهم : الملأ الأشراف من الناس وهو اسم للجماعة ﴿إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ وهذا النبى لم يسمه القرآن ، وقال أحد المفسرين هو شمويل - وهو معرب صموئيل - وبعث الملك عبارة عن إقامته وتوليته عليهم ﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ والمعنى أتوقع منكم الجبن عن القتال إن هو كتب عليكم ، فعسى للمقاربة أو التوقع ﴿قالوا وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أى أىّ داع لنا يدعونا أن لا نقاتل وقد وجد سبب القتال وهو إخراجنا من ديارنا باجلاء العدو إيانا عنها وإفرادنا عن أولادنا بسبيه إياهم واستعباده لهم ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم﴾ أى فلما فرض عليهم القتال أعرضوا وتخلفوا عن الجهاد ، وضيعوا أمر الله بعد مشاهدة العدو وشوكته إلا قليلا منهم ﴿والله عليم بالظالمين﴾ الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك الجهاد دفاعا عنها وحفظا لحقها فهو يجزيهم وصفهم ، فيكونون فى الدنيا أذلاء مستضعفين ، وفى الآخرة أشقياء معذبين .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

مؤمنين (٢٤٨) فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين ءامنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصبرين (٢٤٩) ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكفرين (٢٥٠) فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وءاته الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العلمين (٢٥١) تلك ءايات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين (٢٥٢)

التفسير

﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ قال المفسرون فى استنكارهم لملك طالوت وزعمهم أنهم أحق بالملك منه إنه لم يكن من بيت الملك ، ولا من بيت النبوة . والعبرة فى العبارة هى ما دلت عليه من طباع الناس ، وهى أنهم يرون أن الملك لا بد أن يكون وارثا للملك ، أو ذا نسب عظيم يسهل على شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له ، وذا مال عظيم يدير به الملك . والسبب فى هذا أنهم اعتادوا الخضوع للشرفاء والأغنياء وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الذاتية ، فبين الله تعالى فيما حكاه عن نبيه فى أولئك القوم أنهم مخطئون فى زعمهم أن استحقاق الملك يكون بالنسب وسعة المال بقوله ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم﴾ ومعنى

اصطفاه : فضله واختاره عليكم ، بما أودع فيه من الاستعداد الفطرى للملك . ولا ينافى هذا كون اختياره كان بوحى من الله ، لأن هذه الأمور هى بيان لأسباب الاختيار وهى :

ا ــ الاستعداد الفطرى

ب ــ السعة فى العلم الذى يكون به التدبير

ج ــ بسطة الجسم المعبر عن صحته وكمال قواه ، المستلزم ذلك لصحة الفكر على قاعدة « العقل السليم فى الجسم السليم »

د ــ توفيق الله تعالى الأسباب ، وهو ما عبر عنه بقوله : ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ بمقتضى سننه إنما يكون بجعله مستعدا للملك فى نفسه وبتوفيق الأسباب لسعيه فى ذلك ، أى هو الجمع بين أمرين : أحدهما فى نفس الملك ، والآخر فى حال الأمة التى يكون فيها . وفى الأحاديث المشهورة على ألسنة العامة « كما تكونون يولى عليكم »

﴿ والله واسع عليم ﴾ واسع التصرف والقدرة إذا شاء شيئا اقتضته حكمته فى نظام الخليقة فانه يقع لا محالة ، عليم بوجوه الأسباب فلا يضع سنته فى استحقاق الملك عبثا ، ولا يترك أمر عباده فى اجتماعهم سدى

﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ أى وقال لهم نبيهم إن من علامة عناية الله بطالوت عود التابوت إليكم ، وفيه ما تطمئن به قلوبكم (وقد كان له عندهم شأن دينى خاص) وفيه بقية من رضاضة الألواح (فتاتهـــا) وعصى موسى وثيابه وشىء من التوراة وأشياء توارثها العلماء من أتباع موسى وهرون ــ وقد كان هـذا التابوت عند أهل فلسطين أخذوه منهم بعد حرب انتصروا فيه عليهم ﴿ تحمله الملائكة ﴾ قيل إن البقرتين اللتين حملتا التابوت وجرتا العجلة (العربة) من بعض بلاد فلسطين إلى بنى اسرائيل كانتا تسيران مسخرتين بالهام الملائكة وحراستهم ، ولم يكن لهما قائد ولا سائق ــ

﴿ إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن فى مجىء التابوت علامة على عناية الله بكم واصطفائه لكم هذا الملك الذى ينهض بشئونكم وينكل بعدوكم ، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تنفروا عنه

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ﴾ فى الكلام حذف لدلالة ما بقى عليه ، وهو فأتاهم التابوت بالصفة التى وعدوا بها فصدقوا وانقادوا لطالوت . فلما فصل طالوت أى خرج من مكانه وقطع الطريق بالجنود أى العساكر (قال) يعنى طالوت : ﴿ إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ أخبر طالوت جنوده بأنهم سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله ، فمن شرب منه فلا يعد من أشياعه المتحدين معه فى أمر القتال ، إلا أن يكون ما يشربه قليلا فان الغرفة تؤخذ باليد مما يتسامح فيه ولا يراه مانعا من الاتحاد به والاعتصام بحبله ، ومن لم يطعمه أى يذقه بالمرة فانه منه وهو الذى يركن إليه ويوثق به تمام الثقة ويعول على جهاده ﴿ فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾ أى شق عليهم مخالفة الشهوة وإن كان فيها هوانهم ، ولم يبق فيهم من أهل الصدق فى الإيمان والغيرة على الملة والأمة إلا نفر قليل ، والعدد القليل من أهل العزائم يفعل مالا يفعله الكثير من ذوى المآثم ، كما يعلم من قوله تعالى ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ﴾ أى فلما جاوز طالوت النهر هو والذين آمنوا معه ﴿ قالوا ﴾ أى الجنود وهم أولئك الذين شربوا منه إلا قليلا منهم ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ وجالوت هو أشهر أبطال أعدائهم الفلسطينيين وعرّبه النصارى « جليات » ، والعبارة تشعر بأن جنود الفلسطينيين كانوا أكثر من الاسرائيليين ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ أى قال الذين يستيقنون بلقاء ربهم بالبعث ، ويتوقعون ما عنده من الجزاء والثواب : كثيرا ما رأينا الجماعات القليلة غلبت الجماعات الكثيرة حين يكتب الله لهم التوفيق بمشيئته وقدرته ، والله لا يذل من نصره وإن قل عدده ، ولا يعز من خذله وإن كثرت آلاته وعدده ، والله مع الصابرين ينصرهم على عدوهم ويثبتهم عند لقائه ، وفى هذا حض على الصبر المؤدى إلى الغلبة والثقة بالله عند

الشدائد . ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أى ولما ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين لاعدائه الفلسطينيين جالوت وجنوده ، وشاهدوا ما هم عليه من كثرة العدد والعدد لجأوا جميعا إلى الله يدعونه أن يفرغ على قلوبهم الصبر ويثبت أقدامهم فى القتال ويملأ نفوسهم ثقة واطمئنانا وينصرهم على أولئك القوم الكافرين عبدة الأوثان الذين تعلقت قلوبهم بالأوهام ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ الذى أعطاهم ما سألوا ببركة التوجه إليه ، وتذكر ما يؤمنون به من قوته التى لا تغالب ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ قالوا إن جالوت جبار فلسطين طلب البراز فلم يجرؤ أحد من بنى اسرائيل على مبارزته حتى أن طالوت جعل لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه فى ملكه ، ثم برز له داود بن يَسَّى وكان غلاما يرعى الغنم ، ولم يقبل أن يلبس درعا ولا أن يحمل سلاحا ، بل حمل مقلاعا وحجارته ، فرماه داود بمقلاعه فأصاب الحجر رأسه فصرعه فدنا منه فاحتز رأسه وجاء به فألقاه إلى طالوت ، فعرف داود ، وكان له الشأن الذى ورث به ملك بنى اسرائيل كما قال تعالى ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ فقد ورث ملك بنى إسرائيل وآتاه الله النبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع وعلوم الدين وفصل الخصومات ، كما قال تعالى ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ أى ولولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد فى الأرض بأهل الاصلاح فيها لغلب أهل الباطل والافساد فى الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم ، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين فى الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين ، وقد سمى هذا « دفعا » باعتبار أنه منه سبحانه إذ كان سنة من سننه فى الاجتماع البشرى ، وسمى « دفاعا » فى قول آخر باعتبار أن كلا من أهل الحق المصلحين وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله

﴿ تلك آيات الله ﴾ يشير إلى قصة الذين خرجوا من ديارهم ، وقصة بنى اسرائيل التى بعدها ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ فيه تعريض بأن ما يقوله بنو اسرائيل مخالفا لهذا فهو باطل ﴿ وإنك لمن المرسلين ﴾ إذ لولا الرسالة لما عرفت شيئا من هذا القصص .

الجزء الثالث

من سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ
مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن
كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ
هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

التفسير

﴿ تلك الرسل ﴾ أى المشار إليهم بقوله ﴿ وانك لمن المرسلين ﴾ ، ﴿ فضلنا بعضهم على بعض ﴾ أى امتاز بعضهم على بعض بما شاء الله من الخصائص فى أنفسهم وفى شرائعهم وأممهم . وقد بين هذا التفضيل فى بعض المفضلين فقال ﴿ منهم من كلم الله ﴾ وهذا التكليم كان من الله تعالى لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى فى سورة الاعراف ﴿ يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾ وهذا ما يدل على أن موسى قد خص بتكليم لم يكن لكل نبى مرسل ، وان كان وحى الله تعالى عاما لكل الرسل ، ويطلق عليه كلام الله تعالى . قال تعالى فى سورة الشورى ﴿ وما كان

لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء انه على حكيم ﴾ ونحن نؤمن بكلام الله تعالى ووحيه مع تنزيهه فى ذاته وصفاته عن مشابهة خلقه ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ ذهب جماهير المفسرين إلى أن المراد به نبينا محمد ﷺ ، وفى هذه الدرجات ما هو خصوصية فى نفسه الشريفة ، ومنها ما هو فى كتابه وشرائعه ، ومنها ما هو فى أمته ، وآيات القرآن تنبىء بذلك كقوله تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ، ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ ، ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ البينات هى ما يتبين به الحق من الآيات والدلائل ، وروح القدس هو روح الوحى الذى يؤيد الله به رسله ، وإفراده عليه السلام بما ذكر لرد ما بين أهل الكتابين فى شأنه عليه السلام من التفريط والافراط ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ جعل الله تعالى هداية الدين له أمراً اختياريا لا وصفا اضطراريا ، فهى معروضة أمامه يأخذ منها بقدر استعداده وفكره كما هو شأنه فى الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون ، هذه سنته تعالى فى الانسان وهى منشأ الاختلاف ، فهو يقول : لو شاء الله أن لا يجعل سنته فى تبليغ الدين وعرضه على الناس هكذا بأن يجعله من إلهاماتهم العامة وشعورهم الفطرى كشعور الحيوان وإلهامه ما فيه منفعته لكانوا فى هدايته سواء يسعدون به أجمعين ، فتمنعهم بيناته أن يختلفوا فيقتتلوا ، ولكنه خلق الانسان على غير ما خلق عليه الحيوان ، وكان ذلك سبب اختلاف أهل الأديان ، فمنهم من آمن إيمانا صحيحا فأخذ الدين على وجهه إذ فهمه حق فهمه ، ومنهم من فهمه مقلوبا وحكم هواه فى تأويله فكان كافرا به فى الحقيقة ، وكان ذلك سبب التنازع والتقاتل ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ﴾ أى ولو شاء الله أن يعذر بعض المختلفين بعضا ، ويقتصر كل فريق على الانتصار لرأيه بالحجة ، لما اقتتلوا على ما يختلفون فيه ، ولكنه أودع فى غرائزهم النضال عن مصلحتهم بكل ما قدروا عليه من قول أو فعل ، فمنهم من يقارع الحجة بالحجة ، ومنهم

القوى الذى يقاوم بالسيف ، فكان الاختلاف فى الرأى والمصالح مع عدم العذر مؤديا إلى الاقتتال لا محالة ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ أى أن اختصاص الناس بهذه المزايا هو أثر إرادته وتخصيصها فلا مرد له

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ والمعنى أنفقوا فان الانفاق فى سبيل الخير والبر — وهى سبيل الله — هو الذى ينجيكم فى ذلك اليوم الذى لا ينجى الأشحة الباخلين فيه من عذاب الله تعالى فداء (وهو معنى البيع) فيفتدوا منه أنفسهم ، ولا خلة يحمل فيها خليل شيئا من أوزار خليله أو يهبه شيئا من حسناته ، ولا شفاعة يؤثر بها الشفيع فى إرادة الله تعالى فيحولها من مجازاة الكافر بالنعمة الباخل بالصدقة المستحق للمقت بالعقوبة بتدنيس نفسه وتدسيتها فى الدنيا ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ والمراد بالكافرين الكافرون بالنعم لقرينة السياق ، وهم الذين لا ينفقون فى سبيل البر والخير ، وقد قصر الظلم عليهم لأنهم ظلموا أنفسهم ودنسوها برذيلة البخل ومنع الحق ، وظلموا الفقراء بمنعهم عما فرض الله لهم من الزكاة والصدقة ، وظلموا الأمة باهمال مصالحها المعبر عنه بسبيل الله ، ولا شىء أسرع فى اهلاك الأمة من فشو البخل ومنع الحق أفرادها

اللهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

التفســـير

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ هذه الآية تثبت له تعالى وحدانية الألوهية مع الحياة التى تشعر بكمال الوجود وكمال الايجاد بافاضة الحياة على الأحياء ، والقيومية وهى كونه قائما بنفسه ثابتا بذاته وكون غيره قائما به ـ أى ثابتا وموجودا بايجاده إياه وحفظه لوجوده بامداده بما يحفظ به الوجود من الأسباب . ومعنى « القيوم » هو القائم على كل شىء . وقالوا هو القائم بنفسه مطلقا لا بغيره ، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور وجود شىء ولا دوام وجوده إلا به . ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ السنة النعاس وهو فتور يتقدم النوم ، والنوم معروف لكل أحد ، والجملة تأكيد لما قبلها مقررة لمعنى الحياة والقيومية على أكمل وجه ، فان من تأخذه السنة والنوم يكون ضعيف الحياة وضعيف القيام بنفسه أو على غيره ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ فهم ملكه وعبيده ، مقهورون لسنته ، خاضعون لمشيئته ، وهو وحده المصرف لشئونهم والحافظ لوجودهم ﴿ من ذا الذى يشفع عنده ﴾ منهم فيحمله على ترك مقتضى ما قضت به سنته وقضت به حكمته ووعدت به شريعته من تعذيب من دسى نفسه بالعقائد الباطلة ودنسها بالأخلاق السافلة ، وأفسد فى الأرض وأعرض عن السنة والفرض . من ذا الذى يقدم على هذا من عبيده ﴿ إلا باذنه ﴾ والأمر كله له صورة وحقيقة ، وليس هذا الاستثناء نصا فى أن الأذن سيقع وإنما هو كقوله ﴿ يوم يأتى لا تكلم نفس إلا باذنه ﴾ فهو تمثيل لانفراده بالسلطان والملك فى ذلك اليوم ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أى ما قبلهم ، وما بعدهم أو بالعكس ، أو أمور الدنيا التى خلفوها وأمور الآخرة التى يستقبلونها ، وما يدركون وما يجهلون ﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ أى إن أحدا من خلقه لا يحيط بما يعلمه الله إلا إذا شاء الله . والشفاعة تتوقف على إذنه تعالى ، وأنه لا يعلم منه إلا بوحى منه ، وإنما يعرف إذنه تعالى بما حدده من الأحكام فى كتابه ، فمن بين أنه مستحق لعقابه فلا يجرؤ أحد أن يدعو له بالنجاة ، ومن بين أنه مستحق لرضوانه

على هفوات ألم بها لم تحول وجهه عن الله تعالى إلى الباطل والفساد، ولم تدس روحه حتى تسترسل فى الخطايا، فهو واصل إليه على ما وعد به فى كتابه وما تفضل به على عباده ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ السياق يدل على أن الكرسى هو العلم الالهى، أى أن علمه تعالى يحيط بما يعملون مما عبر عنه بقوله ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ وقيل إنه تمثيل لملك الله تعالى، وقيل كرسيه قدرته التى يمسك بها السموات والأرض، وقيل هو عبارة عن الملك، وهذا من عالم الغيب لا يعرف حقيقته إلا الله نؤمن به ولا نبحث عنه

﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أى لا يثقله حفظ هذه العوالم بما فيها ولا يشق عليه

﴿ وهو العلى العظيم ﴾ أى وهو المتعالى عن الأنداد والأشباه، العظيم على كل شىء سواه، فهو المنزه بعظمته عن الاحتياج إلى من يعلمه بحقيقة أحوالهم أو يستنزله عمن يريد مجازاتهم على أعمالهم

لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَٰتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥٧)

التفسير

﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ كان معهودا عند بعض الملل — لا سيما النصارى — الدخول فى دينهم بالاكراه، وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين، لأن الايمان

وهو أصل الدين وجوهره عبارة عن إذعان النفس ، ويستحيل أن يكون الاذعان بالالزام والاكراه ، وإنما يكون بالبيان والبرهان ، ولذلك قال تعالى بعد نفى الاكراه ﴿ قد تبين الرشد من الغى ﴾ أى قد ظهر أن فى هذا الدين الرشد والهدى والفلاح والسير فى الجادة على نور ، وأن ما خالفه من الملل والنحل على غى وضلال ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾ وهو كل ما تكون عبادته والايمان به سببا للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يعبد ورئيس يقلد وهوى يتبع ﴿ ويؤمن بالله ﴾ فلا يعبد إلا إياه ولا يرجو غيره ولا يخشى سواه ، يرجوه ويخشاه لذاته وبما سنه من الأسباب والسنن فى عباده ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ أى فقد طلب أو تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكا بأوثق عرى النجاة وأثبت أسباب الحياة . والاستمساك بالعروة الوثقى هو الاستقامة على طريق الحق القويم الذى لا يضل سالكه ، كما أن المتعلق بعروة هى أوثق العرى وأحكمها فتلا لا يقع ولا يتفلت ﴿ والله سميع ﴾ لأقوال مدعى الكفر بالطاغوت والايمان بالله بألسنتهم ﴿ عليم ﴾ بما تكنه قلوبهم مما يصدق ذلك أو يكذبه فهو يجزيهم وصفهم

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ﴾ المولى من الولى وهو القريب من غير فصل ، وهو الذى يكون أولى بالغير من غيره وأحق بتدبيره . والله تعالى ولى المؤمنين على ثلاثة أوجه أحدها أنه يتولاهم بالمعونة على إقامة الحجة والبرهان لهم فى هدايتهم كقوله ﴿ والذين اهتدوا زادهم الله هدى ﴾ وثانيها انه وليهم فى نصرهم على عدوهم وإظهار دينهم على دين مخالفيهم . وثالثها أنه وليهم يتولاهم بالمثوبة على الطاعة والمجازاة على الأعمال الصالحة . والمعنى هو أن المؤمن لا ولى له ولا سلطان لأحد على اعتقاده إلا الله تعالى ، ومتى كان كذلك فانه يهتدى إلى استعمال الهدايات التى وهبها الله له على وجهها وهى الحواس والعقل والدين ، فهؤلاء المؤمنون كلما عرضت لهم شبهة لاح لهم بسلطان الولاية الإلهية على قلوبهم شعاع من نور الحق يطرد ظلمتها فيخرجون منها بسهولة ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ أى لا سلطان على نفوسهم إلا لتلك المعبودات الباطلة

السائقة إلى الطغيان ، فان كانت من الأحياء الناطقة ورأت أن عابديها قد لاح لهم شعاع من نور الحق ينبههم إلى فساد ماهم فيه - بادرت إلى إطفائه وصرفه عنهم بإلقاء حجب الشبهات ، وان كانت من غير الأحياء فسدنة هياكلها وزعماء حزبها لا يقصرون فى تنميق هذه الشبهات ببيان أن الواجب الاعتقاد بتلك السلطة وبما ينبغى لأربابها من التعظيم ، وهو لا شك عبادة وإن سموه توسلا أو استشفاعا أو غير ذلك من الأسماء ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ لأن النار هى الدار التى تليق بأهل الظلمات الذين لم يبق لنور الحق والرشاد مكان فى نفوسهم يصلها بدار النور والرضوان ، فما يكون عليه الانسان فى الآخرة هو عاقبة ما كانت عليه نفسه فى الدنيا - والخوض فى حقيقة تلك الدار التى سميت بالنار غير جائز ، وإنما نعتقد من مجموع النصوص أنها دار شقاء يعذب المرء فيها بما يقدم من عمله السيء ، ونكل الحقيقة إلى الله عز وجل لأنها من عالم الغيب

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٩٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ

أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

التفسير

لما بين سبحانه أنه ولى المؤمنين وأن الكفار لا ولى لهم سوى الطاغوت تسلية لنبيه ﷺ قص عليه بعده قصة ابراهيم ونمرود فقال ﴿ ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه ﴾ للتعجيب من هذه المحاجة وغرور صاحبها وغباوته مع الانكار . أى ألم ينته الى علمك ورؤيتك الى الذى حاج أى خاصم وجادل ابراهيم فى ربه أى فى رب ابراهيم الذى يدعو الى توحيده وعبادته . وقوله ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ معناه أن الذى حمله على هذه المحاجة هو إيتاؤه الملك ، فكان منشأ إسرافه فى غروره وسبب كبريائه وإعجابه بقدرته ﴿ إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت ﴾ وكأنه كان قد سأل عن ربه الذى يدعو الى عبادته وقد كسر الأصنام التى تعبد من دونه وسفه أحلام عابديها لأجله ، فأجاب بهذا الجواب ، فأنكره الملك الطاغية الذى حكى عنه ادعاء الألوهية لنفسه ﴿ قال أنا أحيي وأميت ﴾ أحيي من أحكم عليه بالاعدام بالعفو عنه ، وأميت من شئت بالأمر بقتله . ولما رأى ابراهيم أنه لم يفهم مراده بالذى يحيي ويميت وأنه مصدر التكوين الذى يحيا كل حى باحيائه ويموت بقطع امداده له بالحياة ﴿ قال فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ والمعنى أن ربى الذى يعطى الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته هو الذى يطلع الشمس من المشرق ، أى هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التى نشاهدها عليها ، فان كنت تفعل كما يفعل فغير لنا نظام طلوع الشمس وأت بها من الجهة المقابلة التى جرت سنته

تعالى بظهورها منها ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ أى أدركته الحيرة وأخذه الحقد من نصوع الحجة فلم يحر جوابا ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ المراد بالظلم فى هذا المقام الاعراض عن النور الالهى وهو نور العقل الذى يسير به المرء فى طريق الدين ، فمن ظلم نفسه باطفاء هذا المصباح فسار يتخبط فى الظلمات فانه لا يهتدى فى سيره إلى الصراط المستقيم الموصل الى السعادة ، بل يضل عنه حتى يهلك دون الغاية ﴿ أو رأيت ﴿ كالذى مر على قرية ﴾ أى مثل الذى مر على قرية ، ويعبر عن القرية بالأمة والجماعة أى أو هل رأيت كالذى مر ، ومعناه ان شئت فانظر فى قصة الذى حاج ابراهيم ، وإن شئت فانظر الى قصة الذى مر على قرية ﴿ وهى خاوية على عروشها ﴾ معناه وهى خالية من السكان واقعة على عروشها . أى ساقطة على عروشها أى خراب ﴿ قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها ﴾ يتعجب من ذلك ويعده غريبا لا يكاد يقع ﴿ فأماته الله مئة عام ثم بعثه ﴾ أى فجعله الله فاقد الحس والحركة دون أن تفارق الروح البدن ثم أعاده إلى ما كان عليه أولا ﴿ قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ أى قال له بعد مبعثه كم لبثت أى كم مكثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم بناء على ظنه وتخمينه ، فقال له : ما لبثت هذا المقدار بل لبثت مدة متطاولة ، ومع ذلك لم يلحق طعامك وشرابك تغير ما مما تجرى العادة بمثله حين مرور الزمان وتطاول الأعوام ﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ كيف نخرت عظامه وتقطعت أوصاله ليستبين لك طول لبثك وتطمئن نفسك ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ أى نريك آياتنا فى نفسك وطعامك وشرابك ولنجعلك آية للناس برهانا واضحا على البعث ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ﴾ أى أن القادر على أن يكسو هذه العظام لحما ويمدها بالحياة ويجعلها أصلا لجسم حى ، قادر على أن يعيد الخصب والعمران للقرية . وكذلك القادر على الأحياء بعد لبث مائة عام ، قادر على الأحياء بعد لبث الموتى آلاف السنين . فبعض

فعاله تعالى تشبه بعضا ﴿ فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أى لما ظهر واتضح له ما ذكر قال : أعلم علما يقينيا مؤيدا بآيات الله فى نفسى والآفاق أن الله على كل شيء من الأشياء قدير لا يستعصى عليه أمر . النشر بالراء : خلاف الطى . والنشز بالزاى : المرتفع من الارض

﴿ وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟ ﴾ أى واذكر وقت قول ابراهيم لربه أرنى كيف يكون إحياء الموتى وما وقع حينئذ من عجيب صنعه لتقف على هدايته تعالى للمؤمنين وولايته لهم . وخلاصة المعنى يا رب أرنى بعينى كيفية إحيائك للموتى ﴿ قال أو لم تؤمن قال بلى ﴾ أى قال : ألم تعلم ذلك وتؤمن بأنى قادر على الاحياء كيف أشاء حتى تسألنى إراءته ؟ قال : بلى علمت ذلك وصدقت بالخبر ، ولكن تاقت نفسى للخبر والوقوف على هذا السير ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ بالبيان بعد خبر الوحى . وليس فى سؤال ابراهيم ما يشعر بالشك ، فالانسان قد جبل على طلب المزيد فى العلم والرغبة فى الوقوف على أسرار الخليقة ، وأكمل الناس علما أشدهم رغبة فى طلب الوقوف على المجهولات ﴿ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ قال تعالى لابراهيم أن يأخذ أربعة من الطير فيقطعهن أجزاء ثم يفرقها على عدة جبال ثم يدعوها فتجيبه مسرعة . وقد فعل ابراهيم ، والله بعزته غالب على أمره وبحكمته قد جعل أمر الاعادة موافقا لحكمة التكوين . هذا ملخص معنى الآية عند الجمهور ، وخالفهم أبو مسلم المفسر الشهير ـ قال : فى القرآن كثير من الأمر الذى يراد به الخبر ، والكلام هنا مثل لاحياء الموتى ومعناه خذ أربعة من الطير فضمها اليك وأنسها حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك فان الطيور من أشد الحيوان استعدادا لذلك ، ثم اجعل كل واحدة منها على جبل ثم ادعها فانها تسرع اليك لا يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها من ذلك ، كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين (كونوا أحياء) فيكونوا أحياء كما كان شأنه فى بدء الخلق إذ قال للسموات والأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . والغرض منه ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الاجساد على سبيل السهولة

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

التفسير

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ﴾ وهى ما يوصل الى مرضاته من المصالح العامة لا سيما ما كان نفعه أعم وأثره أبقى ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ﴾ أى كمثل أبرك بذر فى أخصب أرض نما أحسن نمو فجاءت غلته مضاعفة سبع مائة ضعف ، وذلك منتهى الخصب والنماء ، أى أن هذا المنفق يلقى جزاءه فى الدنيا مضاعفا أضعافا كثيرة فالتمثيل للتكثير لا للحصر ولذلك قال ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ فيزيد على ذلك زيادة لا تقدر ولا تحصر ، وقيل يضاعف تلك المضاعفة التى ضرب لها المثل ﴿ والله واسع ﴾ لا ينحصر فضله ولا يحدد عطاؤه ﴿ عليم ﴾ بمن يستحق المضاعفة من المخلصين الذين يهديهم إخلاصهم الى وضع النفقات فى مواضعها التى يكثر نفعها وتبقى فائدتها زمنا طويلا ، كالمنفقين فى إعلاء شأن الحق وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله التى تشوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد ، حتى اذا ما ظهرت آثار نفقاتهم النافعة فى قوة ملتهم وسعة انتشار دينهم وسعادة أفراد أمتهم عاد عليهم من بركات ذلك وفوائده ما هو فوق ما أنفقوا بدرجات لا يمكن حصرها

﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى ﴾ أن هذه الآية لبيان ثواب الانفاق فى الآخرة بعد التنويه بمنفعة الدنيا ، وقد شرط لهذا الثواب ترك المن والأذى ، فأما المن فهو أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن اليه ، أو أن يعتد على من أحسن اليه باحسانه ويريه أنه أوجب بذلك عليه حقا . وأما الأذى فهو أعم ، ومنه أن يذكر المحسن إحسانه لغير من أحسن اليه بما ربما يكون أشدّ عليه مما لو ذكره له ، أو أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه . إن من يقرن النفقة بالمن والأذى أو يتبعها أحدهما أو كليهما عاجلا لا يستحق أن يدخل فى الذين ينفقون فى سبيل الله أو يوصف بالسخاء المحمود عند الله ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ يشعر بأن هذا الأجر عظيم من رب قادر كريم ، فقد أضافهم اليه تشريفا لهم وإعلاء لشأنهم ﴿ لا خوف عليهم ﴾ يوم يخاف الناس وتفزعهم الأهوال ، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ يوم يحزن البخلاء الممسكون عن الانفاق فى سبيل الله

﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ﴾ القول المعروف يتوجه تارة الى السائل إن كانت الصدقة عليه ، ويتوجه إلى المصلحة العامة كما إذا هاجم البلد عدو وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه فمن لم يكن له مال يمكنه أن يساعد بالقول المعروف الذى يحث على العمل وينشط العامل ويبعث عزيمة الباذل ، والمغفرة أن تغضى عن نسبة التقصير فى الانفاق اليك ، وأن تظهر فى هيئة لا ينفر منها المحتاج ولا يتألم من فقره أمامك . والمعنى أن مقابلة المحتاج بكلام يسر وهيأة ترضى خير من الصدقة مع الإيذاء بسوء القول أو سوء المقابلة ، ولا فرق فى المحتاج بين أن يكون فردا أو جماعة ، وإن أضمن شىء لمصلحة الأمة وأقوى معزز لها هو أن يكون كل واحد من أفرادها فى عين الآخر وقلبه فى مقام المعين له وان لم يعنه بالفعل . وإن هذه الآية مقررة لقاعدة « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » التى هى أعظم قواعد الشريعة ، ومبينة أن الخير لا يكون طريقا ووسيلة إلى الشر ، ومرشدة إلى وجوب العناية بجعل العمل الصالح خاليا من الشوائب التى تفسده وتذهب بفائدته كلها أو بعضها ﴿ والله غنى ﴾ بذاته وبما له من ملك السموات والأرض عن صدقة

عباده ، وهو غنى عن قبول صدقة يتبعها أذى لأنه لا يقبل إلا الطيبات ﴿ حليم ﴾ لا يعجل بعقوبة من يمن ويؤذى ، وهذا انذار لهم أن لا يغتروا بحلم الله وإمهاله إياهم وعدم معاجلتهم بالعقاب على كفرهم بنعمه عليهم بالمال ، فانه يوشك أن يسلبها منهم فى يوم من الأيام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

التفسير

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ أى ان المن والأذى هادم للفائدة المقصودة من الصدقة ومبطل لها ، وهو تخفيف بؤس المحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للافراد ، وتنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها إذا كانت الصدقة فى مصلحة عامة ، إذ أن كل عمل لا يؤدى إلى الغاية منه فقد حبط

وبطل كأن لم يكن ﴿ كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أى لا تبطلوا صدقاتكم بأى هاتين الرذيلتين فتكونوا مشبهين من ينفق ماله مرائياً الناس أى لأجل أن يروه فيحمدوه لا لابتغاء مرضاة الله بتحرى ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين ، وترقية شأن الأمة بما يصلح شئونها ، وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر حتى يرجو ثوابا أو يخشى عقابا ﴿ فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ﴾ أى ان صفة عمل المنافق المرائى كصفة تراب على حجر أملس نزل عليه ماء مطر شديد فأزاله وترك الحجر صلدا نقيا لا تراب عليه .

والوجه المشترك بينهما أن الناس يرون أن لهؤلاء المرائين أعمالا كما يرى التراب على الصفوان ، فاذا جاء يوم القيامة وصاروا إلى الله اضمحل ذلك كله وذهب لأنه لم يكن لله ، كما يذهب الوابل المطر ما كان على الصفوان فيتركه أملس لا شىء عليه ﴿ لا يقدرون على شىء مما كسبوا ﴾ أى لا ينتفعون بشىء من صدقاتهم ونفقاتهم ولا يجنون ثمراتها فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لأن المن والأذى مما ينافى غاية الصدقة ومن فعلهما كان أبغض إلى الناس من البخيل الممسك ، والرياء لا يخفى على الناس ، وأما فى الآخرة فلا ثواب فيها إلا للمخلصين فى أعمالهم الذين يتحرون بها سنن الله تعالى فى تزكية نفوسهم واصلاح حال الناس ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ فالكافر محروم من الهداية التى تجمع لصاحبها بين صلاح القلب والعمل وسعادة الدنيا والآخرة .

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم ﴾ أى لطلب رضوان الله ولتثبيت أنفسهم وتمكينها فى منازل الإيمان والاحسان حتى تكون مطمئنة فى بذلها لا ينازعها فيه زلزال البخل ولا اضطراب الحرص لا يثارها حب الخير عن أمر الله على حب المال عن هوى النفس ووسوسة الشيطان ﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ أى كبستان بمكان مرتفع من الأرض . واختار بعضهم أن المراد بالربوة الأرض المستوية الجيدة التربة بحيث تربو بنزول المطر عليها وتنمو . ويؤيده كون المثل مقابلا لمثل الصفوان الذى لا يؤثر فيه المطر ﴿ أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ﴾ أى أصابها مطر فكان ثمرها مثلى ما كانت تثمره فى العادة أو أربعة أمثاله على القول

بأن ضعف الشيء مثله مرتين ، والأكل كل ما يؤكل ﴿ فان لم يصبها وابل فطل ﴾ أى فالذى يصيبها طل وهو المطر الخفيف المستدق القطر يكفيها لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها . ووجه الشبه أن المنفق ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفسه هو فى إخلاصه وسخاء نفسه وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب فى كثرة بره وحسنه ، فهو يجود بقدر سعته ، فان أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الانفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدره ، فخيره دائم وبره لا ينقطع ، لأن الباعث عليه ذاتى لا عرضى كأهل الرياء وأصحاب المن والإيذاء ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ يذكرنا بأنه لا يخفى عليه المخلص من المرائى ، فانه يقول : ان الله لا يخفى عليه ما تنطوى عليه سريرتك أيها المنفق ، فعليك أن تخلص له . وأما المثل الثانى فقوله ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ﴾ الاستفهام لانكار وقوع أن يود الانسان لو تكون له جنة معظم شجرها من الكرم (العنب) والنخل اللذين هما أجمل الشجر وأنفعه ، كثيرة المياه حاوية لأنواع من الثمرات الكثيرة ، قد نيطت بها آماله ورجا أن ينتفع بها عياله ، ويصيبه الكبر الذى يقعده عن الكسب فى حالة كثرة ذريته وضعفهم عن أن يقوموا بشأنه وشأنهم حتى لا يبقى له ولا لهم مورد للرزق غير هذه الجنة ، وبينما هو كذلك إذا بالجنة قد أصابها الاعصار (ريح عاصفة) فأحرقها بما فيه من سموم النار . أما وجه التمثيل فقد خصوه بالمرائى ، والمثل ينطبق أيضا على من أبطل صدقته بالمن والأذى وأنه ليس خاصا بالآخرة ، فان باذل المال للفقراء وفى المصالح العامة يكون له من الجاه والمكانة عند الناس ما يشبه تلك الجنة التى وصفها المثل فى رونقها ومنافعها ، ويوشك أن يذهب مال هذا المنفق وتشتد حاجته وتقصر يده حتى لا يكون له مرتزق إلا ما غرسته يده من جنته تلك ، فيحاول أن يجنى منها فيحول دون ذلك إعصار من المن والأذى أو من ظهور الرياء فيحرقها حتى تكون كالصريم لا تؤتى ثمرتها ولا تسر رؤيتها ، كذلك عاقبة أهل الرياء وذوى المن والإيذاء ينبذهم الناس عند شدة حاجتهم إلى الناس ، ولذلك أرشدنا تعالى بعد المثل إلى التفكير فى عاقبة هذا

العمل فقال ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ أى أنه تعالى يبين لكم الآيات الدالة على حقائق الامور وغاياتها وفوائدها وغوائلها مثل هذا البيان البارز فى أبهى معارض التمثيل ﴿ لعلكم تتفكرون ﴾ فى العواقب فتضعون نفقاتكم فى المواضع التى يرضاها مع الاخلاص وقصد تثبيت النفس حتى لا يستخفها الطيش والاعجاب فيدفعها إلى المن والاذى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

التفسير

كانت الآيات السابقة فى إرشاد مايتعلق بالبذل والباذل ، ثم أراد تعالى أن يبين لنا ماينبغى مراعاته فى المبذول ليكمل الإرشاد فى هذا المقام فقال ﴿ ياأيها الذين آمنوا أنفقوا ﴾ أى تصدقوا ﴿ من طيبات ما كسبتم ﴾ أى من حلال ما كسبتم بالتجارة

والصناعة ﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ أى أنفقوا وأخرجوا من الحبوب والثمار والمعادن ، والمراد بالانفاق أن يكون فى سبيل الخير وأعمال البر والمنافع العامة التى ترفع شأن الأمة لمحاربة الفقر والمرض والجهل وإيجاد مؤسسات قومية من صناعية وتجارية واجتماعية لرفع مستوى المعيشة ونهوض الأمة وتقدمها فبين نوع ما يبذل وينفق ووصفه ، فهو أن يكون من الطيبات ، والطيب هو الجيد المستطاب وضده الخبيث المستكره ، ولذلك قال فى مقابل هذا الأمر ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ أصل تيمموا تتيمموا ، والمعنى أنفقوا من جياد أموالكم ولا تيمموا أى تقصدوا الخبيث فتجعلوا صدقتكم منه خاصة دون الجيد ، فهو نهى عن حصر الصدقة فى الخبيث ، ولا يدل على منع التصدق به من غير تعمد ولا حصر ﴿ ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ وهذا يشعر بالتقريع والتوبيخ ، أى كيف تقصدون الخبيث منه تتصدقون ولستم ترضون مثله لأنفسكم إلا أن تتساهلوا فيه تساهل من أغمض عينيه عنه فلم ير العيب فيه ، ولن يرضى ذلك لنفسه أحد إلا ويرى أنه مغبون مغموض الحق ﴿ واعلموا أن الله غنى حميد ﴾ فلا يصح أن يتقرب إليه بما لا يقبله لرداءته إلا فقير اليد أو فقير النفس الذى لا يبالى أن يرضى بما ينافى الحمد كقبول الردىء الذى يدل على عدم التعظيم والاحترام

أما نوع مايكسب فهو بعض مايجنيه المرء بعمله ككسب الفعلة والتجار والصناع والمهندسين والأطباء والمحامين ، وبعض مايخرج من الأرض من غلات الحبوب وثمرات الشجر ، والمعادن والركاز وهو ما كان دفن فى الأرض قبل الاسلام ، وكل ذلك فضل من الله يجب شكره له بنفقة بعض الجيد منه فى سبيله وابتغاء مرضاته . والآية لم تخصص ولم تعين مقدار ماينفق ، بل وكلته إلى رغبة المؤمن فى شكر الله تعالى فان ورد دليل آخر يعين بعض النفقات فله حكمه .

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ معناه أنه يخيل إليكم بوسوسته أن الانفاق يذهب بالمال ويفضى إلى سوء الحال ، فلا بد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لما يولده الزمن من الحاجات ، وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ فان الأمر هنا عبارة

عما تولده الوسوسة من الإغراء ، والفحشاء البخل وهى فى الأصل كل ما فحش أى اشتد قبحه ، وكان البخل عند العرب من أفحش الفحش ﴿ والله يعدكم ﴾ بما أنزله من الوحى وبما أودعه فى النفوس الذكية من الالهام الصحيح والعقل الرجيح من حب الخير والرغبة فى البر ﴿ مغفرة منه وفضلا ﴾ فانه جعل الانفاق كفارة لكثير من الخطايا ، وسببا يفضل به المرء قومه ويسودهم أو يسود فيهم بما يجذب إليه من قلوب من يكون سببا فى رزقهم ، وهذا الفضل من الجاه بالحق ﴿ والله واسع عليم ﴾ فهو إذا وعد أنجز لسعة فضله ثم يعلم أين يضع مغفرته وفضله . وقول آخر أن اسم ﴿ عليم ﴾ يفيد هنا أنه سبحانه وتعالى يعلم غيب العبد ومستقبله ، والشيطان لا يعلم ذلك فوعده تغرير لا يعبأ به العاقل النحرير .

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾ الحكمة هنا العلم الصحيح يكون صفة محكمة فى النفس حاكمة على الارادة توجهها إلى العمل ، ومتى كان العمل صادرا عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح النافع المؤدى إلى السعادة ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ ان الله جعل الخير الكثير مع الحكمة فى قرن فهما لا يفترقان كما لا يفترق المعلول عن علته التامة ، فالحكمة هى العلم الصحيح المحرك للارادة إلى العمل النافع الذى هو الخير ، وآلة الحكمة هى العقل السليم المستقل بالحكم فى مسائل العلم ، فهو لا يحكم إلا بالدليل ، فمتى حكم حزم فأمضى وأبرم ، فكل حكيم عليم عامل مصدر للخير الكثير ، فلذلك قال تعالى ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ أى وقد جرت سنته تعالى بأنه لا يتعظ بالعلم ويتأثر به تأثرا يبعث على العمل إلا أصحاب العقول الخالصة من الشوائب والقلوب السليمة من المعايب .

﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾ يستحل قليلها وكثيرها سرها وعلانيتها ، ما كان منها فى حق وما كان منها فى شر ، ما كان عن إخلاص وما كان رئاء الناس ، وما أتبع منها بالمن والأذى وما لم يتبع بشىء منهما ﴿ أو نذرتم من نذر ﴾ والنذر هو التزام فعل الشىء بلفظ يدل عليه ، كقول الناذر : لله علىّ كذا ، وعلىّ كذا ، أو نذرت

لله كذا ، وينبغى أن يكون فى طاعة ، لانه لا يتقرب إليه تعالى الا بالطاعة ، فإن نذر فعل معصية حرم عليه أن يفعلها . وإن نذر مباحا فعله ، لأن فسخ العزائم من النقص

﴿ فان الله يعلمه ﴾ أى فانه تعالى يعلم ما ذكر من النفقة أو النذر ، ويجازى عليه إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فالجملة وعد ووعيد وترغيب وترهيب ، ثم أكد ما فيها

من الوعيد بقوله ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ ينصرونهم يوم الجزاء فيدفعون عنهم العذاب بجاههم أو يفتدونهم بمالهم ، كقوله ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ والظالمون فى مقام الانفاق هم الذين ظلموا أنفسهم اذ لم يزكوها ويطهروها من هذه الفحشاء (البخل) أو من رذائل الرياء والمن والاذى - فظلموا الفقراء والمساكين بمنع ما أوجبه الله لهم ، وظلموا الملة والأمة بترك الانفاق فى المصالح العامة وبما كانوا قدوة سيئة لغيرهم ، فظلمهم عام شامل ، فهل يعتبر بهذا أغنياء المسلمين وهم يرون أمتهم قد صارت ببخلهم أبعد الامم عن الخير بعد أن كانت خير أمة أخرجت للناس ؟ أم انهم لا يجهلون أن المال هو القطب الذى تدور عليه جميع مصالح الأمم فى هذا العصر ، وأنهم لو شاءوا لانتشلوا هذه الامة من وهدتها ، وعادوا بها الى عزتها ، ولكنهم

قوم ظالمون قساة لا يتوبون ولا يتذكرون ﴿ ان تبدوا الصدقات فنعما هى ﴾ أى فنعم شيئا إبداؤها ، وأصلها نعم ماهى أى فنعم الشئ ونعم الأمر اظهارها واعلانها ،

أى ليس فى إبدائها كراهة ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ أى إن إعطاءها للفقراء فى الخفية والسر أفضل من الابداء ، لما فى الاخفاء من البعد عن شبهة الرياء ومثاره ، ومن إكرام الفقير وتحامى إظهار فقره وحاجته . وقيل خير لكم

من الخيور وليس بمعنى التفضيل ، ويؤيد الأول زيادة الجزاء بقوله ﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ أى ويمحو عنكم بعض سيئاتكم ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى لا يخفى عليه نياتكم فى الابداء والاخفاء ، فان الخبير هو العالم بدقائق الأمور

إن الصدقات فى الآية عامة تشتمل الزكاة والتطوع ، وفى هذا المقام خاصة بالتطوع لأن الفرائض لارياء فيها ، وهى شعائر لا ينبغى إخفاؤها ، لأنها لو أخفيت لتوهم منعها ، وظهور الاسلام وقوته باظهار شعائره وفرائضه ، ولمكان القدوة

أطلق فى الآية لفظ الفقراء. والفقهاء لم يمنعوا صدقة التطوع عن غير المسلم، وانما قالوا إن الزكاة التى هى أحد أركان الأسلام خاصة بالمسلمين، وكذلك زكاة الفطر. ولم يمنعوا صدقة التطوع عن مسلم ولا كافر ولا بر ولا فاجر، بل قالوا اذا اضطر الذمى أو المعاهد الى القوت وجب على المسلمين سد رمقه، كما يجب عليهم سد رمق المسلم المضطر، إلا من أهدر الشرع دمه. وعموم نصوص القرآن والاحاديث تدل على أن الله كتب الرحمة والاحسان على كل شىء، ومن ذلك حديث الصحيحين «فى كل كبد رطبة أجر» يعنى فى جميع الأحياء (إنسان وحيوان)

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)

التفسير

﴿ ليس عليك هداهم ﴾ نزلت هذه الآية لإرشاد المسلمين الى عدم التحرج من الانفاق على المشركين لأنهم غير مهديين ، ومن شأن المؤمن أن يكون خيره عاما إذ كان النبي ﷺ لم يكلف بهداية الكافرين بالفعل وإنما كلف البلاغ فقط .

واعلم أن أمر الناس فى الاهتداء مفوض إلى ربهم بما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم من السنن ، فغيره أولى بأنه يكلف ذلك ، فليس علينا إذاً أن نمنع الخير عن الكافر عقوبة له على كفره أو جذبا له إلى الإيمان واضطراراً إلى الهداية فان الهداية ليست علينا ﴿ ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ بتوفيقه إلى النظر الصحيح المؤدى إلى الاعتقاد الجازم الذى يثمر العمل ، وأما الباعث على الانفاق فيجب أن يكون ما أرشدنا اليه سبحانه ﴿ وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ﴾ أى أن نفعه عائد عليكم فى الدنيا ، ومعنى كونه خيراً فى الدنيا أنه يكف شر الفقراء ويدفع عنهم أذاهم ، فان الفقراء إذا ضاق بهم الأمر واشتدت بهم الحاجة يندفعون على أهل الثروة بالسرقة والنهب والايذاء بحسب استطاعتهم ، ثم يسرى شرهم إلى غيرهم ، وربما صار فسادا عاما بسوء القدوة فذهب بالأمن والراحة من الأمة ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ أى لا تنفقون لأجل جاه أو مكانة عند المنفق عليه ، وإنما تنفقون لوجه الله ، فلا فرق بين معطٍ ومعطًى إذا كان الفقير مستحقا يتقرب بازالة ضرورته إلى الرزاق الرحيم الذى لم يحرم أحداً من رزقه لاعتقاده ﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم ﴾ أى فى الآخرة لا ينقصكم منها شىء . وعد أولا بأن خير الانفاق على المنفقين فى الدنيا بقوله ﴿ فلانفسكم ﴾ ثم وعد عليه بالجزاء عليه فى الآخرة موفًّى تاما وقال ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ أى لا تنقصون من الجزاء عليه شيئا ولو نقيرا أو فتيلا

﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ الاحصار فى سبيل الله يدل :

(١) على أن المراد بالاحصار المانع من الكسب ما كان ترك الكسب فيه لسبب اضطرارى ، ويفهم منه أن حبس النفس فى سبيل الله — أى فى الأعمال المشروعة

التى تقوم بها المصالح كالجهاد والعلم — لا ينبغى أن يمنع الانسان عن الكسب الذى يستطيعه للقيام بأدائه ، بل يطلب منه أن يعمل للمصلحة العامة فى أوقات الفراغ من العمل الذى به قوام معيشته ، فان ترك الكسب مختارا لم يحل له أن يأخذ الصدقة ، وأما إذا كان الكسب متعذرا وجب عليهم ترك الكسب وحبس أنفسهم فى سبيل الله ، وكانوا بذلك محصرين بالاضطرار الشرعى ، ووجبت نفقتهم فى بيت المال وإلا فعلى أغنياء الأمة .

(٢) ﴿ لا يستطيعون ضربا فى الأرض ﴾ أى أنهم عاجزون عن الكسب . والضرب فى الأرض هو السفر لنحو التجارة ، وبذلك فسره المفسرون هنا

(٣) ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ أى إذا رآهم الجاهل بحقيقة حالهم يظنهم أغنياء لما هم عليه من التعفف ، وهو المبالغة فى التنزه عن الطمع فيما فى أيدى الناس

(٤) ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ أى بعلاماتهم الخاصة بهم ، وهذه تترك لفراسة المؤمن الذى يتحرى بالانفاق أهل الاستحقاق ، فصاحب الحاجة لا يخفى على المتفرس مهما تستر

(٥) ﴿ لا يسألون الناس إلحافا ﴾ أى لا يسألون الناس شيئا مما فى أيديهم سؤال إلحاح كما هو شان الشحاذين .

والسؤال محرم فى الاسلام لغير ضرورة . ورد فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « المسألة لا تحل إلا لثلاثة : (١) لذى فقر مدقع ، (٢) أو لذى غرم مفظع (كدفع مظلمة وحفظ مصلحة) ، (٣) أو لذى دم موجع » (الذى يتحمل الدية عن الجانى) . وقال أيضا « من سأل وعنده ما يغنيه فانما يستكثر من جمر جهنم » قالوا يا رسول الله وما يغنيه قال « ما يغديه أو يعشيه »

﴿ وما تنفقوا من خير فان الله به عليم ﴾ لا يخفى عليه حسن النية فيه وتحرى النفع به ووضعه فى موضعه وإيتاؤه أحق الناس فأحقهم به فهو يجازى عليه بحسب

ذلك ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ﴾ وفيه بيان عموم الأوقات مع عموم الأحوال من الاظهار والاخفاء ، وفى تقديم الليل على النهار والسر على العلانية إيذان بتفضيل صدقة السر ولكن الجمع بين السر والعلانية يقتضى أن لكل منهما موضعا يقتضيه الحال وتفضله المصلحة لا يحل غيره محله ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ يشعر بأن هذا الأجر عظيم ، وفى إضافتهم إلى الرب ما فيها من التكريم ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ يوم يخاف البخلاء الممسكون من تبعة بخلهم ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ يوم لا ينفع مال ولا بنون . لما حث الله تعالى على الانفاق وبين ما يحصل للمنفق من الأجر العاجل والآجل ، عقبه بذكر الربا الذى ظنه الجاهل زيادة فى المال وهو فى الحقيقة محق فى المال فقال : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ بتنفير من الربا وتبشيع لحال آكله ، والمراد بالأكل الأخذ لأجل التنفير عنه ، وأكثر مكاسب الناس تنفق فى الأكل . (الربا) فى اللغة الزيادة ، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم ، والرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فاذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذى عليه المال : أخر عنى دينك وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه . أما قيام آكلى الربا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس فان أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضريت نفوسهم بجمعه ، وجعلوه مقصودا لذاته ، وتركوا لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطبيعى ، تخرج نفوسهم عن الاعتدال الذى عليه أكثر الناس ، ويظهر ذلك فى حركاتهم وتقلبهم فى أعمالهم ، كما تراه فى حركات المولعين بأعمال البورصة المغرمين بالقمار ، يزيد فيهم النشاط والانهماك فى أعمالهم حتى يكون خفة تعقبها حركات غير منتظمة ، وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط الممسوس ، فان التخبط من الخبط وهو ضرب غير منتظم وكخبط العشواء . وإذا كان ما شنع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم كان لا بد أن يبعثوا عليه فان المرء يبعث على مامات عليه ، لأنه يموت على ما عاش عليه . وهناك

تظهر صفات النفس الخسيسة فى أخس مظاهرها كما تتجلى صفات النفس الزكية فى أبهى مجاليها ﴿ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ﴾ أى ذلك الاكل للربا مسبب عن استحلالهم له وجعله كالبيع وما هو كالبيع فان البيع معاوضة بين شيئين ، وأما الربا الذى كانوا يأكلونه فهو زيادة عن دينهم يزيدونها عند تأخير الاجل لا يقابلها شىء ، وما يؤخذ بغير مقابل فهو من الباطل ، لذلك حرم الله الربا دون البيع ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ ولو كانا متساويين لما اختلف فى حكمهما عند أحكم الحاكمين ، فكل ما فيه معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل الذى لا يقابله عوض فهو بيع حلال ، وانما تحرم الزيادة التى ياخذها صاحب المال لاجل التأخير فى الأجل وهى لا معاوضة فيها ولا مقابل لها فهى ظلم ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ تقدم الكلام عن الوعظ وكون أحكام القرآن مقرونة بالوعظ ، فمن بلغه تحريم الله تعالى للربا ونهيه عنه وترك الربا فورا بلا تراخ ولا تردد انتهاء عما نهى الله عنه فله ما كان أخذه فيما سلف من الربا لا يكلف رده إلى من أخذه منهم بل يكتفى فيه بأن لا يضاعف عليهم بعد البلاغ شيئا ﴿ وأمره إلى الله ﴾ يحكم فيه بعدله ، ومن العدل أن لا يؤاخذ إلا بما أكل من الربا قبل التحريم وبلوغه الموعظة من ربه ، ولكن العبارة تشعر بأن إباحة أكل ما سلف رخصة للضرورة وتومىء الى أن رد ما أخذ من قبل النهى الى أربابه الذين أخذ منهم من أفضل العزائم ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ومن عاد الى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه فيكونون خالدين فيها ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ المراد بالمحق هو ما يلاقى المرابى من عداوة الناس ، وما يصاب به فى نفسه من الوساوس وغيرها ، أما عداوة الناس فمن حيث هو عدو المحتاجين وبغيض المعوزين ، وقد تفضى العداوة والبغضاء الى مفاسد ومضرات واعتداء على الاموال والانفس والثمرات ، وقد ظهر أثر ذلك فى الأمم التى فشا فيها الربا إذ قام الفقراء فيها يعادون الأغنياء ويتألب العمال عليهم ، حتى صارت هذه المسائل أعقد المسائل عندهم ، ولو قرأنا ما يكتبه

الاشتراكيون عن أصحاب رءوس الأموال فهم لا يرضون إلا بمحقهم وسلبهم لأموالهم الذين يرون أنهم ما أخذوها الا سرقة واغتصابا من أجورهم وتنمية أموالهم بالباطل وأما إرباء الصدقات فهو زيادة فائدتها وثمرتها فى الدنيا وأجرها فى الآخرة . فمعنى يمحق الله الربا ويربى الصدقات أن سنته قضت فى عابد المال الذى لا يرحم معوزا ولا ينظر معسرا إلا بمال يأخذه ربا بدون مقابل أن يكون محروما من الثمرة الشريفة للثروة ، وهى كون صاحبها ناعما عزيزا شريفا عند الناس لكونه مصدرا لخيرهم والتفضل عليهم واعانتهم على زمنهم ، كما يكون محروما فى الآخرة من ثواب المال ، فهو فى عدم انتفاعه بماله هذا الضرب من الانتفاع كمن محق ماله وهلك ، وقضت سنته فى المتصدق أن يكون انتفاعه بماله أكبر من ماله ﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ قالوا لا يحب لا يرضى ، والكفار المستحل للربا ، والاثيم المقيم على الاثم ، والكفار هنا هو المتمادى على كفر نعم الله عليه بالمال ، اذ لا ينفق منه فى سبيله ولا يواسى به المحتاجين من عباده ، والاثيم هو الذى جعل المال آلة لجذب مافى أيدى الناس الى يده فافترض اعسارهم لاستغلال اضطرارهم (١) .

---

(١) نتج عن استغلال أصحاب رؤس الأموال للفقراء والمعوزين مذهب الاشتراكية ، وهم يقولون ان الاموال الوافرة التى فى أيدى الأغنياء أخذت فى الغالب خلسة من ألوف البائسين . والاشتراكيون يعلمون أن المساواة فى الرزق لا تتحقق ، ولكنهم يرجون أن تتم المساواة فى الفقر على يدهم

مذاهب الاشتراكية متعددة الأنواع مختلفة فى الاشكال . ولكن أشياع مذاهب الاشتراكية متحدون فى أحقادهم على المجتمع ورأس المال وأصحاب الأعمال ، ويقترحون للقضاء على هذه الأمور ايجاد وسائل واحدة . فسليم القلب منهم يرغب في نزع الاموال من ايدى أصحابها ، وأما المغالى فيضيف الى ذلك إبادة المغلوبين (راجع كتاب روح الاشتراكية تأليف الدكتور غستاف لوبون تعريب الاستاذ زعيتر)

وما مشاكل العصر الحاضر من الناحية المالية والنزاع القائم بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال إلا صدى لآيات الربا الذى حذر منه القرآن الكريم وأنذر . وقد تحقق وعيده . وهذه آية من آيات صدقه وأنه تنزيل من عليم خبير

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . (٨١٣)

التفسير

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أى صدقوا تصديق إذعان بما جاء من عند الله فى هذه المسألة كغيرها ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أى الأعمال التى تصلح بها نفوسهم وشأن من يعيش معهم ، ومنها مواساة المحتاجين والرحمة بالبائسين وإنظار المعسرين ، ومن سنة القرآن أن يقرن الايمان بالعمل الصالح فى مقام الوعد ، لأن الايمان الحقيق المقرون بالاذعان يتبعه العمل الصالح حتما لايتخلف عنه ، وهذا برهان على ماقلناه فى تفسير الآية السابقة ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ التى تذكر المؤمن بالله تعالى فتزيد فى إيمانه وحبه لربه ومراقبته له حتى يسهل عليه طاعته فى كل شىء ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ التى تزكى النفس من رذيلة البخل والحرص وثمرتها على أعمال البر حتى تسهل عليها ويكون ترك أموال الناس بالربا أسهل . وذكر الصلاة والزكاة بعد الأعمال الصالحة التى تشملهما لأنهما أعظم أركان العبادة النفسية والمالية ، فمن أتى بهما كاملتين سهل عليه كل عمل صالح ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تقدم نظير هذا

الجزاء قريبا فلا حاجة لاعادة التذكير بمعناه ، وجملة الآية تعريض بآكل الربا كأنه يقول لو كان من هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكف عنه لكنه كفار أثيم وتمهيد لما بعدها وهو ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا ﴾ وصفهم بالايمان وذكرهم بالتقوى ، ثم انتقل إلى الأمر بترك مابقى من الربا لمن كانوا يرابون منهم عند غرمائهم ، ثم وصل ذلك بقوله ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن كان إيمانكم تاما شاملا لجميع ماجاء به محمد ﷺ من الأحكام فذروا مابقى من الربا ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ أى فان لم تتركوا مابقى لكم من الربا كما أمرتم فاعلموا واستيقنوا بأنكم على حرب من الله ورسوله ، إذ نبذتم ماجاءكم به رسوله عنه - وحرب الله لهم بغضبه وانتقامه - وهذا الانتقام أو هذه الحرب وقعت بالفعل بين أصحاب رءوس الأموال والعمال وفيما بين أصحاب رءوس الأموال بعضهم مع بعض وقد نشأ عن ذلك الاستعمار لتنمية رءوس الأموال ، ثم النزاع بين الدول المستعمرة ، مما أدى إلى الحرب العالمية الأولى والثانية ، فأتت الحروب على محق هذه الأموال بما أعدته من أدوات الحرب من طيارات ودبابات وغواصات ، فنسفت الديار وخربت الأوطان وأهلكت الحرث والنسل ، ولايزال العداء مستحكماً بين أصحاب رءوس الأموال (المرابين) وبين العمال الذين يستغلون من ناحية ، وفيما بين أصحاب رءوس الأموال بعضهم مع بعض لايجاد أسواق لتثمير أموالهم عن الربا وعن طريق الاستعمار البغيض الذى أصبح على وشك الزوال ﴿ وإن تبتم ﴾ ورجعتم عن الربا امتثالا وخضوعا ﴿ فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة ﴿ ولا تظلمون ﴾ بنقص شىء من رأس المال بل تأخذونه كاملا ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ﴾ أى وان وجد غريم معسر من غرمائكم فأنظروه وأمهلوه الى وقت يسار يتمكن فيه من الأداء ﴿ وأن تصدقوا خير لكم ﴾ أى وتصدقكم على المعسر بوضع الدين عنه وإبرائه منه خير لكم من إنظاره فهو ندب الى الصدقة والسماح للمدين المعسر لما فيه من التعاطف والتراحم بين الناس وبر بعضهم ببعض ، وذلك من أعظم أسباب هناء المعيشة وحسن حال الأمة ، ولذلك نبه الى العلم بذلك فقال ﴿ ان كنتم تعلمون ﴾ لأن من لايعلم وجه الخيرية فى شىء لايعمله

ومن علم عمل حتما ، فعليكم بالعلم الذى يهديكم الى خير العمل الذى يقرب بعضكم من بعض ويجعلكم متحابين متوادين ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ﴾ أى لايشغلكم حب الدنيا بتكثير المال وجمعه من حرام وحلال عن التفكر فى سلطان الله وقدرته والتقرب اليه بما فيه تمام حكمته — التذكير بيوم القيامة — الذى تبطل فيه هذه الشواغل وتتلاشى هذه الصوارف ، حتى لا يشغل الانسان فيه شىء ما عن الله تعالى وما أعده من الجزاء للعباد على قدر أعمالهم ، ولذلك قال بعد التذكير ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾ أى تجازى على ما عملت فى الدنيا جزاء وافيا ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أى ولا ينقصون من أجورهم شيئا ، بل قد يزداد المحسنون منهم فيعطون أكثر مما يستحقون على إحسانهم .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ

وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

التفسير

لما أمر سبحانه بانظار المعسر وتأجيل دينه عقبه ببيان أحكام الحقوق المؤجلة وعقود المداينة فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ تداينتم داين بعضكم بعضا، وهو يأتى بمعنى تعاملتم بالدين، والمراد بالدين المال الذى يكون فى الذمة، والدين عام يشمل القرض والسلم وبيع الأعيان إلى أجل وهو الصواب، والأجل الوقت المضروب لانتهاء شىء، والمسمى المعين بالتسمية كشهر وسنة مثلا، فاكتبوه معناه فاكتبوا الدين فى صك لئلا يقع فيه نسيان أو جحود، وليكون ذلك توثقة للحق، لأن ذلك أدفع للنزاع وأقطع للخلاف.

بعد أن أمر بالكتابة إجمالا بين كيفيتها ومن يتولاها فقال ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ أى ليكن فيكم كاتب للديون عادل فى كتابته يساوى بين المتعاملين وهو أمر للمتداينين بتخير الكاتب، وأن لا يستكتبوا إلا فقيها دينا ﴿ ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ﴾ ومعنى هذا أن يكون كاتب الديون عادلا عارفا بالحقوق والأحكام فيها حتى لا يقع التنازع بعد فيما يكتبه ﴿ ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ﴾ دليل على أن العالم بما فيه مصلحة الناس يجب عليه إذا دعى إلى القيام اليها أن يجيب

الدعوة ، ولذلك لم يكتف بالنهى عن الإباء عن الكتابة بل أمر بها أمرا صريحا فقال ﴿ فليكتب ﴾ وهذا ظاهر أنه تأكيد ، لأن الموضوع غريب فى نظر الأميين الذين خوطبوا به أولا ﴿ وليملل الذى عليه الحق ﴾ أى وليلق على الكاتب ما يكتبه من عليه الحق من المتعاملين ليكون إملاله حجة عليه تبينها الكتابة وتحفظها ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فى إملاله بأن يبين الحق الذى عليه كاملا ﴿ ولا يبخس منه شيئا ﴾ أى ولا ينقص منه شيئا ما وان قل ، ﴿ فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ﴾ فسروا السفيه بضعيف الرأى أى من لا يحسن التصرف فى المال بضعف عقله ، والضعيف الصبى والشيخ الهرم ، ومن لا يستطيع الاملال هو الجاهل والألكن والأخرس ، وولى الانسان من يتولى أموره ويقوم بها عنه ، وقد اكتفى فى أمر الولى بالعدل . ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ أى اطلبوا أن يشهد على ذلك رجلان ممن حضر ذلك منكم أو أشهدوهما على ذلك ، والشهيد من شهد الشىء وحضره بامعان من رجالكم ، والخطاب للمؤمنين يدل على أنهم لا يستشهدون من لم يكن منهم ﴿ فان لم يكونا ﴾ أى من تستشهدونهما ﴿ رجلين ﴾ جعل المفسرون الضمير للشاهدين بحسب الارادة والقصد ﴿ فرجل وامرأتان ﴾ يستشهدان ، أو فليستشهد رجل وامرأتان ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ قالوا أى ممن ترضون دينهم وعدالتهم حال كونهم من الشهداء ﴿ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ وشهادة المرأتين شهادة واحدة فاذا تركت إحداهما شيئا من الشهادة كأن نسيته أو ضل عنها تذكرها الأخرى وتتم شهادتها ، وللقاضى بل عليه أن يسأل إحداهما بحضور الأخرى ويعتد بجزء الشهادة من إحداهما وبباقيها من الأخرى ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ إلى تحمل الشهادة وظاهر النهى أن الامتناع عن الشهادة تحملا وأداء محرم وأن الاجابة واجبة ، وقد صرح من قال بذلك بأنه فرض كفاية لا يجب على من دعى اليه إلا اذا لم يوجد غيره يقوم به ﴿ ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ﴾ أى لا تملوا ولا

تضجروا ولا تكسلوا من كتابة الدين أو الحق سواء كان صغيرا أو كبيرا مبينا ثبوته في الذمة إلى أجله المسمى ﴿ ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ﴾ الخطاب للمؤمنين والاشارة الى جميع ما ذكر من الأحكام لا لواحد منها ، وتلك سنة القرآن فى بيان حكمة الحكم وعليه الأمر والنهى . ومعنى كونه أقسط عند الله أنه أعدل فى حكمه أى أحرى باقامة العدل بين المتعاملين . ومعنى كونه أقوم للشهادة أنه أعون على إقامتها على وجهها ﴿ وأدنى ألا ترتابوا ﴾ بينكم معناه وأقرب الى انتفاء ارتياب بعضكم ببعض ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها ﴾ والمعنى الاستثناء من الكتابة ذلك مطلوب أو أحب إلا أن تكون المعاملة تجارة حاضرة أو إلا أن تكون توجد تجارة حاضرة تدار بين المتعاملين بالتعاطى بأن يأخذ المشترى المبيع والبائع الثمن فلا حرج فى ترك كتابتها ولا إثم . وفى نفى الجناح إشارة الى أن كتابة ذلك أولى ، وهو إرشاد الى استحباب ضبط الانسان لماله وإحصائه لما يرد عليه وما يصدر عنه . ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ قيل معناه هذا التبايع المذكور هنا وهو التجارة الحاضرة ، واكتفى بالاشهاد لتلافى ما عساه يقع منهما من المجاحدة ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ نهى الكاتب والشهيد أن يضر أحد المتعاملين بعدم الاجابة أو التحريف والتغيير ونحو ذلك ، ومعنى آخر نهى المتعاملين عن ضر الكاتب أو الشهيد بأن يدعيا إلى ذلك وهما مشغولان بمهم لهما فيكلفان تركه ، والمتبادر من النهى أنه عن مضارة المتعاملين للكاتب والشهيد ﴿ وإن تفعلوا ﴾ ما نهيتم عنه من ضرار الكاتب والشهيد ﴿ فانه فسوق بكم ﴾ أى فان هذا الفعل خروج بكم عن حدود طاعة الله تعالى إلى معصيته ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شئ عليم ﴾ أى اتقوا الله فى جميع ما أمركم به ونهاكم عنه وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم فانكم لولا هدايته لا تعلمون ذلك ، وهو سبحانه العليم بكل شىء فاذا شرع شيئا فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن اتبع شرعه

ثم ذكر سبحانه حكم الوثيقة بالرهن عند عدم الوثيقة بالاشهاد فقال : ﴿ وإن كنتم أيها المتداينون المتبايعون ﴿ على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ﴾ رهان جمع رهن بمعنى مرهون ، وليس تعليق مشروعية أخذ الرهن بالسفر وعدم وجود كاتب يكتب وثيقة الدين لاشتراطهما معا ، وإنما المراد بيان الرخصة فى ترك الكتابة لعذر ، وكون الرهن يقوم مقام الكتابة فى الاستيثاق عند عدم تيسرهما كما يكون فى حال السفر ، وإلا فقد رهن النبى ﷺ درعه فى المدينة ليهودى ﴿ فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى ائتمن أمانته وليتق الله ربه ﴾ والمعنى ان اتفق أن أحدا منكم ائتمن آخر على شىء فعلى المؤتمن أن يؤدى الأمانة إلى من ائتمنه وليتق الله ربه فلا يتخون الأمانة شيئا انه لا حجة عليه بها ولا شهيد ، فإن الله ربه خير الشاهدين ، فهو أولى بأن يتقى ويطاع

﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه ﴾ القلب لب الانسان وآلة عقله وشعوره ، وكتمان الشهادة عبارة عن حبس ذلك فيه ، وقد جعله الآثم أى موضع الأثم فى هذا الكتمان . ودلت الآية على أن الانسان يؤاخذ على ترك المعروف كما يؤاخذ على فعل المنكر ، لأن الترك فى الحقيقة فعل للنفس يعبر عنه ما يكتم والكتمان فى مثل هذه الشهادة وبالكف فى غيرها ، ولكل مقام مقال ، فكل ذلك يعبر فعلا وعملا فلذلك قال ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ وفى هذا من الوعيد ما مر بيان مثله

﴿ لله مافى السموات وما فى الأرض ﴾ الآية متصلة بما قبلها ، ويصح أن تكون متممة لها لأن مقتضى كونه عليما بكل شىء أن له كل شىء ، فهذا كالدليل على كونه عالما بكل شىء ، أى انه عليم به لأنه وهو خالقه فهو كقوله ألا يعلم من خلق ، ولهذا الاستدلال يتقرر النهى عن كتم الشهادة وكونه آثما يعاقب عليه وأكده بقوله ﴿ وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ كأنه يقول إن تساهلتم فى هذه الأحكام وأضعتم الحقوق فتظاهرتم بالأمانة مع انطواء النفس على الخيانة وغالطتم الناس وأكلتم أموالهم بذلك أو أضعتموها بكتمان الشهادة ونحو ذلك فإن الله يحاسبكم

ويعاقبكم على ذلك ، لأن له ما فى السموات والأرض ، ومنها أنتم وأعمالكم النفسية والبدنية ، وجعلها بعضهم متعلقة بأحكام السورة كلها ، والمراد بقوله ﴿ مافى أنفسكم ﴾ الأشياء الثابتة فى أنفسكم وتصدر عنها أعمالكم كالحقد والحسد وألفة المنكرات التى يترتب عليها ترك النهى عن المنكر ، فان السكوت عن النهى عن أمر كبير يحل الله عقوبته فى الأمة بسببه ، أما إبداء مافى النفس فهو إظهاره بالقول أو الفعل ، وأما إخفاؤه فهو ضده ، والابداء والاخفاء سيان عند الله لأنه ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ والمراد فى مرضاته على تزكية النفس وطهارة السريرة لا على لوك اللسان وحركات الأبدان ، وأما المحاسبة فهى على ظاهرها ، ذلك أن للنفوس على اعتقاداتها وملكاتها وعزائمها وإرادتها موازين - يعرف بها يوم الدين رجحان الحق والخير أو الباطل والشر - هى أدق مما وضع البشر من موازين الأعيان وموازين الأعراض كالحر والبرد ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ . ﴿ فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أى فهو بما له من الملك المطلق يغفر لمن يشاء أن يغفر له ويعذب من يشاء عذابه ، وشأن الله تعالى فى المحاسبة أن يذكر الانسان أو يسأله لم فعلت ، فبعد أن يرى العبد أعماله الظاهرة والباطنة يغفر أو يعذب ، فمن الناس من لم تصل أعماله المنكرة الى أن تكون ملكات له ، فالله سبحانه يغفرها له ومنها من تكون ملكات فهو يعاقبه عليه ، وهو يفعل ما يشاء ويختار ، والآية إنذار وتخويف ليس فيها موضع للقطع بمغفرة ذنب ما وان كان صغيرا ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ أى فهو بقدرته ينفذ ما تعلقت به مشيئته

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا

اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

التفسير

﴿ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ﴾ أى صدّق الرسول بما أنزل اليه فى هذه السورة وغيرها من العقائد والأحكام والسنن والبينات والهدى تصديق إذعان واطمئنان ، وكذلك المؤمنون من أصحابه عليهم الرضوان ، ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ أى كل منهم آمن بوجود الله ووحدانيته وتنزيهه وكمال صفاته وحكمته وسننه فى خلقه ، وبوجود الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين الرسل من البشر ينزلون بالوحى على قلوب الأنبياء ، وأما البحث عن ذواتهم ما هى وعن صفاتهم وأعمالهم كيف هى فهو مما لم يأذن به الله فى دينه ، والمراد بالايمان بالكتب والرسل جنسها أى يؤمنون بذلك إيمانا إجماليا فيما أجمله القرآن وتفصيليا فيما فصله لا يزيدون على ذلك شيئا ويقولون ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ والمعنى أن من شأن المؤمنين أن يقولوا هذا معتقدين أنهم فى الرسالة والتشريع سواء كثر قوم الرسول أو قلوا وكثرت الاحكام المنزلة عليهم أم قلت وتقدمت البعثة أم تأخرت ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ أى تلقنا القول فسمعنا سماع وعى وفهم ، وأطعنا ما أمرنا به فيه إطاعة اذعان وانقياد ﴿ غفرانك ربنا واليك المصير ﴾ أى يسألونه تعالى أن يغفر لهم ما عساه يطرأ على أنفسهم فيعوقها عن الرقى فى معارج الكمال الذى دعاها اليه الايمان ، والغفران والمغفرة الستر وستر الذنب يكون بعدم الفضيحة عليه فى الدنيا وترك الجزاء عليه فى الآخرة ، وانما يطلب هذا بالتوبة واتباع السيئة الحسنة مع الدعاء الذى يزيد فى الايمان ، وبذلك يمحى أثر الذنوب من النفس فى الدنيا فيرجى

أن تصير اليه تعالى فى الآخرة نقية زكية ، لأن هذا المصير وحده هو الذى يكون وراء الجزاء بحسب درجات النفوس فى معارج الكمال

﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ ولا يحاسبها إلا على ما كلفها . والتكليف هو الالزام بما فيه كلفة ، والوسع ما تسعه قدرة الانسان من غير حرج ولا عسر . والمعنى أن شأنه تعالى وسننه فى شرع الدين أن لا يكلف عباده مالا يطيقون . ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ الآية تدل على أن فطرة الانسان مجبولة على الخير ، وأنه يتعود الشر بالتكلف والتأسى ، والمعنى أن لها ثواب ما اكتسبت من الخير وعليها عقاب ما اكتسبت من الشر لا يؤاخذ بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها . ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ المراد بالنسيان هنا لازمه وهو ترك الامتثال ، وكذلك الخطأ ينشأ من التساهل وعدم الاحتياط والتروى ، فهذا الدعاء لا يدل على أن حكم الله فى النسيان والخطأ أن لا يؤاخذ عليهما ، بل قصارى ما يؤخذ فيه أنه مما يرجى العفو عنهما ، إذا وقع العبد فيهما بعد بذل جهده والاحتياط والتحرى والتفكر والتذكر وأخذ الدين بقوة وشعر بتقصيره فلجأ إلى الدعاء الذى يقوى فى النفس خشية الله تعالى والرجاء بفضله .

﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصرا ﴾ الاصر العبء الثقيل يأصر صاحبه أى يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله ، وحمله أكثر المفسرين على التكاليف الشاقة ﴿ كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ أى من الأمم التى بعث فيها الرسل ، وهو يتضمن الامتنان علينا وإعلامنا ، فان كان يجوز أن يحمل علينا الإصر ذاته فانه يجب علينا الشكر لذلك ﴿ ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ من العقوبة أو من البلايا والفتن والمحن . ذهب بعض المفسرين الى أن المراد به الشرائع والأحكام ، والمعنى ربنا لا تحمل علينا ما يشق علينا من الأحكام بل حملنا اليسير الذى يسهل علينا حمله ، ربنا ووفقنا لحمل ما حملتنا والنهوض به كما تحب وترضى لكيلا نستحق بمقتضى سننك أن تحملنا مالا طاقة لنا به من عقوبة المفرطين فى دينهم المسرفين فى أهوائهم ﴿ واعف عنا ﴾

بمعنى أن ما عسانا أن نلم به فى أنفسنا وعدم العقوبة عليه ﴿ واغفر لنا ﴾ أى لا تفضحنا باظهاره بذاته ولا بالمؤاخذة عليه ﴿ وارحمنا ﴾ فى كل حال بما توفقنا له من إقامة دينك والسير على سننك التى جعلتها بحكمتك طرقا للسعادة ﴿ أنت مولانا ﴾ الذى منحتنا أنواع الهداية ، وأيدتنا بالتوفيق والعناية ، فلا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين بسواك ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ انصرنا على الجاحدين لآياتك ، وسننك وأحكامك ، وعلى المرتابين منهم بالحجة والبرهان ، وعلى المعتدين منهم بالسيف والسنان ، وغير ذلك من أسباب حماية الحق التى تختلف باختلاف الزمان

إن الله سبحانه ما علمنا هذا الدعاء لأجل أن نلوكه بألسنتنا ونحرك به شفاهنا فقط ، بل علمنا إياه لأجل أن ندعوه به مخلصين له ، لاجئين اليه ، بعد أخذ ما أنزله بقوة العمل به على قدر الطاقة ، واستعمال ما يصل اليه كسبنا من الوسائل والذرائع التى هى وسائل الاستجابة فى الحقيقة . فمن دعاه بلسان مقاله ولسان حاله معاً فأنه يستجيب له بلا شك ، ومن لم يعرف من الدعاء إلا حركة اللسان مع مخالفة الأحكام وتنكب السنن فهو بدعائه كالساخر من ربه الذى لا يستحق إلا مقته وخذلانه . وتوقف الدعاء على العمل يستلزم توقفه على العلم . فلا يكون الداعى داعيا حقيقة كما يحب الله ويرضى إلا اذا كان قد عرف ما يجب عليه من الشريعة وسنن الاجتماع ، واتبعه بقدر استطاعته . فاذا اتخذت الأمة الوسائل التى أمرت بها ، ودعت الله تعالى أن يثبتها ويتم لها ما ليس فى وسعها من أسباب النصر فان الله يستجيب لها حتما كما قال تعالى ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ونصر الله التزام طاعته واتباع شريعته وأخذ العدة لكل أمر - فاذا صدقت النية وحسن العمل كان الله لدعاء عباده السميع المجيب . ونصره منهم قريب . فنساله تعالى الهداية والتوفيق الى أقوم طريق

الخاتمة

سورة البقرة

مكانتها ـ أهدافها ـ أثرها

كان لبيد بن ربيعة من شعراء الجاهلية الفصحاء البلغاء الحكماء ، أدرك الإسلام وحسن إسلامه ، وسأله عمر فى خلافته عن شعره واستنشده فقرأ عليه سورة البقرة ، فقال : انما سألتك عن شعرك ، فقال : ما كنت لأقول بيتا من الشعر بعد إذ علمنى الله البقرة وآل عمران . فأعجب عمر قوله ، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقال كثير من أهل الأخبار أن لبيدا لم يقل شعراً منذ أسلم .

هذه القصة على إيجازها وقصرها فيها الدلالة الكافية على مكانة القرآن من الفصاحة التى أعجزت الفصحاء ، والبلاغه التى دانت لها البلغاء ، والحكمة التى صمت أمامها الحكماء.

قال ابن العربى سمعت بعض أشياخى يقول : ان فى سورة البقرة ألف أمر وألف نهى وألف حكم وألف خبر . وتعلمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى اثنتى عشرة سنة ، وابنه عبد الله فى ثمانى سنين . ويقال لها « فسطاط القرآن » ، وذلك لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها . وهى أول سورة نزلت بالمدينة .

الأهداف التى ترمى إليها وآثارها

لو أن مجى الاصلاح من المسلمين وغير المسلمين اجتمعوا فى صعيد واحد ، وبحثوا عن قانون شامل ، ومنهج واضح لانقاذ الانسانية الحاضرة مما حل بها من البلاء ولدفع ما نزل بها من الشقاء ، ولتنير لها طريق السعادة والهناء ، لما وجدوا خيرا من سورة البقرة بأن يحفظوها ويعوها ويعلموها للناس ويعملوا بها ، فهى سورة جامعة لسعادة الدارين ، والفوز بالحسنيين ، لأنها محيطة بقواعد الاصلاح الشامل للافراد والجماعات ، مبينة الطريق السوى وما فيه من جهد ومشقة ، وماذا

يجب أن يعرف المصلح من أخلاق الناس ، وماذا يجب أن يكونوا عليه من أخلاق ومعاملات :

(١) افتتحت هذه السورة بأن هذا الكتاب وهو القرآن الكريم الذى نزل على سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ ، فهو دليل الهداية والرشاد ، مبين طرق الخير والسداد فى هذه الحياة وما بعدها . ثم بعد ذلك عرف سبحانه الرسول ما تلقاه الهداية والاصلاح من قبول وإعراض ومقاومة وعدوان ، فأبان سبحانه أن البشرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول أصحاب الفطرة السليمة والعقول الراجحة ، وهم الذين يتقبلون دعوة المصلح ويعينونه ويؤازرونه بأنفسهم وأموالهم ، وهم المؤمنون المستجيبون للدعوة . والقسم الثانى وهم الذين انغمسوا فى شهواتهم وملذاتهم فطمست قلوبهم وصمت آذانهم فاصبحوا عبيدا لنزواتهم وضلالاتهم ، فهم يجحدون كل دعوة تخالف هواهم ، وهم حرب على كل إصلاح . أعداء سافرون لكل مصلح ، وهؤلاء هم الكافرون . والقسم الثالث هم الضعفاء المذبذبون الذين يعيشون لمنافعهم ، فهم مع داعى الاصلاح ظاهرا لتلمس المنفعة وتجنب الأذى من أتباعه ، غير مؤمنين بالدعوة فى سرائرهم ، وهم مع شياطينهم من الرؤساء والمنابذين للدعوة ، وهم المنافقون ، وهم عنصر خطر جدا على نجاح الدعوة فيجب أن يحذروا

هذا التقسيم الحكيم لم يكن خاصا بزمن الرسول ﷺ ، وإنما هو تعريف من الله سبحانه لطبائع الخلق الذين يوجدون فى كل زمان وفى كل بيئة كبرت أو صغرت ، فكل من أراد أن يسير بسيرة الرسول ويدعو إلى الاصلاح - وهو ما يطالب به كل قادر عليه فى أى ناحية من نواحى الحياة دينية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية - عليه أن يعرف ما ستلقاه دعوته فلا ييأس ولا يتبرم ولا يقول صعب الطريق وطال الانتظار ، بل يجب أن يسير قدما مستهيناً بكل تضحية مهما كبرت حتى يحقق الخير المنشود لسعادة الهيئة الاجتماعية . وقد قص القرآن الكريم من عبر الماضى ما فيه المقتنع تسلية وحضا على الثبات والمثابرة والصبر والجلد فى مقاومة الباطل . والاصلاح مطلوب فى كل زمان وفى كل بيئة ، والقرآن يدعو اليه ويحض عليه .

ثم انتقل الكتاب الكريم بعد هذه المقدمة التى لا بد أن يعرفها كل مصلح وكل

داع إلى الاصلاح إلى أساس وحدة الاصلاح ، وهى قائمة عـــلى التوحيد وتكريم الانسان .

التوحيـــد

كرم الله الانسان وأبان له عن الحقيقة العليـــا بأنه لا إله إلا الله وأنه لا رب سواه ، فحرره بذلك من أسر المعبودات ، وقد أقام له الحجة تلو الحجة والبرهان تلو البرهان حتى يعرف عن يقـين ويستبين له الطريق القويم ، « وكانت هـذه الدعوة الخالدة أساسا يراد به تكريم الانسان وتنظيم العمران وتعميم الخير وتحقيق السعادة من طريق التوحيد ، والمؤاخاة ، والمساواة ، والحرية ، والسلام . فالتوحيد سبيل القوة ، والمؤاخاة سبيل التعاون ، والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وتلك هى الغايات التى ترجو الانسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية » .

« والتوحيد من الكلم الجوامـع التى وعت جوهر الاصلاح وسر النجـاح لكل مجتمع وأمة . هو توحيد الله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغـة ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدين والدنيا » .

وفكرة الوحدة الانسانية هى من أبرز جوانب السورة وفى سبيلها صدق الاسلام بكل دين أنزل ، وبكـل نبى أرسل ، ودعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعـا إلى خطة واحدة وكلمة سواء ، ثم وصل الدين بالدنيـــا ـ وكانت اليهودية والنصرانية تفصل بينهما ، فالأولى كان همها الصفق والاجتراح (التجارة والعمل) ، والأخرى كان سبيلها الرهبانية والتنسك ـ ولـكن الاسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسد ، فلا تعمل إلا بوحيه ، ولا تسير إلا بهديه . ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا عـــلى صدق المودة ويتعاونوا على لأواء العيش ، فلا يبغى قوى ، ولا يبخل غنى ، ولا يظلم متسلط . . ثم وثق عرى الأخاء بين المجاهدين فى سبيل الله ، حتى صار « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وأصبح هؤلاء الإخوان القلائل الضعاف فى بضع سنين أئمـــة الناس ، وورثة لكسرى وقيصر ، وفى سبيل الوحدة الانسانية والاخوة الاسلامية فرض الاسلام الزكاة وشرع الحج وأمر بالاحسان والبر ، ثم سوى بين الناس على

اختلاف ألسنتهم وألوانهم فى الحقوق والواجبات بمحو العصبية الوطنية ، وقتل النعرة الجنسية . وجعل التقديم والتكريم للتقوى ، فقال الرسول الكريم فى خطبة الوداع « إن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »

فى هذه الأصول الاسلامية كما ترى أفضل ما فى الديمقراطية ، وأعدل ما فى الاشتراكية ، وأجمل ما فى المدنية . فهى حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وتقيم ما اعوج من نظام الدنيا . ولقد كانت كذلك يوم كان لحماتها دولة ، ولدعاتها صوت ، ولمعتقديها يقين »

هذه الدعوة التى تحلم الانسانية اليوم بتحقيقها ، وقد تحققت فى سالف الزمان فى ناحية من نواحى المعمورة ، وهى أمنية مستقبل الأيام ، كان إحدى دعائمها الجهاد حامى ذمارها ومعلى منارها ، هذا الجهاد وقد فرضه سبحانه فى هذه السورة على كل قادر من المؤمنين ، ولم تكن وجهته الاستعمار والعدوان ، وإنما دفع الأذى وتوطيد الأمن وحماية العقيدة من كل بغى وطغيان ، وقد شرع بعد الهجرة ـ أى بعد أن تحمل المسلمون من الاضطهاد والعنف والعنت أكثر من ثلاث عشرة سنة أوذوا فيها : فى أنفسهم ، وفى أموالهم ، بكل أنواع الأذى ، وأخرجوا من ديارهم . وهذا الجهاد له أصول وحدود ، فهو مشروع لحماية الحق ، وتوطيد الحق ، على شرط أن لا يحيف ولا يجور ولا يعتدى ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ فهو لا يأمر بقتل النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، ولا بحرق الزرع ، وإهلاك الضرع . ولا يقاتل من لا يقاتله . وحدوده حماية العقيدة والأهل والوطن من كل عدوان حتى يعيش المسلمون أعزة فى أوطانهم أحرارا فى عباداتهم وعقائدهم .

وكان من تكريم الانسان تلك القصة التى أبانت لنا فى جلاء ووضوح خلق آدم أبى البشر وأن الله سبحانه جعله خليفة فى أرضه ، وخلق كل ما يحيط به من سماء وأرض لمنافعه ، وأن أساس هذا الاستمتاع وهذه الخلافة هو العلم ، إذ علم سبحانه آدم الأسماء كلها قبل أن يستخلفه فأصبح العلم شرطا وأساسا لدعوة كل إصلاح وكل

سعادة ، كما قال ﷺ « إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معا فعليك بالعلم » ، فكل من تخلف عن تحصيل العلم فقد تخلف عن ركب الحضارة ، وقعد به الجهل عن التقدم والرقى ، بل ساقه إلى الرق والاستعباد وقد ساد المسلمون الأولون لما أخذوا بهدى القرآن الكريم ، فكانت حياتهم بين تحصيل العلم والجهاد ، وهما الدعامتان القويتان فى نهضة الأمة وصلاحها .

نرى فى هذه السورة الكريمة كيف تبنى الأسرة على خير أساس وأحكم وضع ، وما يجب على الرجل من إكرام زوجته ومعاملتها معاملة النظير للنظير والند للند ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ﴾ وهذه الدرجة هى السياسة الرشيدة ، وإدارة دفة الأمور بحكمة وسداد . وإذا صلحت الأسرة صلح الوطن ، وإذا صلح الوطن صلحت الانسانية بصلاحهما .

نرى فى هذه السورة أيضا أنه سبحانه أعلن الحرب على أعداء الانسانية الثلاثة : الجهل ، والمرض ، والفقر . أما الجهل فبدعوته إلى العلم ، والمرض فبأكل الطيبات وتحريم الخبائث والاعتدال فى المأكل والمشرب فى غير إسراف ولا تقتير ، ومحاربة الفقر بدعوة الموسرين إلى بذل الصدقات والانفاق فى سبيل الله وذلك محض الرحمة . وثنى بالنهى عن الربا الذى هو محض القساوة ، محض العدالة ، فقد أمرنا الله ببذل المال حيث ينبغى البذل وهو الزكاة والصدقة والانفاق فى سبيله ، وبتركه حيث ينبغى الترك وهو الربا ، وبتأخيره حيث ينبغى التأخير وهو انظار المعسر وبحفظه حيث ينبغى الحفظ وهو كتابة الدين والاشهاد عليه وعلى غيره من المعاوضات ، وأخذ الرهن اذا لم يتيسر الاستيثاق بالكتابة والاشهاد ، ذلك بأن من يضيع ماله باهمال المحافظة عليه لا يكون محمودا عند الناس ولا ماجوراً عند الله ، قال عبد الرحمن بن عوف ، ياحبذا المال اصون به عرضى وأتقرب به الى ربى ، قالت الحكماء : لا خير فيمن لا يجمع المال يصون به عرضه ويحمى به مروءته ويصل به رحمه . وقال خالد بن صفوان لابنه يابنى أوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسكت بهما : درهمك لمعاشك . ودينك لمعادك . وقال سفيان الثورى : المال سلاح المؤمن فى هذا الزمان

وإذا انتقلنا من هذه الأهداف العليا التى ذكرناها موجزة من غير تفصيل ولا إسهاب لنرى أثرها فى صاحب الدعوة ﷺ ومن تابعه من المسلمين الأولين رضوان

الله عليهم فانا نرى عجبا : نرى العزيمة القوية فى أكبر مضائها ومظاهرها ، فقد كانت غزواته ﷺ وبعوثه وسراياه فى عشر سنين أى منذ أنزلت هذه السورة واستجابوا لداعى القتال والجهاد فى سبيل دفع الأذى وحماية الدعوة من العدوان هى ما يأتى : فالغزوات سبع وعشرون ، وقيل خمس وعشرون ، وقيل تسع وعشرون ، وقيل غير ذلك . قاتل منها فى تسع : بدر وأحد والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر والفتح وحنين والطائف . أما سراياه وبعوثه فقريب من ستين . والغزوات الكبار الأمهات سبع : بدر وأحد والخندق وخيبر والفتح وحنين وتبوك . وفى شأن هذه الغزوات نزل القرآن وكان الرسول ﷺ على رأس جيشه لا يمتاز عن أصحابه لا فى مطعم أو مشرب أو ملبس وكان من أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط . وان فضل شىء ولم يجد من يعطيه وفاجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى أن يحتاج اليه . وكان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير .

كان النبى ﷺ القدوة الحسنة فى كل أقواله وأفعاله يميل إلى التقشف ليتشبه الناس به فيقبلوا على العمل ، ويبتعدوا عن البطالة والكسل ، فكان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويحمل حاجياته ، ويخدم أهله .

وكان يعامل أصحابه باللين والحسنى : يمزح ولا يقول إلا حقا . لم يتخذ من نوع اثنين لا قميصين ولا ردائين . يأكل ما يجد ، وإذا لم يجد شيئا صبر ، حتى شد الحجر على بطنه الشريف ، وطوى الليالى المتتابعة ، وما أكل من خبز ولا من لحم مرتين فى يوم واحد ، ولا من خبز فى ثلاثة أيام متتالية . وكان أكثر خبزه الشعير ، وأكثر طعامه التمر والماء ، وقد عرضت عليه خزائن الأرض فقال « يارب أجوع يوما وأشبع يوما أتضرع اليك وأدعوك اذا جعت ، وأحمدك وأثنى عليك اذا شبعت » هذا قليل من كثير من أخلاق سيد المجاهدين وإمام المرسلين ، والذى دعانا الله سبحانه إلى أن نقتدى به فقال تعالى ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾

وقد تابعه فى سيرته الكثير من المسلمين ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر بن الخطاب والتاريخ حافل بما قاما به من جلائل الأعمال ، ويعتبر عصرهما العصر الذهبى فى الاسلام الذى تحققت فيه المبادىء الانسانية العليا من العدل الكامل وحرية الفكر

والعمل فى دائرة الحق والجمال والخير ، وهـذا مانسميه اليوم بالديمقراطية التى شاد بذكرها المنصفون من كبار كتاب الغرب .

قال الفيلسوف الانجليزى الكبير توماس كارليل : « لقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور ، وأحيا به من العرب أمة هامدة وأرضا جامدة . وهل كانت إلافئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم ، لايسمع لها صوت ، ولاتحس منها حركة فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فاذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا . وسع نوره الانحاء ، وعم ضوءه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هـذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند وأخرى فى الأندلس ، وأشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة . وكذلك الايمان العظيم وهو مبعث الحياة ، ومنبع القوة . ومازال للأمة رقى فى درج الفضل وتعريج الى ذرى المجد ، مادام مذهبها اليقين ، ومنهاجها الايمان السليم » .

إن دعوة الاسلام دعوة إلى إخاء شامل ، وعدل كامل ، لاتدخل فيه الفروق الجنسية ، بعيد كل البعد عن التحيز إلى العصبية ، فدعوته دعوة إنسانية عامة تدعو إلى السلام العام بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى ، وهى كما قال بحق الأستاذ (الياس خليل زخريا) أمين السر العام لمنظمة الغساسنة المؤلفة من نصارى العرب بلبنان فى احتفال مولد النبى ﷺ قال : « ليس مولد ابن عبد الله القرشى العربى مولداً للبغضاء بين العرب ، ولكنه مولد لقوة ، وتحرر وجهاد ، وتسور لتعاون وتكاتف ، لوضوح وصفاء ، لطمأنينه وثقة ، لجوار ووفاء فى الجوار ، لأخوة عربية مقدسة هى أنقى أخوة عرفها بشرى فى عين بشرى . والذين يعميهم التعصب والجهل فيجعلون من مولد محمد العربى مولداً لحقد وضغينة ، لعداوة وقطيعة ، لاحتباس وتربص ، لتذاؤب وتناحر ، لغدر فى الجوار ، هم الذين كفروا (منا ومنكم) مرتين : مرة بدينهم ومرة بقوميتهم ، والذين يكفرون بدينهم وقوميتهم هم الذين يمسحون جباههم بأقدام المستعمر ، وفى الوثنية (وحدها) يقبل الناس أقدام الناس . »

إلى أن قال « إن مصيرنا ومصيركم (مصير النصارى ومصير المسلمين) واحد موحد فى ضمير القومية : إن القومية هى التوحيد ، والتوحيد وثبة التحرر والتحرير ، وان الأمة التى لا تثب إلى التحرر والتحرير هى الأمة التى تحتقر العبقرية والعظمة وجوهر الوجود . وهى التى تقدس المسكنة ، والعبودية وفضلات الموائد . »

ثم قال « إن أم القرى (مكة) بنت لى (أنا اللبنانى العربى) ملكا ، ومجدا ، وقبة تاريخ ، وأبجدية ما أكل الدهر من حروفها حرفا » .

إن الايمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل يقتضى الوحدة والاتفاق ، وترك الاهتداء يورث الاختلاف والشقاق . وان الوسيلة الى النهوض بمهمات الأمور هو الجهاد كما قال تعالى ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ والجهاد يتضمن العمل للمصلحة العامة والصبر والمواظبة على الصلاة كما قال تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ وترك التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين إذا كان فى غير حق أو يدعو إلى باطل لأنه جهل وعصبية جاهلية .

إن الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف فى كل زمان ومكان ، فعلى كل قارىء أن يتلو القرآن بالتدبر ، وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به . ولا شك أن كل من له معرفة — ولو قليلة — باللغة العربية فانه يفهم من القرآن ما يهتدى به ، ومن كان أميا أو أعجميا فانه ينبغى له أن يسأل القارئين أن يقرأوا له القرآن ويفهموه معناه . فاذا أقبل كل منا على تلاوة الكتاب الكريم وتدبره وعمل بما جاء به : العالم فى درسه ، والزارع فى حرثه ، والصانع فى صنعته ، والتاجر فى تجارته ، والطبيب والقاضى والمحامى والعامل والمرأة والصبى كل فى دائرة عمله ، واقتدوا برسول الله صلوات الله عليه ، فحياته من قول وعمل هى المفسرة والمبينة لمعانى القرآن ، لتغير حال المسلمين ، واستبدلوا بضعفهم قوة وبذلهم عزا وباسترقاقهم حرية واستقلالا ومجدا ، وأصبحوا المثل المعالى لهداية الانسانية الى أقوم طريق وأشرف غاية ، وانه لا يصلح الله حال المسلمين إلا بما صلح عليه حال أولهم . والله الهادى والموفق لخير العباد ، بما فيه الخير والسداد .

القرآن

بقلم فقيد البلاغة العربية السيد مصطفى صادق الرافعى

آياتٌ منزلة من حول العرش ، فالأرض بها سماء هى منها كواكب ، بل هى الجند الإلهى قد نشر له من الفضيلة علم ، وانضوت إليه من الأرواح مواكب

أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها ، وامتنعت عليه « أعراف » الضمائر ، فابتزّ « أنفالها » (١)

وكم صدوا عن سبيله صداً ، ومن ذا يدفع السيل إذا هدر ؟ واعترضوه بالألسنة رداً ، ولعمرى من يردُّ على الله القدَر ؟ وتخاطروا له بسفهائهم كما تخاطرت الفحول بأذناب (٢) ، وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه من كل داهية ناب ، فما كان إلا نور الشمس لا يزال الجاهل يطمع فى سرابه ، ثم لا يضع منه قطرة فى سقائه . ويلقى الصبى غطاءه ليخفيه بحجابه ، ثم لا يزال النور ينبسط على غطائه

وهو القرآن ، كم ظنوا بما انطوى تحت ألسنتهم وانتشر ، كلّ ظن فى الحقيقة آثم ، بل كل ظن بالحقيقة كافر ، وحسبوه أمراً هيناً لأنه أنزل فى الأرض على بشر ، كما يحسب الأحمق فى هذه السماء أرضاً ذات دواب نورانية .. لأن هلالها كأنما سقط من حافر

---

(١) الأعراف : الأمكنة العالية . والانفال : الغنائم

(٢) إذا تصاولت الفحول من الابل تخاطرت بأذنابها كأنها يهدد بعضها بعضاً

وكم أبرقوا وأرعدوا حتى سال بهم وبصاحبهم السيل ، وأثاروا من الباطل فى بيضاء ليلها كنهارها ليجعلوا نهارها كالليل ، فما كان لهم إلا ما قال الله ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل ﴾

***

ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هى لانت فأنفاس الحياة الآخرة

تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها . ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك فى وجوه الغيوب ، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمّى القلوب

ومعان بينا هى عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ، ونور تبصر به فى مرآة الإيمان وجه الامان ، وبينا هى ترف بندى الحياة على زهرة الضمير ، وتخلق فى أوراقها من معانى العبرة معنى العبير ، وتهب عليها بأنفاس الرحمة فتنمّ بسر هذا العالم الصغير ، ثم بينا هى تتساقط من الأفواه تساقط الدموع من الأجفان ، وتدع القلب من الخشوع كأنه جنازة ينوح عليها اللسان ، وتمثل للمذنب حقيقة الانسانية حتى يظن أنه صنف آخر من الانسان ؛ إذا هى بعد ذلك إطباق السحاب وقد انهارت قواعده ، والتمعت ناره وقصفت فى الجو رواعده ، وإذا هى السماء وقد أخذت على الأرض ذنبها ، واستأذنت فى صدمة الفزع ربها ، فكادت ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وإنما هى عند ذلك زجرة واحدة ، فاذا الخلق طعام الفناء ، وإذا الأرض « مائدة »

***

توهموا السحر ما توهموه ، فلما أنزل الله كتابه قالوا هذا هو السحر المبين . وكانوا يأخذون فى ذلك بباطل الظن ، فأخذوا فى هذا بحق اليقين . ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ ومن الشعر ما تسمعونه أم أنتم لا تسمعون ؟

بلى إنه لسحرٌ يغلب حتى يفرق بين المرء وعادته، وينفذ حتى يتصرَّف بين القلب وإرادته، ويجرى فى الخواطر كما تصعد فى الشجر قطرات الماء، ويتصل بالروح فكأنما يمدُّ لها بسبب الى السماء

وإنه لسحر، إذ هو ألحاظ لم تعهد من كلم أحداقها، وثمرات لم تنبت فى قلم أوراقها، ونور عليه رونق الماء، فكأنما اشتعلت به الغيوم، وماء يتلألأ كالنور فكأنما عصر من النجوم

وبلى إنه لشعر، ولكن زنة مبانيه فى معانيه، وزينة معانيه فى مبانيه، فكل معنى ولا جرم من بحر، وكل لفظ كلؤلؤة فى النحر

وإنه لشعر، إذ هو آيات لا يجانس كلامها البديع غير كمالها، وحقيقة فى الوجود لم يكن يعرف غير خيالها، ومرآة فى يد الله تقابل كل روح بمثالها

***

يقولون مجنونٌ بعضُ آلهتنا اعتراه (١)، وأساطير الأولين اكتتبها أم يقولون افتراه

بلى، إن العقل الكبير فى كماله، ليتمثل فى العقول الصغيرة كأنه جنون. وإن النجم المنير فوق هلاله، ليظهر فى العيون القصيرة كأنه نقطة فوق نون.

وهل رأوا إلا كلاماً تضىء ألفاظه كالمصابيح، فعصفوا عليه بأفواههم كما تعصف الريح. يريدون أن يطفئوا نور الله، وأين سراج النجم من نفخة ترتفع إليه كأنما تذهب تطفيه. ونور القمر من كف يحسب صاحبها أنها فى حجمه فيرفعها كأنما يخفيه. وهيهات، هيهات، دون ذلك دَرجُ الشمس — وهى أم الحياة — فى كفن، وإنزالها بالأيدى — وهى روح النار — فى قبر من كهوف الزمن

لا جرم أن القرآن سرُّ السماء، فهو نور الله فى أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود فى دولة الأرض إلى أن تدول

---

(١) أى اعتراه بسوء

فهرست المجلد الاول من هداية القرآن لبنى الانسان

موجز منتخب لتفسير القرآن

صفحة

٣ مقدمة الكتاب
١٨ تفسير الفاتحة
٢٢ سورة البقرة
٢٢ تفسير ألم
٢٣ ذلك الكتاب لا ريب فيه
٢٤ الذين يؤمنون بالغيب
٢٤ والذين يؤمنون بما أنزل إليك
٢٤ أولئك على هدى من ربهم
٢٦ إن الذين كفروا
٢٦ ختم الله على قلوبهم
٢٨ ومن الناس من يقول آمنا
٢٨ يخادعون الله والذين آمنوا
٢٨ فى قلوبهم مرض
٢٩ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض
٣٠ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس
٣٠ وإذا لقوا الذين آمنوا
٣٠ الله يستهزئ بهم
٣١ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى
٣١ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا
٣٢ صم بكم عمى فهم لا يرجعون
٣٢ أو كصيب من السماء
٣٣ يا أيها الناس اعبدوا ربكم

صفحة

٣٤ الذى جعل لكم الأرض فراشا
٣٥ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا
٣٦ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا
٣٧ وبشر الذين آمنوا
٣٨ ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا
٣٩ الذين ينقضون عهد الله
٤٠ كيف تكفرون بالله
٤٠ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا
٤٢ وإذ قال ربك للملائكة
٤٣ وعلم آدم الأسماء كلها
٤٣ قالوا سبحانك لا علم لنا
٤٣ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم
٤٥ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
٤٦ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة
٤٧ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه
٤٧ فتلقى آدم من ربه كلمات
٤٨ قلنا اهبطوا منها جميعا
٤٨ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا
٤٩ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى
٥٠ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم
٥١ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

صفحة

٥١ ولا تلبسوا الحق بالباطل
٥٢ أتأمرون الناس بالبر
٥٣ واستعينوا بالصبر والصلاة .
٥٣ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم
٥٣ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى
٥٤ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا
٥٥ وإذ نجيناكم من آل فرعون
٥٥ وإذ فرقنا بكم البحر
٥٥ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة
٥٥ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك
٥٦ وإذ آتينا موسى الكتاب
٥٦ وإذ قال موسى لقومه
٥٧ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك
٥٧ ثم بعثناكم من بعد موتكم
٥٧ وظللنا عليكم الغمام
٥٩ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية
٦٠ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم
٦٠ وإذ استسقى موسى لقومه
٦٠ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر لك على طعام واحد
٦٢ إن الذين آمنوا
٦٢ وإذ أخذنا ميثاقكم
٦٣ ثم توليتم من بعد ذلك
٦٤ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت
٦٤ فجعلناها نكالا لما بين يديها

صفحة

٦٤ وإذ قال موسى لقومه — الى قوله — فذبحوها وما كادوا يفعلون .
٦٥ واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها
٦٧ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك
٦٨ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم
٦٨ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا
٦٨ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون
٦٩ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب
٦٩ فويل للذين يكتبون الكتاب
٦٩ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة
٧٠ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته
٧١ وإذ اخذنا ميثاق بنى إسرائيل
٧٣ وإذ أخذنا ميثاقكم
٧٣ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم
٧٤ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة
٧٥ ولقد آتينا موسى الكتاب
٧٦ وقالوا قلوبنا غلف
٧٦ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم
٧٧ بئسما اشتروا به أنفسهم
٧٧ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله
٧٨ ولقد جاءكم موسى بالبينات
٧٩ وإذ أخذنا ميثاقكم

صفحة

٧٩ قل إن كانت لكم الدار الآخرة
٧٩ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم
٨٠ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة
٨١ قل من كان عدواً لجبريل - الى قوله - فان الله عدو للكافرين
٨٢ ولقد أنزلنا اليك آيات بينات
٨٣ أو كلما عاهدوا عهدا
٨٣ ولما جاءهم رسول من عند الله
٨٣ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان
٨٥ ولو أنهم آمنوا واتقوا
٨٥ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا
٨٦ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب
٨٦ ما ننسخ من آية أو ننسها
٨٧ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض
٨٨ أم تريدون أن تسألوا رسولكم
٨٩ ود كثير من أهل الكتاب
٩٠ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة
٩٠ وقالوا لن يدخل الجنة
٩٠ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن
٩١ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء
٩٢ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه
٩٢ ولله المشرق والمغرب
٩٤ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه
٩٤ بديع السماوات والأرض

صفحة

٩٤ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله
٩٥ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا
٩٥ ولن ترضى عنك اليهود
٩٦ الذين آتيناهم الكتاب
٩٨ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم
٩٨ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا
٩٩ واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمن
٩٩ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس
١٠٠ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا
١٠١ واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل
١٠١ ربنا واجعلنا مسلمين لك
١٠٢ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم
١٠٣ ومن يرغب عن ملة إبراهيم
١٠٣ إذ قال له ربه أسلم
١٠٤ ووصى بها إبراهيم بنيه
١٠٤ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت
١٠٥ تلك أمة قد خلت
١٠٦ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا
١٠٦ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا
١٠٨ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا
١٠٩ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة

صفحة

١٠٩ قل أتحاجوننا فى الله
١٠٩ أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحاق
١١٠ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده
١١٠ تلك أمة قد خلت
(الجزء الثانى)
١١٢ سيقول السفهاء من الناس
١١٢ وكذلك جعلناكم أمة وسطا
١١٣ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها
١١٤ قد نرى تقلب وجهك فى السماء
١١٤ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب
١١٥ الذين آتيناهم الكتاب
١١٦ الحق من ربك
١١٦ ولكل وجهة هو موليها
١١٧ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام
١١٧ لئلا يكون للناس عليكم حجة
١١٨ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم
١١٩ فاذكرونى أذكركم
١٢٠ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر
١٢١ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله
١٢١ ولنبلونكم بشىء من الخوف
١٢٢ الذين إذا أصابتهم مصيبة
١٢٣ إن الصفا والمروة من شعائر الله
١٢٤ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات

صفحة

١٢٥ إلا الذين تابوا وأصلحوا
١٢٥ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار
١٢٥ وإلهكم إله واحد
١٢٦ إن فى خلق السماوات والأرض
١٢٨ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا
١٢٩ إذ تبرأ الذين اتبعوا - الى قوله - وما هم بخارجين من النار
١٣١ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض
١٣١ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء
١٣٢ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله
١٣٢ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق
١٣٣ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم
١٣٤ إنما حرم عليكم الميتة
١٣٥ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب
١٣٦ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى
١٣٦ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق
١٣٧ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب
١٤١ يا أيها الذين آمنو كتب عليكم القصاص
١٤٣ ولكم فى القصاص حياة
١٤٤ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت
١٤٤ فمن بدله بعد ما سمعه

صفحة

١٤٤ فمن خاف من موص جنفا
١٤٥ يا أيها الذين آمنو كتب عليكم الصيام
١٤٦ أياما معدودات فمن كان مريضا أو على سفر
١٤٧ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن
١٤٨ وإذا سألك عبادى عنى
١٤٩ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم
١٥١ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل
١٥٢ يسألونك عن الأهلة
١٥٣ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم
١٥٣ واقتلوهم حيث ثقفتموهم
١٥٤ فان انتهوا فان الله غفور رحيم
١٥٥ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة
١٥٥ الشهر الحرام بالشهر الحرام
١٥٦ وأنفقوا فى سبيل الله
١٥٧ وأتموا الحج والعمرة لله
١٥٩ الحج أشهر معلومات
١٦٠ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم
١٦١ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس
١٦١ فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله
١٦٢ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة
١٦٢ أولئك لهم نصيب مما كسبوا
١٦٣ واذكروا الله فى أيام معدودات
١٦٤ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا

صفحة

١٦٥ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة فى الإثم
١٦٦ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة لله
١٦٧ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة
١٦٧ فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات
١٦٨ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام
١٦٨ سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية
١٧٠ زين للذين كفروا الحياة الدنيا
١٧١ كان الناس أمة واحدة
١٧٢ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة
١٧٣ يسألونك ماذا ينفقون
١٧٣ كتب عليكم القتال وهو كره لكم
١٧٥ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه
١٧٦ إن الذين آمنوا والذين هاجروا
١٧٧ يسألونك عن الخمر والميسر - الى قوله - إن الله عزيز حكيم
١٨١ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن
١٨٣ ويسألونك عن المحيض
١٨٤ نساؤكم حرث لكم
١٨٥ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم
١٨٦ لا يؤاخذكم الله فى اللغو فى أيمانكم
١٨٦ الذين يؤلون من نسائهم - الى قوله - فان الله سميع عليم

صفحة

١٨٧ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء
١٩٠ الطلاق مرتان
١٩٢ فان طلقها فلا تحل له من بعد
١٩٣ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف
١٩٥ واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن
١٩٦ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين
١٩٧ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا
١٩٨ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء
١٩٩ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن
٢٠٠ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن
٢٠١ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى
٢٠٢ فان خفتم فرجالا أو ركبانا
٢٠٢ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم
٢٠٢ وللمطلقات متاع بالمعروف - الى قوله - لعلكم تعقلون
٢٠٣ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف
٢٠٥ وقاتلوا فى سبيل الله
٢٠٦ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا

صفحة

٢٠٨ ألم تر الى الملأ من بنى إسرائيل
٢٠٩ وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا
٢١٠ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه
٢١١ فلما فصل طالوت بالجنود
٢١٢ ولما برزوا لجالوت وجنوده
٢١٢ فهزموهم باذن الله
٢١٢ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض
٢١٣ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق
(الجزء الثالث)
٢١٤ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض
٢١٦ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم
٢١٧ الله لا إله إلا هو الحى القيوم
٢١٨ لا إكراه فى الدين
٢١٩ الله ولى الذين آمنوا
٢٢١ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه
٢٢٢ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها
٢٢٣ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى
٢٢٤ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله
٢٢٥ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله
٢٢٥ قول معروف ومغفرة
٢٢٦ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى

صفحة

٢٢٧ مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله
٢٢٨ أيود احدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب
٢٢٩ ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم
٢٣٠ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء
٢٣١ يؤتى الحكمة من يشاء
٢٣١ وما أنفقتم من نفقة أونذرتم من نذر
٢٣٢ إن تبدوا الصدقات فنعما هى
٢٣٤ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء
٢٣٤ للفقراء الذين أحصروا
٢٣٦ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار
٢٣٦ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس

صفحة

٢٣٧ يمحق الله الربا ويربى الصدقات
٢٣٩ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
٢٤٠ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا
٢٤٠ وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة
٢٤١ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله
٢٤٢ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه
٢٤٥ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة
٢٤٥ لله مافى السماوات وما فى الأرض
٢٤٧ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه
٢٤٨ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها
٢٥٠ الخاتمة ، سورة البقرة :
مكانتها ـ أهدافها ـ أثرها
٢٥٨ وصف القرآن ـ بقلم الرافعى

للمؤلف

الثمن

(خلاف أجرة البريد)

	ص
١ ــ أركان الاسلام الخمسة ، وأثرها فى حياة الأفراد والجماعات ، وموقف الاسلام من الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية	٢٥
٢ ــ مكانة العلم فى القرآن	٢٥
٣ ــ التعاون	١٥
٤ ــ كيف نعلم القرآن لأبناء المسلمين (٣ أجزاء) :	
(الدرس الاول) : فى العقائد والعبادات	٣
(الدرس الثانى) : حقوق الله وحقوق الوالدين	٣
(الدرس الثالث) : مكانة المرأة فى القرآن	٣
٥ ــ حياة محمد ﷺ	٣
٦ ــ الحج	٣
٧ ــ الصوم	٣
٨ ــ هداية القرآن لبنى الانسان : وهو (موجز منتخب لتفسير القرآن) صدر منه المجلد الاول ، وفيه ثلاثة أجزاء من القرآن من أول الفاتحة الى آخر سورة البقرة	٣٠

في عالم التأليف

ظهر كتاب

أركان الإسلام الخمسة

وأثرها في حياة الأفراد والجماعات

و

موقف الاسلام من الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية

لحضرة الاستاذ الدكتور

يحيى أحمد الدرديري

دكتور في الحقوق وليسانسيه في العلوم السياسية

والمراقب العام لجمعيات الشبان المسلمين

الثمن ٢٥ قرشا غير أجرة البريد

ويطلب من المؤلف بدار الشبان المسلمين

١٢ شارع الملكة نازلي — القاهرة

7

8281

الثمن ٣٠ قرشاً

المطبعة السلفية

VETVS & NOVVM TESTAMENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
JULY-AUG. 1992
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 057497768